

أَحْسَنُ تَفْسِيرٍ لِلْقُرْآنِ بِفَيْضٍ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ

مَجَالِمُ الْمَلَائِكَةِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ

الجزء التاسع والثلاثون

سورة البقرة (الآيات ٢١٦-٢١٩)

المجمع الديني للمسلمين

الشيخ صالح الطائي

أستاذ الفقه والأصول والتفسير والخلق في الشؤون العلمية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مُقَدِّمَةٌ

الحمد لله الذي تفضل على الناس بنعمة القرآن ليكون إماماً وسيلاً إلى الهداية وجعل منافعه متصلة ومعانيه متجددة تزداد طردياً مع الإرتقاء العلمي والحضاري و التداخل العالمي وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾^(١).

ليكون القرآن وتلاوته واقية وحرزاً وسلاحاً عقائدياً تشع أنواره على الإنسانية جمعاء.

ومن فلسفة التنزيل اخراج الناس من ظلمة الجهالة والضلالة إلى نور الرشاد والدراية فتتخذ مع احكامه مقدمات اليقين إلى القلوب، وتنقذ البصائر عند الإلتزام بها، ويحس حامله بجلاوة المعارف الإلهية ويشم رائحة الجنة وهو لم يزل في النشأة الأولى، لتتبدد ظلمة الحجب الدنيوية وكدورات التعلق بمباهجها؟

وفي الخبر عن الزهري قال: "قلت لعلي بن الحسين عليهما السلام: أي الأعمال أفضل؟ قال: الحال المرتحل. قلت: وما الحال المرتحل.

قال: فتح القرآن وختمه، كلما جاء بأوله ارتحل في آخره، وقال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: من أعطاه الله القرآن فرأى ان رجلاً اعطي أفضل مما اعطي فقد صغر عظيمًا وعظم صغيراً.

(١) سورة لقمان ٢٧.

والحال المرتحل تشبيهه بالمسافر الذي يصل الى محل الإقامة وينزل به ثم ينطلق منه، او انه كالدافع في سبيل الله الذي ان تلف مركوبه اعقبه بغيره لكي يواصل الدفاع ، وهذا التمثيل بيان لسمو منزلة المواظب على قراءة القرآن ودراسته، ويقع هذا الجزء، وهو الثامن والثلاثون من معالم الإيمان في تفسير القرآن في تفسير الآيات ٢١٦-٢١٩ من سورة البقرة.

وفيها علوم ومدارس اخلاقية واجتماعية لازالت كنوزها مكنونة لم يستقرأ معشارها، مع ان الإنسانية في هذا الزمان بأمس الحاجة اليها. ويبدأ هذا الجزء بقوله تعالى ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ﴾^(١) لبيان قانون وهو أن الفرض من عند الله تكليف قد لا يوافق ميل ورغبات النفوس، إذ جبلت على السكينة والحياة المستقرة ، ولكن الكفار أصروا على الهجوم على المدينة .

ولعل هذه الفطرة من زمان خلق آدم في الجنة وأكله وحواء من ثمارها قبل أن يهبط إلى الأرض بعد اغواهما ابليس ، قال تعالى ﴿فَازَلَمَّا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَاخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا رُبَّكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾^(٢).

ومن البركات في هذه الآيات مع قلة عددها انها تتناول مواضيع ابتلائية واسباسية فمنها ما يذكر القتال في الشهر الحرام، لبيان قانون وهو تقسيم أشهر السنة القمرية إلى قسمين :

الأول : أشهر الحل .

الثاني : الأشهر الحرم التي لا يجوز القتال فيها إلا دفاعاً، قال تعالى ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ

(١) سورة البقرة ٢١٦.

(٢) سورة البقرة ٣٦.

وَالْأَرْضِ ﴿١﴾ .

وليكون من مصاديق قوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ ﴿٢﴾،
استئصال الفتنة ببعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بمحاربة عبادة
الأوثان وثبات المسلمين في منازل الإيمان.

وتضمنت آيات هذا الجزء الثناء على المسلمين الذين اختاروا الهجرة،
وبدلوا الوسع في الدفاع عن النبوة وبيضة الإسلام وتطلعهم إلى رحمة
الله، قال تعالى ﴿إِن تَكُونُوا تَالْمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْمُونَ كَمَا تَأْمُونَ وَتَرْجُونَ
مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ ﴿٣﴾، ما يبين كيفية التعامل مع اليتامى ومنها ما
يتعلق بالنهي عن الخمر والميسر ومنها الجهاد ودخول ميادينه أحياناً على
نحو القهر والإضطرار لإحقاق الحق ودفع الأذى والشر، ومنها ما يتناول
احكام مع اشارات كريمة لإختيار الزوجة وفق قواعد كلية شرعية .

وهذا التفسير سياحة مباركة لا تتعدى النظر في معاني وكنوز الآيات
دون التمكن من سبر اغوارها او معرفة فرائدها العلمية والعقلية الثمينة
فسبحان الذي جعل ﴿ الْكِتَابَ نُبِيَّانَا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى
لِّلْمُسْلِمِينَ ﴾ .

حرر في الواحد والعشرين من شهر رمضان المبارك ١٤٢٣ هـ

(١) سورة التوبة ٣٥ .

(٢) سورة الأنبياء ١٠٧ .

(٣) سورة النساء ١٠٤ .

قوله تعالى ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ الآية ٢١٦

الإعراب واللغة

كتب : فعل ماض مبني للمجهول.

عليكم : جار ومجرور.

القتال : نائب فاعل مرفوع بالضممة .

وهو : الواو: حالية.

هو : ضمير منفصل مبني في محل رفع مبتدأ.

كره : خبر مرفوع وعلامة رفعه الضمة.

وعسى : الواو استئنافية.

عسى : فعل ماض جامد وقيل انها هنا تامة لمجيء (ان) بعدها، أن :

حرف مصدري ونصب.

تكرهوا : فعل مضارع منصوب وعلامة نصبه حذف النون : الواو

فاعل.

شيئاً: مفعول به منصوب وعلامة نصبه الفتحة الظاهرة على آخره .

هو خير لكم، مثل إعراب هو كره لكم، أي تقدم نظير إعرابها .

والله: الواو استئنافية، لفظ الجلالة: مبتدأ مرفوع بالضممة .

يعلم: فعل مضارع مرفوع بالضممة، والفاعل ضمير مستتر عائد للذات

المقدسة .

والجملة خبر للمبتدأ.

وانتم لا تعلمون، الواو: حرف عطف، أنتم ضمير منفصل مبني في محل رفع مبتدأ، لا: نافية.

تعلمون: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ثبوت النون، الواو: فاعل، وكتب أي قضى، ويقال: كتب القاضي بالنفقة، والكره تقيض الطوع، وفي التنزيل ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾^(١).

في سياق الآيات

بعد الأمر من الله عز وجل بالإتفاق وكيفية جاءت هذه الآية متعلقة بالبذل والسخاء بالنفوس وتحمل المشاق دفاعاً في سبيل الله تعالى.

إبتدأت الآية السابقة بالخطاب للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بأن المسلمين يلجأون إليه ويسألونه عما ينفقون،

فجاء الجواب من عند الله عز وجل في تعيين جهة الإتفاق لبيان كبرى كلية وهي أن تعيين المستحق في الصدقة والزكاة ونحوها هو الأهم في مسألة النفقة ليدل بالدلالة الإلتزامية على البشارة بسعة الرزق، والمندوحة في جنس المنفق منه،

وسياتي مزيد كلام عن أسئلة المسلمين والناس للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ولزوم تصنيفها وتقسيمها^(٢).

وأختتمت الآية بقوله تعالى ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾^(٣)، وبين فعل الخير والإتفاق بقصد القربة عموم وخصوص مطلق، إذ أن الخير أعم في موضوعه وحكمه ودلالته وليبيان عدم حصر الإتفاق على

(١) سورة آل عمران ٨٤.

(٢) انظر الجزء السادس والسبعين بعد المائة من هذا السفر.

(٣) سورة البقرة ٢١٥.

الذين ذكرتهم الآية وإن كانت لهم الأولوية .

وأخرج (البيهقي عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من سأل الناس في غير فاقة نزلت به ، أو عيال لا يطيقهم جاء يوم القيامة بوجه ليس عليه لحم ، وقال رسول الله صلى الله عليه وآله : من فتح على نفسه باب مسألة من غير فاقة نزلت به ، أو عيال لا يطيقهم فتح الله عليه باب فاقة من حيث لا يحتسب .

وأخرج الطبراني عن ابن عباس يرفعه قال : ما نقصت صدقة من مال ، وما مد عبد يده بصدقة إلا ألقيت في يد الله قبل أن تقع في يد السائل ، ولا فتح عبد باب مسألة له عنها غنى إلا فتح الله له باب فقر .

وأخرج أحمد والترمذي وصححه وابن ماجه عن أبي كبشة الأنماري ، أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : ثلاث أقسم عليهن وأحدثكم حديثاً فاحفظوه : ما نقص مال عبد من صدقة ، ولا ظلم عبد مظلمة صبر عليها إلا زاده الله بها عزاً ، ولا فتح عبد باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقر ، وأحدثكم حديثاً فاحفظوه : إنما الدنيا لأربعة نفر :

عبد رزقه الله مالاً وعلماً فهو يتقي فيه ربه ، ويصل فيه رحمه ، ويعلم لله فيه حقاً ، فهذا بأفضل المنازل .

وعبد رزقه الله علماً ولم يرزقه مالاً فهو صادق النية يقول : لو أن لي مالاً لعملت بعمل فلان فهو بنيته فأجرهما سواء .

وعبد رزقه الله مالاً ولم يرزقه علماً فهو ينجب في ماله بغير علم ، ولا يتقي فيه ربه ، ولا يصل فيه رحمه ، ولا يعلم فيه لله حقاً ، فهذا باخث المنازل .

وعبد لم يرزقه الله مالاً ولا علماً فهو يقول : لو أن لي مالاً لعملت

فيه بعمل فلان ، فهو بنيته فوزرهما سواء^(١) .

فمن إعجاز القرآن أن تبدأ الآية بالأمر الخاص لتختتم بالأعم والأوسع ، أو بالعكس وبما يفيد النفع الأعم ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(٢) .

وجاءت آية البحث بالخطاب للمسلمين وبصيغة الفرض والوجوب بقوله تعالى ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ﴾^(٣) .

ويدل لفظ (كتب) على الحتم والوجوب مما يدل بالدلالة التضمنية على أنه في سبيل الله ، وورد لفظ كتب ثلاث عشرة في القرآن منها خمسة فيها فرض على المسلمين منها .

الأولى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحَرْبُ بِالْحَرْبِ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأَنْثَىٰ بِالْأَنْثَىٰ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبِعْهُ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدِّءْ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَعَدَّىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(٤) .

الثانية : ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلَّذِينَ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾^(٥) .

الثالثة : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ

(١) الدر المنثور ٢/٢٢٧ .

(٢) سورة آل عمران ١١٠ .

(٣) سورة آل عمران ٢١٦ .

(٤) سورة البقرة ١٧٨ .

(٥) سورة البقرة ١٨٠ .

مِنْ قِبَلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١﴾

الرابعة : آية البحث .

الخامسة : ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٢﴾﴾

لتكون النسبة بين موضوع البحث والآية أعلاه العموم والخصوص المطلق .

فجاءت آية البحث عامة ، أما الآية أعلاه فتضمنت اللوم لطائفة من الأعراب وليس في الآيات حث على الهجوم أو الغزو ، إنما المراد من القتال هو الدفاع بدليل ذكر آية البحث بكرهته للنبي صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين والمسلمات لأصالة العموم .

وهل من صلة بين سؤال المسلمين عن الإنفاق وبين كتابة وفرض القتال عليهم ، الجواب نعم ، وفيه شاهد على تعدد وظائف المسلمين الجهادية والعبادية والأخلاقية ، قال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴿٣﴾﴾

لقد انتقل الناس ببعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلى سنن سماوية تتضمن بعث البهجة في النفوس ، سواء عند الذين يفعلون الخير أو الذين يتلقونه أو هما معاً ، أي من الناس من يفعل مصاديق من الخير ، ويتلقى مصاديق أخرى مشابهة أو مغايرة لها .

وإذا كان في القتال كره للمسلمين فهل في الإنفاق كره ، الجواب لا ، ويدل عليه مبادرتهم لسؤال النبي صلى الله عليه وآله وسلم بقوله تعالى

(١) سورة البقرة ١٨٣ .

(٢) سورة البقرة ٢٤٦ .

(٣) سورة الأنفال ٧٢ .

في الآية السابقة ﴿سَأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ﴾^(١)، والذي يدل في مضمونه على رضا المسلمين بالإنفاق، وقبولهم بدفع الزكاة والصدقات، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾^(٢).

ويمكن إنشاء قانون وهو: أسئلة المسلمين للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم من مصاديق ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(٣).

وجاءت الآية قبل السابقة بالخطاب للمسلمين وبيان أن البلاء في الأبدان والأرزاق سبيل مبارك إلى دخول الجنة والإقامة الدائمة في النعيم، بقوله تعالى ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَكَلَّمَا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ﴾^(٤).

والصلة بين الآية أعلاه وبين معاني القتال في آية البحث هي العموم والخصوص المطلق، فالقتال مصداق للبأساء وللضراء مجتمعين ومتفرقين ومن إعجاز القرآن تقديم ذكر الجنة والترغيب فيها، والإخبار عن حتمية القتال،

ثم جاءت الآية السابقة بالإخبار عن وجود هدنة قهرية تعيينية في أفراد الزمان الطولية، وهي الأشهر الحرم الأربعة في كل سنة بقوله تعالى ﴿سَأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ فِيهِ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾^(٥). لجعل المسلمين في حيطة وإحتراز، وعدم الركون للغفلة خشية مباغته الذين كفروا، وهجومهم على المدينة.

(١) سورة البقرة ٢١٥.

(٢) سورة الحشر ٧.

(٣) سورة آل عمران ١١٠.

(٤) سورة البقرة ٢١٤.

(٥) سورة البقرة ٢١٧.

والأشهر الحرم هي ذو القعدة وذو الحجة ومحرم سرد، وشهر رجب منفرد ويقع بين جمادى الآخرة وبين رجب .

وعن السدي : أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعث سرية ، فلقوا عمرو بن الحضرمي وهو مقبل من الطائف في آخر ليلة من جمادى وأول ليلة من رجب ، وأن أصحاب محمد كانوا يظنون أن تلك الليلة من جمادى ،

وكانت أول رجب ولم يشعروا ، فقتله رجل منهم وأخذوا ما كان معه ، وأن المشركين أرسلوا يعيرونه بذلك ، فقال الله { يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير }^(١) وغيره أكبر منه { وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام }^(٢)

وإخراج أهل المسجد الحرام منه أكبر من الذي أصاب أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، والشرك أشد منه .

وأخرج ابن إسحق حدثني الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال : نزل فيما كان من مصاب عمرو بن الحضرمي { يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه . . } إلى آخر الآية .

وأخرج ابن منده وابن عساكر من طريق عكرمة عن ابن عباس « أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعث صفوان بن بيضاء في سرية عبد الله بن جحش قبل الأبواء ، فغنموا وفيهم نزلت { يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه . . . }^(٣) .

وأخرج ابن جرير من طريق السدي : أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعث سرية وكانوا سبعة نفر عليهم وهم :

(١) سورة البقرة ٢١٧ .

(٢) سورة البقرة ٢١٧ .

(٣) سورة البقرة ٢١٧ .

الأول : عبد الله بن جحش الأسدي ، وهو أمير السرية .

الثاني : عمار بن ياسر .

الثالث : أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة .

الرابع : سعد بن أبي وقاص .

الخامس : عتبة بن غزوان السلمي حليف لبني نوفل .

السادس : سهيل بن بيضاء .

السابع : عامر بن فهيرة ، الذي كان مع النبي صلى الله عليه وآله

وسلم وصاحبه في طريق الهجرة إلى المدينة ، قال تعالى ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ

اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا

تَحْزَنْ إِنَّا لَنَرَى اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَةً عَلَيْهِ وَأَيْدِيَهُمْ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ

كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةَ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١﴾ .

الثامن : واقد بن عبد الله اليربوعي حليف لعمر بن الخطاب .

وكتب النبي صلى الله عليه وآله وسلم مع ابن جحش كتاباً وأمره

أن لا يقرأه حتى ينزل ملل ، فلما نزل يبطن ملل فتح الكتاب ، (فإذا فيه

أن سر حتى تنزل بطن نخلة .

قال لأصحابه : من كان يريد الموت فليمض وليوص فإنني موص

وماض لأمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فسار وتخلف عنه

سعد بن أبي وقاص ، وعتبة بن غزوان ، أضلا راحلة لهما. (٢) .

وسار ابن جحش إلى بطن نخلة ، فإذا هم بالحكم بن كيسان ، وعبد

الله بن المغيرة بن عثمان ، وعمرو الحضرمي ، فاقتتلوا فأسروا الحكم بن

كيسان ، وعبد الله بن المغيرة ، وانقلب المغيرة وقتل عمرو الحضرمي قتله

(١) سورة التوبة ٤٠ .

(٢) ابن كثير السيرة النبوية ٢/٢٧١ .

واقد بن عبد الله ، فكانت أول غنيمة غنمها أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم .

فلما رجعوا إلى المدينة بالأسيرين وما غنموا من الأموال قال المشركون : محمد يزعم أنه يتبع طاعة الله وهو أول من استحل الشهر الحرام ، فأنزل الله { يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير }^(١).

لا يحل وما صنعتم أنتم يا معشر المشركين أكبر من القتل في الشهر الحرام حين كفرتم بالله وصددتم عنه محمداً { والفتنة } وهي الشرك أعظم عند الله من القتل في الشهر الحرام ، فذلك قوله { وصد عن سبيل الله وكفر به . . . }^(٢) الآية.

(أراد أهل مكة أن يفادوا الأسيرين، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: حتى ننظر ما فعل صاحبانا ! فلما رجع سعد وصاحبه فادى بالأسيرين، ففجر عليه المشركون)^(٣).

وأخرج القرطبي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد قال : إن رجلاً من بني تميم أرسله النبي صلى الله عليه وآله وسلم في سرية ، فمر بابن الحضرمي يحمل خمراً من الطائف إلى مكة فرماه بسهم فقتله ،

وكان بين قريش ومحمد عقد فقتله في آخر يوم من جمادى الآخرة وأول يوم من رجب . فقالت قريش : في الشهر الحرام ولنا عهد؟ فأنزل الله { قل قتال فيه كبير . . . }^(٤) الآية . يقول : كفر به وعبادة الأوثان أكبر

(١) سورة البقرة ٢١٧.

(٢) سورة البقرة ٢١٧.

(٣) تاريخ الرسل والملوك ٤٣٥/١.

(٤) سورة البقرة ٢١٧.

من قتل ابن الحضرمي^(١).

إعجاز الآية الذاتي

في الآية بيان وتوكيد لوجوب الجهاد في سبيل الله وتثبيته وترسيخه في النفوس والمجتمعات ولزوم قبوله ومنع التردد فيه.

لقد ابتدأت الآية بصيغة الفعل المبني للمجهول (كتب) أي وجب عليكم، ولم تذكر الآية الذي كتب وأوجب القتال، لبيان قانون وهو تسالم المسلمين والخلائق أنه لا يكتب ويوجب القتال على المسلمين الا الله عز وجل، وفيه حجة على الذين كفروا الذين يقاتلون بالباطل وإرضاء للطغاة الجائرين، قال تعالى ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يقاتلون فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يقاتلون فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقاتلوا أولياءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كانَ ضَعِيفاً﴾^(٢).

ومن إعجاز الآية بيان عدم الملازمة بين النفع والحب، وبين الكره والضرر، فقد يجب الإنسان ما يجلب له الضرر، أو يكره شيئاً يفوته نفع عظيم، وفي التنزيل ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٣).

ومن الآيات في المقام أن متعلق الأمر الإلهي النفع في الدنيا، والثواب العظيم في الآخرة، فليس من حصر لمصاديق الخير الواردة في قوله تعالى ﴿وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾.

لقد جاءت الآية صريحة بأن القتال أمر مفروض على المسلمين لأنه دفاع وزجر للذين كفروا عن التعدي وغزو المدينة.

(١) الدر المنثور ٣/٢.

(٢) سورة النساء ٧٦.

(٣) سورة البقرة ٢١٦.

فمن إعجاز الآية أنها لم تنزل في مكة المكرمة إذ كان المسلمون في حال استضعاف ويتحملون الأذى، والتعذيب بصبر، ومنهم من مات تحت التعذيب مثل سمية أم عمار بن ياسر، وهي أول شهيد في الإسلام. وقد بادر آل ياسر إلى دخول الإسلام بعد البعثة النبوية الشريفة، وهم ممن طاله تعذيب قريش، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يمر بهم وهم يعذبون فيقول: " صبراً يا آل ياسر اللهم اغفر لآل ياسر وقد فعلت^(١) .

وتدعو الآية المسلمين إلى الإمثال لأمر الله عز وجل سواء كان فيه أذى أو لا، لبيان قانون وهو أن المصلحة في هذا الإمثال، ولقد تلقى المسلمون كتابة القتال بالقبول والرضا، ففضل الله عز وجل فامدهم بالملائكة وجعل نصرهم جلياً خالداً، قال تعالى ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾^(٢).

ويمكن تسمية هذه الآية آية ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ﴾ وورد هذا اللفظ مرتين في القرآن، إذ جاء بخصوص بني إسرائيل بقوله تعالى ﴿قَالُوا لَنْبِيٍّ لَّهُمْ بُعِثَ لَنَا مُلْكًا نَقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾^(٣).

ومجموع ورود لفظ (كتب عليكم) في القرآن خمس مرات إذ وردت الثلاثة الأخرى خطاباً للمسلمين والمسلمات وهي:

(١) الإستيعاب في معرفة الاصحاب ٤/٢.

(٢) سورة آل عمران ١٢٣.

(٣) سورة البقرة ٢٤٦.

الأولى : ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ﴾^(١).

الثانية : ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾^(٢).

الثالثة : ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾^(٣).

إعجاز الآية الغيري

تبعث الآية الشوق في نفوس المسلمين للدفاع عن الإسلام والنبوة والتنزيل، لأن أمر القتال مفروض عليهم من عند الله، وهل يدل هذا الفرض على نصره الله للمسلمين.

الجواب نعم، فحينما كتب الله عز وجل القتال على المسلمين دفاعاً عن دينه، ومن أجل إستدامة عبادته في الأرض فانه سبحانه يمدهم بأسباب النصر الظاهرة والخفية، والسماوية والأرضية، وفي التنزيل ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾^(٤).

ومن خصائص آية البحث دعوة المسلمين للمناجاة بينهم بالخروج للدفاع، ومنع تفشي القعود بينهم، ومنها فضح المنافقين الذين يسعون في صد المؤمنين عن الجهاد، قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾^(٥).

ومن إعجاز آية البحث أنها تملأ قلوب الذين كفروا بالحسرة والأسى،

(١) سورة البقرة ١٧٨.

(٢) سورة البقرة ١٨٠.

(٣) سورة البقرة ١٨٣.

(٤) سورة المدثر ٣١.

(٥) سورة آل عمران ١٥٦.

وتجعلهم يعزفون عن الهجوم على المسلمين وثغورهم، وتتضمن الآية الإنذار للذين كفروا بأن المسلمين يبادرون إلى القتال والدفاع بشوق ورضا.

ومن خصائص آية البحث أنها تمنع الخلاف بين المسلمين في القتال، أو تفضيل حياة الدعة والراحة، وقد ورد قوله تعالى بخصوص معركة تبوك ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾^(١)، رَحُبَتْ^(١) وهم :

الأول : مرارة بن الربيع.

الثاني : وكعب بن مالك.

الثالث : وهلال بن أمية^(٢).

فلم يخرجوا مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى تبوك، إذ إختاروا حياة الدعة وطيب الثمار، وخافوا من العسر والحر في الطريق وليس عن شك أو نفاق أو خشية من ملاقاتة جيوش الروم.

وعن عبدالله بن كعب بن مالك، وكان قائد كعب من بنيه حين عمى قال: سمعت كعب بن مالك يحدث حديثه حين تخلف عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في كتيبة تبوك، فقال كعب بن مالك: لم أتخلف عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في غزاة غيرها قط إلا في كتيبة تبوك، غير أنني كنت تخلفت في غزاة بدر، ولم يعاتب أحدٌ تخلف عنها، وإنما خرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يريد عير^(٣) قريش، حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد.

ولقد شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليلة العقبة حين

(١) سورة التوبة ١١٨.

(٢) تفسير ابن كثير ٤/٢١٠.

(٣) العير: القافلة المحملة بالبضائع.

توافقنا على الإسلام، وما أحب أن لي بها مشهد بدر، وإن كانت بدر أذكر في الناس منها وأشهر، وكان من خبري حين تخلفت عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في كتيبة تبوك أني لم أكن قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنه في تلك الغزاة، والله ما جمعت قبلها راحلتين قط حتى جمعتهما في تلك الغزاة.

وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قلماً يريد الخروج بكتيبة إلا ورى غيرها، حتى كانت تلك الكتيبة فأمر بها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في حر شديد، واستقبل سفراً بعيداً ومفازاً، واستقبل عدواً كثيراً فجلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة عدوهم، فأخبرهم وجهه الذي يريد، والمسلمون مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كثير، لا يجمعهم كتاب حافظ - يريد الديوان.

فقال كعب: فقل رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أن ذلك سيخفى له ما لم ينزل فيه وحي من الله، عز وجل، وغزا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تلك الغزاة حين طابت الثمار والظل، وأنا إليها أصغر^(١). فتجهز إليها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والمؤمنون معه، وطفقت أغدو لكي أتجهز معهم، فأرجع ولم أقض من جهازي شيئاً، فأقول لنفسى: أنا قادر على ذلك إذا أردت، فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى شمر بالناس الجد.

فأصبح رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم غادياً والمسلمون معه، ولم أقض من جهازي شيئاً، وقلت: الجهاز بعد يوم أو يومين ثم أحقه فغدوت بعدما فصلوا لأتجهز، فرجعت ولم أقض شيئاً من جهازي. ثم غدوت فرجعت ولم أقض شيئاً.

(١) أي أميل إليها وجهي (والصعر داء يصيب الإبل فيلوي أعناقها، فلذلك سمى الرجل المتكبر أصعر).

فلم يزل ذلك يتماذى بي حتى أسرعوا وتفارط الغزو، فهممت أن أرتحل فأدركهم -وليت أني فعلت- ثم لم يقدر ذلك لي، فطفقت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فطفئت فيهم يحزنني ألا أرى إلا رجلا مغموصاً^(١) عليه في النفاق، أو رجلا ممن عذره الله، عز وجل،

ولم يذكرني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى بلغ تبوك، فقال وهو جالس في القوم بتبوك: ما فعل كعب بن مالك؟ قال رجل من بني سلمة: حبسه يا رسول الله برُداءه، والنظر في عطفه. فقال له معاذ بن جبل: بشما قلت! والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيراً.

فسكت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، قال كعب بن مالك: فلما بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد توجه قافلاً من تبوك حضرني بثي فطفقت أتذكر الكذب.

وأقول: بماذا أخرج من سخطه غدا؟ أستعين على ذلك كل ذي رأي من أهلي.

فلما قيل: إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد أظلم قادمًا، زاح عني الباطل وعرفت أني لم أنج منه بشيء أبداً. فأجمعت صدقه.

وصبح رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فركع فيه ركعتين، ثم جلس للناس. فلما فعل ذلك جاءه المتخلفون فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له -وكانوا بضعة وثمانين رجلاً- فقبل منهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم علانيتهم ويستغفر لهم، ويكل سرائرهم إلى الله تعالى، حتى جئت،

فلما سلمت عليه تبسم تبسم الم غضب، ثم قال لي: "تعال"، فجئت أمشي حتى جلست بين يديه، فقال لي: "ما خلفك، ألم تك قد اشتريت

(١) مغموص: أي مطعون في دينه ومعاب عليه التلبس بالنفاق.

ظهرك^(١).

قال: فقلت: يا رسول الله، إني لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أن أخرج من سَخَطه بعدر، لقد أعطيتُ جدلاً ولكنه والله لقد علمتُ لئن حَدَّثتكَ اليومَ حديثَ كَذِبٍ تَرْضَى به عني، ليوشكن الله يُسَخِطكَ علي، ولئن حَدَّثتكَ بصدقٍ تَجِدُ عَلَيَّ فيه، إني لأرجو أقربَ عقبى ذلكَ عفواً من الله، عز وجل والله ما كان لي عذر، والله ما كنت قط أفرغ ولا أيسر مني حين تخلفت عنك قال :

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أما هذا فقد صدق، فقم حتى يقضي الله فيك.

فقمتم وبادرني رجال من بني سلمة واتبعوني، فقالوا لي: والله ما علمناك كنت أذنبت ذنباً قبل هذا، ولقد عَجَزْتَ ألا تكون اعتذرت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بما اعتذر به المتخلفون فقد كان كافيك من ذنبك استغفار رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لك. قال: فوالله ما زالوا يؤنبوني حتى أردت أن أرجع فأكذب نفسي: قال: ثم قلت لهم: هل لقي هذا معي أحد.

قالوا: نعم، لقيه معك رجلان، قالوا ما قلت، وقيل لهما مثل ما قيل لك. قلت: فمن هما؟ قالوا: مُرارة بن الربيع العامري، وهلال بن أمية الواقفي.

فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدرا لي فيهما أسوة. قال: فمضيت حين ذكروهما لي -قال: ونهى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المسلمين عن كلامنا -أي الثلاثة- من بين من تخلف عنه، فاجتنبنا الناس وتغيروا لنا، حتى تنكرت لي في نفسي الأرض، فما هي بالأرض التي كنت أعرف، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة. فأما صاحبائي فاستكانا

(١) أي اشترت البعير القوي الظهر.

وقعدا في بيوتهما يبكيان.

وأما أنا فكننت أشب القوم وأجلدهم^(١)، فكننت أشهد الصلاة مع المسلمين، وأطوف بالأسواق فلا يكلمني أحد، وآتي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو في مجلسه بعد الصلاة فأسلم.

وأقول في نفسي: حرك شفتيه برد السلام عليّ أم لا؟ ثم أصلي قريباً منه، وأسارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتي نظر إليّ، فإذا التفت نحوه أعرّض، حتى إذا طال عليّ ذلك من هجر المسلمين مشيت حتى تسورت^(٢)، حائط أبي قتادة - وهو ابن عمي، وأحب الناس إليّ - فسلمت عليه.

فوالله ما رد عليّ السلام، فقلت له: يا أبا قتادة، أنشدك الله^(٣): هل تعلم أنني أحب الله ورسوله؟ قال: فسكت. قال: فعدت فنشدته فسكت، فعدت فنشدته فقال: الله ورسوله أعلم. قال: ففاضت عيناى وتوليت حتى تسورت الجدار.

فبينما أنا أمشي بسوق المدينة إذا نبّطني من أنباط الشام، ممن قدم بطعام يبيعه بالمدينة يقول: من يدل على كعب بن مالك؟ قال: فطفق^(٤) الناس يشيرون له إليّ.

حتى جاء فدفع إليّ كتاباً من ملك غسان، وكننت كاتباً فإذا فيه: أما بعد، فقد بلغنا أن صاحبك قد جفاك ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة، فالحق بنا نواسك، ولكن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، لم يجف كعباً إنما كان يجبه، ويتركه يصلي قريباً منه مع قصوره في القعود عن

(١) أي أنه أصغر الثلاثة، وأقواهم وأكثرهم صبراً.

(٢) تسورت أي علوت وصعدت السور.

(٣) أي أسألك بالله، وفي رواية، أنشدتك بالله.

(٤) طفق أي صار وجعل يفعل.

كتيبة تبوك والتي لم يقع فيها قتال .

ولم يكن كعب في دار هوان في المدينة ، وهو ممن شهد بيعة العقبة ، لذا يقال عنه الخزرجي العقبي الأحدي ، ولم يشهد معركة بدر وهو شاعر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وقد آخى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بينه وبين الزبير . وقيل بينه وبين طلحة بن عبيد الله .

وقد أصيب كعب بجراحات شديدة في معركة أحد ، ولو مات يومئذ لورثه أخوه بالإيمان إذ نزل قوله تعالى ﴿ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ ﴾^(١) ، بعد معركة أحد .

قال كعب : فقلت حين قرأتها: وهذا أيضاً من البلاء. قال: فتميمت به التنور فسجرته حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين، إذا برسول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يأتيني.

فقال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرك أن تعتزل امرأتك. قال: فقلت: أطلقها أم ماذا أفعل؟ قال: بل اعتزلها ولا تقربها. قال: وأرسل إلى صاحبي بمثل ذلك قال: فقلت لامرأتي: الحقني بأهلك، فكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر.

قال: فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت له: يا رسول الله، إن هلالاً شيخ ضائع ليس له خادم، فهل تكره أن أخدمه؟ قال: "لا ولكن لا يقربنك".

قالت: وإنه والله ما به حركة إلى شيء، والله ما يزال ييكي من لدن أن كان من أمرك ما كان إلى يومه هذا.

قال: فقال لي بعض أهلي: لو استأذنت رسول الله صلى الله عليه وسلم في امرأتك، فقد أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه. قال: فقلت:

(١) سورة الأنفال ٧٥.

والله لا أستأذن فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما أدري ما يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا استأذنته وأنا رجل شاب؟ قال: فلبثنا بعد ذلك عشر ليال، فأكمل لنا خمسون ليلة من حين نهى عن كلامنا قال: ثم صليت صلاة الفجر صباح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا.

فبينما أنا جالس على الحال التي ذكر الله تعالى منا، قد ضاقت علي نفسي، وضاقت علي الأرض بما رحبت سمعت صارخا أوفى على جبل سَلَع^(١)، يقول بأعلى صوته:

يا كعب بن مالك، أبشر. قال: فخررت ساجدا، وعرفت أن قد جاء فرج، فأذن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بتوبة الله علينا حين صلى الفجر .

فذهب الناس يبشروننا، وذهب قبل صاحبي مبشرون، وركض إلي رجل فرساً، وسعى ساع من أسلم وأوفى على الجبل، فكان الصوت أسرع من الفرس .

فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرنني، فنزعت ثوبي، فكسوتهما إياه ببشارته، والله ما أملك غيرهما يومئذ، واستعرت ثوبين فلبستهما، وانطلقت أؤم رسول الله صلى الله عليه وسلم، يلقاني الناس فوجا فوجا يهتثوني بالتوبة، يقولون:

لِيَهْنِك توبة الله عليك. حتى دخلت المسجد، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس في المسجد حوله الناس، فقام إلي طلحة بن عبيد الله يهرول، حتى صافحني وهنأني، والله ما قام إلي رجل من المهاجرين غيره^(٢).

(١) سَلَع : جبل بالمدينة مشهور وقد عسكر النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالمسلمين بالمسلمين في سفحه في معركة الخندق وجعلوا ظهورهم إلى الجبل.

(٢) لعله من الشواهد على أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم آخى بين كعب وطلحة .

قال كعب: فلما سلمت على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال وهو يبرق وجهه من السرور: "أبشر بخير يوم مرّ عليك منذ ولدتك أمك."

قلت: أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله؟ قال: "لا بل من عند الله. قال: وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا سرّ استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر، حتى يعرف ذلك منه. فلما جلست بين يديه قلت: يا رسول الله، إن من تويتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسوله."

قال: أمسك عليك بعض مالك، فهو خير لك."

فقلت: فإني أمسك سهمي الذي بخير. وقلت: يا رسول الله، إنما نجاني الله بالصدق، وإن من تويتي ألا أحدث إلا صدقا ما بقيت. قال: فوالله ما أعلم أحدا من المسلمين أبلاه الله من الصدق في الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أحسن مما أبلاني الله تعالى.

والله ما تعمدت كذبة منذ قلت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى يومي هذا، وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقي.

قال: وأنزل الله تعالى ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ * وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتِ الْأَرْضُ بِمَا رَحَبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿١﴾

قال كعب: فوالله ما أنعم الله علي من نعمة قط بعد أن هداني للإسلام أعظم في نفسي من صدقي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يومئذ ألا أكون كذبتة فأهلك كما هلك الذين كذبوه ﴿حين كذبوه﴾ فإن الله تعالى قال للذين كذبوه حين أنزل الوحي شر ما قال لأحد، قال الله تعالى ﴿سَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ تُعْرَضُوا عَنْهُمْ فَاعْرَضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجَسٌ وَمَا لَهُمْ جَهَنَّمَ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ * يَخْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿١﴾.

قال: وكنا خلفنا -أيها الثلاثة- عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حين حلفوا، فبايعهم واستغفر لهم. وأرجأ رسول الله أمرنا، حتى قضى الله فيه، فبذلك قال الله تعالى ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا﴾ وليس تخليفه إيانا وإرجاؤه أمرنا الذي ذكر مما خلفنا بتخلفنا عن الغزو، وإنما هو عمن حلف له واعتذر إليه، فقبل منه ﴿٢﴾.

وأختتمت الآية بالإخبار عن إحاطة الله عز وجل علماً بكل شئ، وأن المسلمين لا يعلمون تمام أسباب وغايات وآثار ومنافع القتال لهم، وأضراره للذين كفروا وسوء عاقبة قعود المنافقين عنه، وبثهم الأراجيف في المدينة، قال تعالى في ذمهم ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِلْإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنِ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿٣﴾.

(١) سورة التوبة ٩٥، ٩٦.

(٢) تفسير ابن كثير ٤/٢٢٩.

(٣) سورة آل عمران ١٦٨.

الآية سلاح

يدرك كل انسان المساهمة العظيمة لهذه الآية في سلامة اختيار أهل الإيمان الدفاع طريقاً للإرتقاء وبلوغ افضل المنازل يوم القيامة كما تبين المنافع النوعية العامة في الجهاد، والصبر في سبيل الله، قال تعالى ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ (١).

وتبين الآية حقيقة وهي أن القتال بذاته أمر مبغوض، تنفر منه النفوس، نعم قد يتتاجى الناس لإعلانه ونشوبه، ولكن الأسى يظهر فيما بعد، فالحرب أولها نجوى وأوسطها شكوى وآخرها بلوى.

لذا فمن إعجاز الآية نعت القتال بأنه كره للمسلمين أي أنهم لا يريدون القتال، ويدركون قانوناً وهو كفاية حجة المعجزة والبراهين النبوية لجذب الناس إلى الإسلام، وأن الذين كفروا هم الذين إختاروا القتال والحرب، لذا أمر الله عز وجل المسلمين بالصبر، قال تعالى ﴿أَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (٢).

وجاءت آية البحث لتبين أن في القتال نفعاً للمسلمين عندما يعتدي عليهم الذين كفروا، ويريدون الإجهاز على الإسلام. لقد أعلن كفار قريش للناس أنهم يرومون قتل النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وفي معركة أحد نودي أن قتل محمد.

وعن خالد بن رباح عن الأعرج، قال: لما صاح الشيطان إن محمداً قد قتل، قال أبو سفيان بن حرب :

يا معشر قريش، أيكم قتل محمداً.

قال ابن قميئة: أنا قتلته .

(١) سورة البقرة ٤٥.

(٢) سورة البقرة ١٥٣.

قال: نسورك كما تفعل الأعاجم بأبطالها أي نجعل سواراً في يدك كالوسام.

جعل أبو سفيان يطوف بأبي عامر الفاسق في المعركة هل يرى محمداً بين القتلى، فمر بخارجة بن زيد بن أبي زهير، فقال: يا أبا سفيان، هل تدري من هذا القتيل؟ .

قال: لا.

قال: هذا خارجة بن زيد بن أبي زهير الخزرجي، هذا سيد بلحارث بن الخزرج.

ومر بعباس بن عباد بن نضلة إلى جنبه فقال: هذا ابن قوقل، هذا الشريف في بيت الشرف. قال: ثم مر بذكوان ابن عبد قيس، فقال: هذا من ساداتهم.

ومر بابنه حنظلة غسيل الملائكة فقال أبو سفيان: من هذا يا ابن عامر؟ قال: هذا أعز من ها هنا علي، هذا حنظلة بن أبي عامر.

قال أبو سفيان: ما نرى مصرع محمد، ولو كان قتله لرأيناه، كذب ابن قميئة! ولقي خالد بن الوليد يومئذ وكان رئيس الخيالة من جيش المشركين .

فقال: هل تبين عندكم قتل محمد؟ قال خالد: رأيته أقبل في نفرٍ من أصحابه مصعبين في الجبل. قال أبو سفيان: هذا حق! كذب ابن قميئة، زعم أنه قتله^(١) .

ويتخذ المسلمون آية البحث سلاحاً لقهر النفس الشهوية، ومنعها من الإستحواذ على الجوارح والجوانح.

وهل قوله تعالى ﴿وَمَوْكُؤُهُ لَكُمْ﴾ بلحاظ إتباع الهوى، وحب الدنيا، الجواب لا، إنما يكون تقدير الآية على وجوه:

(١) مغازي الواقدي ١/ ٨٩ .

الأول : وهو كره لكم بما أنتم مسلمون.

الثاني : وهو كره لكم لضرره الذاتي .

الثالث : وهو كره لكم لمعاني الرحمة التي تتخشى المسلمون ،
ورأفتهم بالناس جميعاً ، وهو من عمومات قوله تعالى ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا
رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾^(١).

الرابع : وهو كره لكم لإنتقطاعكم إلا الله بأدائكم الفرائض .

الخامس : وهو كره لكم لسعيكم في هداية الناس ﴿ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ
الْحَسَنَةِ ﴾^(٢).

السادس : وهو كره لكم لأن المشركين هم الذين يجمعون ويقومون
بغزو المسلمين .

السابع : وهو كره لكم ولكن فيه نفع عظيم لأنه يفضح ظلم وتعدي
الذين كفروا ، وتلحقهم الهزيمة به .

ليبان أن المسلمين يكرهون القتال لأنه يدخل الذين كفروا النار،
والأصل وجوب إيمان الناس من غير قتال لتجلي الآيات العقلية في نبوة
محمد صلى الله عليه وآله وسلم والآيات الحسية في نبوته والنبوات
السابقة، وقد جاء القرآن بتوثيقها لتذكير كل جيل من الناس بهذه الآيات
وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿ ذَكَرْنَاكَ إِنَّا نَعَتُ الذِّكْرَى ﴾^(٣)، لذا فإن
سلاح ينفع المسلمين وأهل الكتاب والناس جميعاً، إذ أن عزم المسلمين
على الدفاع زاجر للذين كفروا عنه ، وذات آية البحث وأثرها من

(١) سورة الأنبياء ١٠٧.

(٢) سورة النحل ١٢٥.

(٣) سورة الأعلى ٩.

مصاديق قوله تعالى ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ﴾^(١).

مفهوم الآية

تقطع الآية الطريق على اهل النفاق والذين يميلون الى الدعة الدائمة والسعي لإيجاد مشتركات مع الكفار او الإكتفاء بصيغ الوهن والضعف حتى في حال التعدي على المسلمين وحرماتهم، وقال تعالى ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾^(٢).

ومن مفاهيم الآية الإخبار عن احتياج المسلمين للدفاع عن انفسهم فاذا تركوا الكفار فان الكفار لا يتركونهم، يعتدون على الثغور والأمصار ويحاولون اخراجهم من ارضهم ومنعهم من أداء عباداتهم فلا بد للعقيدة من حارس ومدد وعون وهو القرآن ثم تأتي الآلة ومنها السيف لشد عضدها وليكتب لها الدوام.

وفي خطاب إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم قال تعالى ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾^(٣).

ورود عن ابن عباس في الآية قال: تشاورت قريش ليلة بمكة فقال بعضهم: إذا أصبح فاثبتوه بالوثاق يريدون النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقال بعضهم: بل اقتلوه. وقال بعضهم: بل أخرجوه.

(١) سورة آل عمران ١٥١.

(٢) سورة آل عمران ١٣٩.

(٣) سورة الأنفال ٣٠.

فأطلع الله نبيه صلى الله عليه وآله وسلم على ذلك ، فبات على عليه السلام على فراش النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وخرج النبي صلى الله عليه وآله وسلم حتى لحق بالغار ، وبات المشركون يحرسون علياً عليه السلام يحسبون النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، فلما أصبحوا ثاروا إليه ، فلما رأوه علياً عليه السلام رد الله مكرهم فقالوا : أين صاحبك هذا؟ قال : لا أدري . . . ! .

فاقتصوا أثره ، فلما بلغوا الجبل اختلط عليهم فصعدوا في الجبل ، فرأوا على بابه نسج العنكبوت . فقالوا : لو دخل هنا لم يكن نسج العنكبوت على بابه ، فمكث فيه ثلاث ليال^(١) .

وآية البحث مدرسة اخلاقية تبين بغض المسلمين للقتال سواء لما فيه من الأذى والعناء والتضحيات الجسام في النفوس وتلف الأموال وتعطيل الأعمال مع احتمالات النصر او الخسارة، ولكنه امر مفروض على المسلمين ولا يعني هذا انه جزء من الشريعة بل حاجة عرضية للدفاع عنها، كما في قوله تعالى ﴿كَبَّ عَلَيْنَا قِصَاصُ﴾ .

فالقصاص لا يكون الا بعد اقدام القاتل على القتل واراقة الدماء كذلك الدفاع فان فرضه بسبب تعدي الآخرين على الإسلام والمسلمين، وقوفهم سبياً في شمول الرحمة للناس والأجيال اللاحقة بدخول الإسلام بمعنى ان جماعة في مكة يحولون دون دخول المسلمين اليها وفرض حكم الله فيها، فقتالهم خير لهذه الجماعة وللأجيال اللاحقة المتعددة والمتكثرة الى يوم القيامة ، وهو من مصاديق ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(٢) .

(١) الدر المنثور ٤/٤٤١ .

(٢) سورة الأنبياء ١٠٧ .

لتكون مكة ظهيراً للمسلمين ومصدر اشعاع بدل ان تزداد بؤرة العداة وتتسع مع تقادم السنين وهو من مصاديق ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾^(١)، وقد يصعب مقاومة وقد الشرك ومفاهيمه او يتلقى منها المسلمون اذى اذى متصلًا فلذا قالت الآية ﴿وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي ان الخير لا ينحصر بأيام الدفاع بل يشمل التالي من السنين والأحقاب فما قدّمه المسلمون الأوائل لأجيالنا لا يمكن احصاء منافعه العقائدية والتاريخية .

وكل واقعة ومعركة من معارك الدفاع تتولد منافعها الى يومنا هذا، وهي ميراث الصحابة والتابعين وتابعي التابعين للمسلمين في كل زمان، وتركة مباركة تلقي على المسلمين مسؤولية تعاهدها والحفاظ على القيم الإسلامية بالتقوى والذكر خصوصاً وان كراهية القتال في الآية أمر عام ينسب على كل الأزمنة والأجيال وامصار المسلمين وفيه زجر للكافرين وردع لهم عن الإعتداء على المسلمين إذ تدعو الآية المسلمين الى الإستعداد للقتال وملازمة الحيطة والحذر وإعداد العدة، قال تعالى ﴿سُئِلْتُمْ فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾^(٢).

وتأمر الآية المسلمين بالإعداد والتهيئة الدائمة لمستلزمات الدفاع بحسب الحال والشأن والكيفية المحتملة للمعركة لوجوب ما لا يتم الواجب الا به، كما انها تحث على مواصلة التمرين وتعلم فنون القتال لذا وردت نصوص باستحباب الرماية وركوب الخيل وتدعو الآية لمعرفة قوة العدو ومقدار عدته، وعن (رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : رسول

(١) سورة إبراهيم ٣٥.

(٢) سورة آل عمران ١٥١.

الله صلى الله عليه وآله وسلم : علموا أبناءكم السباحة والرماية ، ونعم لهو المؤمنة في بيتها المنزل ، وإذا دعاك أبواك فأجب أمك (١).

ومن فضل الله تعالى ان جعل موضوع الدفاع مناسبة لتعليم المسلمين درساً في المعرفة الإلهية والحكمة المتعالية يحتاجون إليها في حياتهم ويستضيئون بأنوارها في جميع نواحي سيرتهم العقائدية والجهادية والأخلاقية والسياسية انها مدرسة القرآن التي تتضمن العلوم المتكاملة والمناعة من الزلل والخطأ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿وَزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَيْبَاتًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (٢).

فالأمر بالدفاع ، وما في القتال مطلقاً من أسباب الكره ونفرة النفوس وحال الشدة والأذى مقرون بايامه او ساعته ليوفر للمسلمين سعادة وغبطة دائمة في النشاطين يستحق الإقدام المبادرة له، كما ان القتال دفاعاً وان كان كرهاً ففيه مغانم ونفع عظيم، وتقل فيه الخسائر والأضرار، قال تعالى ﴿وَعَدَّكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُوهَا فَعَجَلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ﴾ (٣)، والذي عجله الله هو صلح الحديبية ، ولما كان الدفاع واقعاً للمسلمين بسبب إصرار الذين كفروا على الغزو ، فقد خفف الله عز وجل عنهم من جهات :

الأولى : التباعد الزمني بين معارك الإسلام الأولى ، فلم تقع معركة بدر إلا في شهر رمضان في السنة الثانية للهجرة ، بينما وقعت معركة أحد في شهر شوال من السنة الثالثة للهجرة ، ومعركة الخندق في شهر شوال من السنة الخامسة للهجرة .

(١) معرفة الصحابة لأبي نعيم الأصبهاني ١١١/٤.

(٢) سورة النحل ٨٩.

(٣) سورة الفتح ٢٠.

الثانية : تحقق النصر العظيم للمسلمين في معركة بدر، بفضل ومدد من عند الله سبحانه ، قال تعالى ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِدَرٍّ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَأَقْبَرِ اللَّهُ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾^(١).

الثالثة : سرعة إنقضاء المعركة إذ تنتهي المعركة في ذات اليوم الذي تبدأ فيه مع شدة وعيد الذين كفروا وكثرة جيوشهم وأسلحتهم ، وقطعهم المسافات الطويلة للبطش والانتقام ، وفي التنزيل ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَوْسَى الظَّالِمِينَ﴾^(٢).

لقد كان لآية البحث اثر كبير في بعث الرعب في قلوب الكافرين كما انها مدد وعون للمسلمين فقد يكون السيف والقوة هما العون وآلة النصر.

ولكن هذا الآيات تثبت ان القرآن هو العون والمدد للسيف وان السيف والسلاح والرجال يحتاجون الى القرآن، والقرآن لا يحتاجهم وهذا من اعجاز القرآن الغيري وهو من عمومات وفيوضات قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾^(٣).

والقرآن آلة النصر والوسيلة المباركة التي تحرض المسلمين على القتال فقد يعجز الحاكم مطلقاً المسلم وغير المسلم عن توجيه الناس الى النفير واخراجهم الى ميادين المعارك ويواجه صعوبة شديدة في جمعهم حتى في حال الدفاع عن النفس والعرض والمال، وترى الحكام يميلون الى اسباب

(١) سورة آل عمران ١٢٣.

(٢) سورة آل عمران ١٥١.

(٣) سورة فاطر ١٥.

قسرية وتعسفية لإجبار المقاتلين على الخروج للمعركة ، بينما جاءت هذه الآية بالأمر بالقتال وبيان منافعه وعظيم الثواب فيه فجعلت المسلمين يتدافعون أفواجا إلى ميادين المعارك ومنهم من يخرج راجلاً وبلا عدة أو سلاح ويتسابقون إلى الشهادة والتضحية في سبيل الله ، قال تعالى ﴿فَاتَّقِرُوا بُبَاتٍ أَوْ اقْرَبُوا﴾^(١).

وكان عدد المسلمين في بدر الكبرى وهي أول معارك المسلمين ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً وليس معهم إلا فرسان وسبعون بعيراً وأكثرهم رجالة، بينما جاءت قريش بجيلائها وعددهم نحو ألف مقاتل، علماً بأن بدرأ محل بئر وموضع سوق يبعد عن المدينة نحو مائة وخمسين كيلو متراً من جهة الجنوب الغربي وتحيط به جبال عالية من جميع الجهات.

وتنهي الآية عن جعل المدار في العمل على الحب والكره والكيفية النفسانية لأن الأمور بعواقبها وخواتيمها وبحسب المصالح والمفاسد، فالآية تدعو المسلمين لتحمل المشاق ومواجهة الصعاب لبناء صرح الإسلام والتصدي لقوى البغي والضلالة وجنود الشيطان.

ومن مفاهيم الآية وجوه:

الأول : بيان رحمة الله عز وجل بالمسلمين بأمرهم بالقتال.

الثاني : إخبار المسلمين بأن الذين كفروا لن يكفوا أيديهم عنهم إلا بالقتال والدفاع، قال تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ.....﴾^(٢).

(١) سورة النساء ٧١.

(٢) سورة البقرة ١١٤.

الثالث : مع أن في القتال مشقة على المسلمين فإن الله عز وجل فرضه على المسلمين مما يدل على إرادة الدفاع، وفي الآية حذف وتقديرها على وجوه:

أولاً : وهو مكروه لكم.

ثانياً : وهو إكراه لكم.

ثالثاً : القتال سبب لما يكرهه المسلمون.

الرابع : قتال المسلمين للذين كفروا زجر وعقوبة عاجلة لهم ، وتدل الوقائع والوجدان ومعارك الإسلام الأولى على لحوق الذل والخزي بالذين كفروا في معاركهم مع الإسلام فأشد معركة على المسلمين في نتيجتها هي معركة أحد، فقد المسلمون فيها سبعين شهيداً، قال تعالى ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ﴾^(١).

وأصيب النبي صلى الله عليه وآله وسلم بجراحات بليغة واصيب الإمام علي عليه السلام والصحابة الذين قاتلوا في معركة أحد، ولم يجلب المسلمون معهم غنائم إلى المدينة، ومع هذا نزل القرآن بفضح الذين كفروا وبين خزيهم وما لحقهم من الهوان ، قال تعالى ﴿يَقْطَعُ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبْتَهُمْ فَيَنْتَقِلُوا خَائِبِينَ﴾^{(٢)(٣)}.

الخامس : تقدير الآية كتب عليكم الدفاع ، وخفف الله عز وجل عنكم وصرف عنكم الذين كفروا، ليكون بعد كره القتال وإنهاء المعركة الغبطة والرضا بفضل الله عز وجل ، ودفع شرور المشركين ، وهو من

(١) سورة آل عمران ١٥٣.

(٢) سورة آل عمران ١٢٧.

(٣) أنظر الجزء الحادي والثمانين من هذا السفر الذي جاء خاصاً بتفسير هذا الآية المباركة.

عمومات قوله تعالى ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾^(١).

السادس : في القتال أو دفعه خير كثير للمسلمين سواء في الدنيا أو الآخرة، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾^(٢).

ومن معاني آية البحث وقوله تعالى ﴿وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ﴾^(٣) ، استحباب دفع المسلمين للقتال ، وترك مقدماته ، ومن الإعجاز في نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم أنه كان لا يبدأ قتالاً ، وكان ينادي بين الصنفين (قولوا لا إله إلا الله تفلحوا) أي أن دفاعه يختص بصد المشركين ، إذ أن أهل الكتاب أتباع الأنبياء .

وكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يأمر سراياه بعدم إبتداء القتال، أي قتال الكفار وليس قتال المسلمين فيما بينهم ، فهذا لا يجوز وجاء القرآن والسنة بالنهي عنه ، عن (أبي بكرؓ) ، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم خطب في حجته، فقال: "ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، السنة اثنا عشر شهراً، منها أربعة ﴿حرم، ثلاثة﴾ متواليات: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان".

ثم قال: "أي يوم هذا؟"

قلنا: الله ورسوله أعلم.

فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: "أليس يوم النحر؟"

قلنا؛ بلى.

(١) سورة يونس ٥٨.

(٢) سورة المنافقون ٨.

(٣) سورة البقرة ٢١٦.

ثم قال: "أي شهر هذا؟"

قلنا: الله ورسوله أعلم.

فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: "أليس ذا الحجة؟"
قلنا: بلى.

ثم قال: "أي بلد هذا؟"

قلنا: الله ورسوله أعلم.

فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: "أليست البلدة؟"
قلنا: بلى.

قال: "فإن دماءكم وأموالكم -قال: وأحسبه قال: وأعراضكم - عليكم حرام كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم، ألا لا ترجعوا بعدي ضللاً يضرب بعضكم رقاب بعض، ألا هل بلغت؟
ألا ليلغ الشاهد الغائب منكم، فلعل من يبلغه يكون أوعى له من بعض من يسمعه)"^(١).

السابع: بيان قانون يحكم حياة المسلمين وهو أن المدار وعالم الفعل ليس على الحب والبغض للأشياء والأفعال، إنما يتبع الحب أمر الله عز وجل وطاعته، ويتبع البغض ما ينهى الله عز وجل عنه كالقعود والربا وإرتكاب الفواحش.

تقدير خاتمة آية البحث (والله يعلم وأنتم لا تعلمون) على وجوه منها:

أولاً: والله يعلم بمنافع الدفاع وأنتم لا تعلمون بها.

ثانياً: والله يعلم بمنافع الدفاع وأنتم لا تعلمون بأضرار القعود، قال

تعالى ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾^(٢).

(١) تفسير ابن كثير ٤/١٤٥.

(٢) سورة آل عمران ١٣٩.

ثالثاً: والله يعلم بأن الدفاع عز لكم وأنتم لا تعلمون بأضرار الهوان والضعف، قال تعالى ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾ (١).

رابعاً: والله يعلم بعظيم الثواب الذي أعده لكم على صبركم ومصابرتكم وأنتم لا تعلمون به مقداراً وكماً وكيفاً وأفراداً، قال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَنْزَلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ (٢).

خامساً: الله يعلم بالخزي والحشية العاجلة للذين كفروا وأنتم لا تعلمون، قال تعالى ﴿يَقْطَعُ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتُهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ﴾ (٣).

إنفاذ الآية

تبين الآية فقه الدفاع عن الإسلام الذي هو ركن من أركان الإسلام، وقد ورد الأمر بالدفاع في آيات عديدة مع بيان نفعه وكيف أنه برزخ دون الفتنة والبلاء، قال تعالى ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ (٤).

وعن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوا: لا إله إلا

(١) سورة آل عمران ١٣٩.

(٢) سورة فصلت ٣٠-٣١.

(٣) سورة آل عمران ١٢٧.

(٤) سورة أنفال ٣٩.

اللَّهُ، عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا، وَحَسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ" ثم قرأ: (إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكَّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيِّرٍ)^(١)، ويتجلى معنى لفظ (الناس) في الحديث أعلاه إذ يحتمل إرادة أهل مكة أو سكان الجزيرة أو المعنى الأعم بلحاظ السنة النبوية الفعلية .

ولا يدل قوله تعالى ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ﴾^(٢) على العموم وأنه فرض عين على كل مسلم وفي كل زمان إنما يتوجه الخطاب للصحابة وعموم المسلمين، فقد يسقط عن طائفة أو جيل أو أجيال لعدم تحقق وجود المقتضي ولوجود المانع، فقد داهم الذين كفروا المدينة المنورة، وارانوا قتل النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في كل من معركة بدر وأحد والخندق، وليس بينها فترة زمانية طويلة .

ولم يُمهّل المسلمون بعد الهجرة كثيراً حتى زحف المشركون وقطعوا نحو خمسمائة كيلو متراً على الإبل ومشياً على الأقدام لمنع توالي نزول القرآن، ولم يعلموا أن الله عز وجل جعل نزول القرآن نجوماً ليكون حجة على الذين كفروا، وتأكيداً سابقاً ومصاحباً ولاحقاً لمعارك الإسلام بعجز الذين كفروا عن وصول أيديهم إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم أو إيقاف التنزيل، وفي التنزيل ﴿وَيَأْتِي اللَّهُ الْإِنسَانَ بِنُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾^(٣).

إنما كتب وفرض الدفاع على المسلمين كأمة من أجيال متعاقبة وهل يمكن تأسيس قسم من أقسام الواجب الكفائي، وهو كفاية طبقة أو جيل عن طبقة وجيل آخر من المسلمين.

(١) تفسير الطبري ٢٤/٣٩٠.

(٢) سورة البقرة ٢١٦.

(٣) سورة التوبة ٣٢.

الجواب نعم، ونسميه الواجب الكفائي النوعي) ومنه أحكام التقية من الذين كفروا، والصبر عند تداخل الأمم، واجتناب الخسائر وزهوق الأرواح.

ومن الإعجاز في شريعة الإسلام أن القرآن حجة في العبادات والمعاملات والصلوات بين الناس ، وفي التنزيل ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾^(١).

الآية لطف

ما أن أخبر الله عز وجل الملائكة عن جعل الإنسان ﴿خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾^(٢)، حتى ضجوا متضرعين إلى الله عز وجل بتنزيه الأرض من الفساد والقتال كما ورد في التنزيل ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْسُ نُسُجٍ بِحَمْدِكَ وَتَقْدِيرِكَ﴾^(٣)، أي أنهم لم يحتجوا على خلافة الإنسان وليس لهم أن يحتجوا وهم الذين ﴿يَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾^(٤)، إنما أرادوا أن يرحم الله عز وجل أهل الأرض بصيرورتهم مثل الملائكة في الإنقطاع للعبادة والتسبيح، وطول الأعمار وعدم الخصومة والإقتال فيما بينهم. فسمع الله عز وجل مقالة الملائكة ولم يزرهم عليها، وهم حملة العرش وخزان السموات والذين لا يفترون عن التسبيح، بل أخبرهم بأنه سبحانه يعلم بشؤون خلقه ما لا يعلمون، وأنه سبحانه أعد للذين لا يفسدون في الأرض ولا يقتلون النفس التي حرم الله عز وجل الثواب

(١) سورة الإسراء ٩.

(٢) سورة ص ٢٦.

(٣) سورة البقرة ٣٠.

(٤) سورة النحل ٥٠.

العظيم، قال تعالى ﴿وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(١)، ولقد رأى وسمع الملائكة نزول القرآن على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وكيف أنه يخاطب المسلمين بالقول ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ﴾.

فلم تقل الآية كتب عليكم سفك الدماء، وهناك فرق بين الأمرين وفيه مسائل :

الأولى : قتال المسلمين دفاع ، وهو نوع مفاعلة بين طرفين قال تعالى ﴿يَوْمَ التَّقَىٰ الْجَمْعَانِ﴾^(٢).

فان قلت قد قام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالغزو ابتداءً والجواب لا، عندما تصله أخبار بأن الذين كفروا يعدون العدة للإغارة على المدينة، فهو إستباق وزاجر عن التعدي وحتى مع الدفاع فان النبي صلى الله عليه وآله وسلم لا يبدأ بالقتال .

والأصل أن يصدق الذين كفروا بالمعجزات ويدخلوا الإسلام، وهل هذا الدفاع من المرابطة في قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(٣) .

الجواب بينه وبين المرابطة عموم وخصوص مطلق، فهو أعم من المرابطة وليس من ملازمة بين كتابة وفرض الدفاع على المسلمين وبين أمور :

الأول : وقوع قتال المسلمين دفاعاً فعلاً .

(١) سورة آل عمران ١٠٤.

(٢) سورة آل عمران ١٥٥.

(٣) سورة آل عمران ٢٠٠.

الثاني : كثرة القتال .

الثالث : تجدد القتال في كل زمان أو مكان، أو في كل جيل.

الرابع : سقوط القتلى من المسلمين .

إنما يكون فرض الدفاع لطفاً من عند الله لبعث الفزع والخوف في قلوب الذين كفروا وزجرهم عن التعدي على الإسلام وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾^(١)، وإذا ما أصر الذين كفروا على القتال فان المسلمين يتصدون لهم ويقاتلوهم.

ليكون من اللطف الإلهي أن الله عز وجل كتب الدفاع على المسلمين جميعاً رجالاً ونساءً، فخفف عنهم وأسقطه عن النساء وعن ذوي العاهات والمرضى، ثم خففه ولم يجعله فرض عين بل جعله واجباً كفائياً، وتفضل وحى الكثير من وقائع القتال، ولا يعلم هذا المحو إلا هو سبحانه وهو من مصاديق إحتجاجه تعالى على الملائكة ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٢)، أي أن الله عز وجل يقول للملائكة أنني أمحو من الفساد وسفك الدماء في الأرض ما لا يحصيه إلا أنا، ومن أسباب هذا المحو تفضل الله عز وجل ببعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ونزول آية البحث ودخول الناس في الإسلام وإنزجار الذين كفروا عن قتال المسلمين، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ * وَاسْتَغْفِرْ لَهُ إِنَّهُ كَانَ

(١) سورة آل عمران ١٥١.

(٢) سورة البقرة ٣٠.

(٣) سورة النصر ١-٣.

وليس من حصر لمصاديق قوله تعالى ﴿يُحُوا اللَّهَ مَا يَشَاءُ وَيُثِبْتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ

الْكِتَابِ﴾^(١)، بخصوص قتال المسلمين، وهو على شعبتين :

الأولى : المحو ، وعلى وجوه :

الأول : محو القتال ، وقد عزم الكفار على الحرب وشهروا سيوفهم .

الثاني : محو القتال ولقاء المسلمين في ميدان المعركة مع الذين كفروا .

الثالث : توقف وقطع القتال وعدم استمراره .

الثانية : تثبيت ما فيه نفع للمسلمين ، وبلاء للذين كفروا ، قال تعالى

﴿وَيُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَيَجْعَلَهُمْ أُتْمَةً وَجَعَلَهُمُ

الْوَارِثِينَ﴾^(٢) .

صلة بين أول وآخر الآية

تبدأ آية البحث بالخطاب إلى المسلمين والمسلمات جميعاً إنما يكون

التخصيص والإستثناء بدليل آخر، ولأصل العموم إلا مع القرينة

والتفصيل وهو إذا تعلق الخطاب والموضوع بالدفاع ونحوه من الأمور التي

لا يقوم بها إلا الرجال فالمقصود الذكور من المسلمين، وإذا ورد الخطاب

عاماً كما في قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى

الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾^(٣) ، فانه يشمل المسلمات أيضاً ، ويأتي الخطاب

بصيغة العموم، ثم يأتي المخصص والإستثناء المتصل أو المنفصل .

وإبتدأت الآية بالفرض واللزوم ، وفيه مسائل :

(١) سورة الرعد ٣٩ .

(٢) سورة القصص ٥ .

(٣) سورة البقرة ٨٣ .

الأولى : ورد لفظ (كُتِبَ) بصيغة الفعل الماضي التي تدل على الحدوث والثبوت فلم تقل الآية يكتب عليكم او سيكتب عليكم، الذي يفيد التعليق ، والفرض في مستقبل الأيام ، نعم لا تدل صيغة الماضي على مزاوله المسلمين الدفاع في الحال ، أي ليس من ملازمة بين نزول الآية ووقوع القتال .

وهل يكتب ويفرض الأمر على المسلمين من غير أن يكون له مصداق ، الجواب إن ما فرض على المسلمين صار له مصداق متعدد.

الثانية : من معاني الآية في مستقبل الأيام دعوة المسلمين للإستعداد للقتال ، قال تعالى ﴿وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْلُوبُونَ عَنْ أَسْلِحِكُمْ وَأَمْعِيكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أذىٌ مِنْ مُطْرَأٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَنْضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخَذُوا حِذْرُكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ (١).

الثالثة : لم تذكر الآية الهجوم والغزو ، إنما ذكرت القتال والمراد منه الدفاع عن النبوة والتنزيل ، وبين القتال وبين الهجوم عموم وخصوص مطلق ، فكل هجوم هو قتال وليس العكس ، وأما النسبة بين القتال والغزو فهي العموم والخصوص من وجه ، فقد يقع غزو ليس فيه قتال من وجوه :

الأول : فرار القوم الذين يتعرضون للغزو .

الثاني : انسحاب أهل الموضع وعدم إختيارهم الدفاع .

الثالث : خلو الموضوع المغزى من الناس .

الرابع : بقاء النساء والصبيان في المحل المغزى ، أما القتال فيشمل الدفاع وتدل صيغة الجمع في الآية ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾^(١) ، على إرادة المسلمين.

وقد ورد لفظ (كُتِبَ عَلَيْكُمْ) خمس مرات ، كلها في سورة البقرة .

الأولى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ ﴾^(٢).

الثانية : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴾^(٣).

الثالثة : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾^(٤).

الرابعة : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ ﴾^(٥).

الخامسة : ﴿ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ ﴾^(٦).

ووردت الأربعة الأولى أعلاه في المسلمين ، أما الخامسة فجاءت بخصوص بني إسرائيل ، إذ جاء فرض الدفاع على بني إسرائيل بعد أن

(١) سورة البقرة ٢١٦.

(٢) سورة البقرة ١٧٨.

(٣) سورة البقرة ١٨٠.

(٤) سورة البقرة ١٨٣.

(٥) سورة البقرة ٢١٦.

(٦) سورة البقرة ٢٤٦.

لاقوا الأذى في أنفسهم وأهليهم من القوم الظالمين ، فتوجهوا إلى نبي من أنبيائهم ، وطلبوا منه أن يسأل الله عز وجل بأن يفرض عليهم القتال .
ومن إعجاز آية البحث عدم الفصل بين فرض الدفاع في الشهر الحرام والشهر الحل والنسبة بينهما هي نسبة الواحد إلى الأثنين إذ أن الأشهر الحرم أربعة أما عدد الأشهر الحل فهي ثمانية .
إبتدأت الآية بالخطاب للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وبصيغة الجملة الخبرية (سَأَلُونَكَ) وتقدير الآية : يسألك الذين آمنوا عن الشهر الحرام .

ويمثل السؤال حاجة الموضوع والإختصاص وجوهاً :

الأول : إرادة شهر مخصوص قبل شهر رجب من السنة الثانية للهجرة الذي وقع عنده قتل ابن الضرحي .

الثاني : المقصود الأشهر الحرم من سنة معينة .

الثالث : إرادة الأشهر الحرم أيام النبوة وقبل أن يغادر النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلى الرفيق الأعلى .

الخامس : المقصود الأشهر الحرم مطلقاً من بدايات عمارة الإنسان للأرض ، وإلى يوم القيامة .

والمختار هو الأخير ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ذَلِكََ الدِّينُ الْقَدِيمُ فَلَا تَغْلِبُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾^(١) ، ليكون تقسيم أشهر السنة إلى حل وحرم وحرم تذكيراً للناس بأن السموات والأرض وأفراد الزمان ملك لله عز

(١) سورة التوبة ٣٦ .

وجل وعليهم التقيد بالسنن السماوية والكونية فيها ولتكون مقدمة وسبباً ووعاء لنشر أحكام الشريعة ومفاهيم التوحيد ونبذ القتال وسفك الدماء .
وليكون من معجزات النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم تعاهد أحكام الأشهر الحرم ، والإلتفات إلى أن القمر والشمس مخلوقات لله عز وجل لا تصح عبادتهما .

لقد تفضل الله عز وجل عليه ، بضبط أوان الأشهر الحرم إذ كان تبديل الذين كفروا في الأشهر الحرم من مصاديق إحتجاج الملائكة ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾^(١) .

ومن معاني رد الله عز وجل عليهم بالحجة والبرهان القاطع ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ .

نزول آية البحث بتوثب وتهيبء المؤمنين للدفاع والرد حتى في الأشهر الحرم ، فلا تكون هذه الأشهر سبباً للغفلة عند المؤمنين ، ومن خصائص هذه الآية حفظ ، قدسية الأشهر الحرم إلى يوم القيامة ، من جهات :
الأولى : نزول آية البحث وما فيها من البيان الخالي من الإجمال أو التردد .

الثانية : تلاوة المسلمين لآية البحث ، في الصلاة وخارجها للتدبر في معانيها ودلالاتها .

الثالثة : تجلي المسلمين بمضامين آية البحث .

الرابعة : زجر آية البحث للذين كفروا ومنعهم من التعدي وغزو المدينة في الأشهر الحرم .

(١) سورة البقرة ٣٠ .

إذ أن مضمون قوله تعالى ﴿قُلْ قَاتِلْ فِيهِ كَيْدٌ﴾^(١)، أي يقوم الذين كفروا بالقتال فيه ولا بد من الدفاع ، للبيان الوارد في ذات آية البحث بقوله تعالى ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾^(٢).

ولم تتضمن آيات القرآن السؤال عن أحد الأشهر الحرم على نحو الخصوص مع أنها أربعة أشهر ، بينما الأشهر الحل ثمانية أشهر، والنص على الأشهر الحرم شاهد على قبح القتال ولزوم إجتنابه فيها مع التباين في موضوع القتال ، إذ يقاتل المسلمون دفاعاً ، بينما يقوم الذين كفروا بالهجوم والغزو على ثغور المسلمين ، ولا يترددون في سفك الدماء . ولا تدل الآية على وجوب القتال في الأشهر الحل، إنما تبين أنه أمر ممكن الوقوع .

مع قبح التعدي والغزو من قبل المشركين ، وهذا التعدي أعم من أن ينحصر بالهجوم على المدينة المنورة ، إنما يشمل الرصد والإغارة على سرايا الإسلام التي تخرج للدعوة والتبليغ كما في قصة بئر معونة، وعن (أنس بن مالك، قال: بعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سبعين رجلاً لحاجة يقال لهم القراء.

فعرض لهم حيان من بنى سليم: رعل وذكوان، عند بئر يقال لها بئر معونة.

فقال القوم: والله ما إياكم أردنا وإنما نحن مجتازون في حاجة للنبي صلى الله عليه وآله وسلم. فقتلوهم.

(١) سورة البقرة ٢١٧.

(٢) سورة البقرة ٢١٧.

فدعا النبي صلى الله عليه وآله وسلم عليهم شهرا في صلاة الغداة،
وذاك بدء القنوت وما كنا نقنت. (١).

وفي صلح الحديبية حيث صارت الوفود تمشي بين النبي صلى الله عليه وآله وسلم ووفد قريش برئاسة سهيل بن عمرو ، وتداخل الفريقان خاصة وأنهم في شهر حرام وهو ذو القعدة ، ولم يحمل المسلمون أسلحة للقتال إلا سلاح الراكب ، أراد الصحابي سلمة بن الأكوع الإضطجاع تحت ظل شجرة فكسح وكنس شوكتها .

فجاء أربعة من أهل مكة ، فجعلوا يقعون بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم فتنحى سلمة عن تلك الشجرة ، ولم يزرهم ولم يرد عليهم ، ولكنه ابتعد عنهم ، وتحول إلى شجرة أخرى ، وبينما هم كذلك .

(إذ نادى مناد من أسفل الوادي يا للمهاجرين قتل ابن زنيم فاخترت سيفي فشدت على أولئك الأربعة وهم رقود فأخذت سلاحهم فجعلته ضغثا في يدي ثم قلت والذي كرم وجه محمد صلى الله عليه وآله وسلم لا يرفع أحد منكم رأسه إلا ضربت الذي فيه عيناه) (٢).

وكان ابن زنيم قد طلع من الثنية فرماه المشركون بسهم فقتلوه ، مع أنهم في شهر حرام ، وقد ظهرت بوادر الصلح ، ليكون هذا القتل من مصاديق آية البحث لأنه فرد جامع للقتل والصد عن سبيل الله ، وجاء بهم يقودهم إلى رسول الله محمد صلى الله عليه وآله وسلم وجاء عمه عامر بسبعين من المشركين لقتلهم ابن زنيم ، فقال النبي محمد صلى الله

(١) السيرة النبوية لابن كثير ٣/١٣٩.

(٢) تاريخ الطبري ٢/٢٧٧.

عليه وآله وسلم : دعوهم يكن لهم بدء الفجور) فعفا عنهم ونزل قوله تعالى ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِطَّنِ مَكَّةَ﴾ (١) (٢) .
 وذكرت الآية لفظ الشهر الحرام لإرادة اسم الجنس للأشهر الحرم والتي تتجدد في كل سنة .

تري لماذا ابتدأت الآية بقوله تعالى ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾ (٣) .
 الجواب لأن القتال ونحوه قد يقع فيه ، وليس هو متكرر الوقوع في كل شهر ، ويدل عليه ذات السؤال والاستفهام الذي هو فرد جامع من التقرير والإنكار ، لذا ذكرت آية البحث أموراً مذمومة قد تقع في الشهر الحرام وهي :

الأول : القتال ، ولم تذكر الآية طرفي القتال ، ولكنه من جهات :
الأولى : القتال بين المسلمين والذين كفروا .

الثانية : القتال بين الكفار أنفسهم ، وإذا مالوا إلى القتال في الشهر الحرام قاموا بتبديل الشهر الحرام بغيره من الأشهر ، مع التقييد بكون الأشهر الحرم أربعة فيحلون شهر محرم ، ويجيزون القتال فيه فييقون مدة التحريم ثلاثة أشهر متتالية خاصة إذا كانوا تواقين للثأر والبطش ، ويجعلون شهر صفر محرماً بدله ، فكأنهم يرجئون الشهر الحرام ، وقيل أنهم كانوا يحلون المحرم مع صفر من عام ويسمونهما محرمين أو صفرين ، قال تعالى ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضِلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا يُبَاطِلُونَ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنٌ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا

(١) سورة الفتح ٢٤ .

(٢) أنظر الجزء الثالث والستين بعد المائة باب المقارنة بين الأسرى في الإسلام واتفاقيات جنيف الأربعة للأسرى .

(٣) سورة البقرة ٢١٧ .

يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿١﴾ ، و(عن ابن عمر قال : خطب رسول الله صلى
صلى الله عليه وآله وسلم في حجة الوداع بمنى في أوسط أيام التشريق
فقال : أيها الناس إن الزمان قد استدار فهو اليوم كهيئته يوم خلق الله
السموات والأرض ، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً منها أربعة
حرم ، أولهن رجب مضر بين جمادى وشعبان ، وذو القعدة ، وذو
الحجة ، والمحرم .

وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس : أن النبي
صلى الله عليه وآله وسلم خطب الناس فقال : أيها الناس إن الزمان قد
استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ، منها أربعة حرم ، ثلاث
متواليات رجب مضر حرام ، إلا وإن النسيء زيادة في الكفر يضل به
الذين كفروا) (٢)

ومن إعجاز القرآن أنه جعل ذات النسيء كفرةً وزيادة في الكفر مما
يدل على أن بعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم حاجة للناس.

الثالثة : القتال بين الأفراد والأشخاص .

الرابعة : حدوث القتال بين القبائل العربية .

الخامسة : القتال خارج جزيرة العرب .

الثاني : نعت القتال الذي يقع في الشهر الحرام بأنه كبير ، وهو كبير

من جهات :

الأولى : ذات القتال واسع وكبير .

الثانية : التعدي على المسلمين في الشهر الحرام كبير .

الثالثة : دفاع المسلمين عن أنفسهم كبير .

الرابعة : أمر القتال في الشهر الحرام كبير وخطير ويجب إجتنابه ،

(١) سورة التوبة ٣٧ .

(٢) الدر المنثور ٦٢/٥ .

وجاءت صفة الكبير لإستعداد المسلمين للقتال حتى في الشهر الحرام، فإذا كان القتال فيه كبيراً ، فمن باب الأولوية القطعية أنه كبير وكثير في غيره من الشهور .

الثالث : الجحود والكفر وعدم التسليم بالتوحيد.

الرابع : الإمتناع عن الشكر لله عز وجل جحود وضلالة.

وفي الآية إنذار للذين كفروا بل أن الجحود بالنعم يذهبها ، قال تعالى ﴿لَنْ شَكَرْتُمْ لِأَزِيدَنَّكُمْ...﴾^(١).

وعن أبي أمامة الباهلي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : من قال حين يصبح ثلاث مرات : اللهم لك الحمد لا إله إلا أنت ، أنت ربي ، وأنا عبدك ، آمنت بك مخلصاً لك ديني ، أصبحت على عهدك ووعدك ما استطعت ، أتوب إليك من شر عملي ، وأستغفرك لذنوبي التي لا يغفرها إلا أنت ، فإن مات في ذلك اليوم دخل الجنة .
وإن قال حين يمسي ثلاث مرات : اللهم لك الحمد لا إله إلا أنت ، أنت ربي ، وأنا عبدك ، أمسيت على عهدك ووعدك ما استطعت ، أتوب إليك من شر عملي ، وأستغفرك لذنوبي التي لا يغفرها إلا أنت ، فمات في تلك الليلة دخل الجنة .

ثم كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يحلف ما لا يحلف على غيره ، يقول : والله ما قالها عبد في يوم حين يصبح فيموت في ذلك اليوم إلا دخل الجنة ، وإن قالها حين يمسي فتوفي في تلك الليلة دخل الجنة^(٢).

الخامس : الجحود بالبيت الحرام وترك تقديسه ، بنصب الأصنام فيه .

السادس : الصد والإعراض عن الدعوة إلى الإيمان ، ومنع الناس من

دخول الإسلام .

(١) سورة ابراهيم ٧.

(٢) الطبراني / المعجم الأوسط ٧/١٨٤.

لقد أنكر المشركون على المسلمين قتل ابن الحضرمي في الشهر الحرام مع أنهم كانوا يظنون عدم دخوله بعد وهو شهر رجب من السنة الثانية للهجرة ، فجاءت آية البحث حجة على الذين كفروا ، وتذكيراً بسوء فعلهم المتعدد .

السابع : الحيلولة دون وصول المسلمين إلى البيت الحرام لأداء الحج ومنعهم من العمرة ، وحمل النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه على الهجرة من مكة من مصاديق البحث من جهات :
الأولى : الصد عن سبيل الله .

الثانية : الكفر بالله عز وجل لأن الجحود بالنبوة والتنزيل من الكفر بالله عز وجل .

الثالثة : الكفر بالمسجد الحرام .

الرابعة : اخراج أهل المسجد من مكة .

الخامسة : انه فتنة وابتلاء وبلاء ، ومنه منع النبي وأصحابه وعددهم ألف واربعمائه من العمرة في شهر ذي القعدة من السنة السادسة للهجرة ، إذ تم عقد صلح الحديبية ، لبيان قانون وهو أن إيذاء كفار قريش للمسلمين سبب وطريق لقرب الظفر والنصر للمسلمين ، قال تعالى ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾ (١) .

السادسة : مقدمة للقتال وتعدي الذين كفروا ، إذ لاقى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته والمسلمون الأوائل شتى صنوف الأذى من المشركين .

السابعة : إخراج النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين من مكة ليهاجر شطر منهم إلى المدينة وهاجرت طائفة قبلهم إلى الحبشة إلى

قوله تعالى

﴿وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ﴾ ، أي أكبر من القتال في الشهر الحرام ، وهو من إعجاز القرآن لبيان مسائل :

الأولى : نسبة الهجرة إلى السبب والضرورة .

الثانية : صيرورة هجرة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم حجة على الذين كفروا .

الثالثة : التحذير العام من إخراج أهل مكة ومجاوري البيت الحرام من مكة بالإكراه .

الرابعة : نعت النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه بأنهم أهل البيت الحرام .

الخامسة : دعوة قريش إلى إجتناّب إيذاء المسلمين والمسلمات الذين بقوا في مكة ولم يهاجروا ، ومنهم الذين يدخلون الإسلام كل يوم ، لعله يخفف عنهم البلاء كما في فصيل ناقة صالح عليه السلام وكيف أنه سألهم التدارك بالعناية به .

(وقال كعب : كان سبب عقرهم الناقة أن امرأة يقال لها ملكا كانت قد ملكت ثمود فلما أقبل الناس على صالح وصارت الرئاسة إليه حسدته فقالت لامرأة يقال لها قطام وكانت معشوقة قدار بن سالف وامرأة أخرى يقال لها قبال كانت معشوقة مصدح بن وعد ويقال ابن مهرج ، وكان قدار ومصدح يجتمعان كل ليلة معهما ويشربون الخمر فقالت لهما ملكا : إن أتاكم الليلة قدار ومصدح فلا تطيعاهما وقولا لهما : إن الملكة حزينة لأجل الناقة و لأجل صالح فنحن لا نطيعكما حتى تعقرا الناقة فإن عقرتها أطعناكما ،

فلما أتياهما قالتا لهما هذه المقالة فقالا : يكون من وراء عقرهما .

وقال ابن إسحاق وغيره : فانطلق قدار ومصدع وأصحابهما السبعة فرصدوا الناقة حين صدرت عن الماء وقد كمن لها قدار في أصل حفرة على طريقها،

وكمّن لها مصدع في طريق آخر فمرت على مصدع فرماها بسهم فانتظم به عضلة ساقها وخرجت أم غنم عنيزة وأم غنم : هي عنيزة بنت غنم بن مخلد وهي عجوز مسنة وهي زوجة ذؤاب بن عمرو ، وكانت ذات مال وإبل وبقر وغنم وعندها بنات حسان ، وكانت تعادي النبي صالح لأن ناقته أخذت ، وكانت معها امرأة أخرى صاحبة أنعام وإبل واسمها صدقة بنت المختار وهي تعادي صالح أيضاً ، إذ كان ورود الماء يوم لناقة صالح ويوم لمواشي وإبل القوم ، فإذا درت الناقة الحليب نال منه أهل القرية كلهم ، وعن الإمام الصادق عليه السلام قال : (إن صالحاً عليه السلام غاب عن قومه زماناً وكان يوم غاب عنهم كهلاً مبدح البطن، حسن الجسم، وافر اللحية، خميص البطن، خفيف العارضين، مجتمعا ربعة من الرجال، فلما رجع إلى قومه لم يعرفوه بصورته فرجع إليهم وهم على ثلاث طبقات: طبقة جاحدة لا ترجع أبداً وأخرى شاكة فيه وأخرى على يقين فبدأ عليه السلام حيث رجع بطبقة الشكاك، فقال لهم: أنا صالح فكذبوه وشتموه وزجروه، وقالوا برئ الله منك إن صالحاً كان في غير صورتك، قال: فأتى الجحاد فلم يسمعوا منه القول ونفروا منه أشد النفور ثم انطلق إلى الطبقة الثالثة وهم أهل اليقين فقال لهم: أنا صالح فقالوا: أخبرنا خبراً لا نشك فيك معه أنك صالح فانا لاثمري أن الله تبارك وتعالى الخالق ينقل ويحول في أي الصور شاء وقد أخبرنا وتدارسنا فيما بيننا بعلامات القائم إذا جاء، وإنما صح عندنا إذا أتى الخبر من السماء فقال لهم صالح: أنا صالح الذي أتيتكم بالناقة فقالوا صدقت وهي التي تدارس فما علاماتها فقال: لها شرب ولكم شرب يوم معلوم قالوا:

أما بالله وبما جئنا به فعند ذلك قال الله تبارك وتعالى: إن صالحا مرسل من ربه، قال أهل اليقين: إنا بما أرسل به مؤمنون وقال الذين استكبروا وهم الشكك والجداد إنا بالذي آمتم به كافرون. (١)

وأمرت ابنتها وكانت من أحسن الناس فأسفرت لقدار ثم دمرته فشد على الناقة بالسيف فكشف عرقوبها فخرت ورغت رغبة واحدة فحدر سقبها ثم طعن في لبتها فنحراها. (٢)

(عن وهب قال: إن صالحا لما نجا هو والذين معه قال: يا قوم إن هذه دار قد سخط الله عليها وعلى أهلها فأظعنوا وألحقوا بحرم الله وأمنه، فاهلوا (٣)، من ساعتهم بالحج، وانطلقوا حتى وردوا مكة، فلم يزالوا حتى ماتوا، فتلك قبورهم في غربي الكعبة) (٤).

التاسع: بيان قانون وهو أن الفتنة وإرادة قتل النبي صلى الله عليه وآله وسلم وإخراجه وأهل بيته وأصحابه من مكة أكبر عند الله من القتل

لأن هذا الإخراج حرب على النبوة والتنزيل، وفيه تشديد وإبادة جماعية للمسلمين ونشر للفساد، وهذه الفتنة من مصاديق الفساد الذي ذكرته الملائكة في قوله تعالى ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ (٥).

(١) الدر المنثور ٢١٥/٥١.

(٢) الكشف والبيان للثعلبي ٣٩٥/٥.

(٣) أي رفعوا أصواتهم بالتلبية والتلبية هي قول الحاج ليك اللهم ليك ليك لا شريك لك ليك ويستحب أن يقال معها: إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك.

(٤) الدر المنثور ٣٦٤/٤.

(٥) سورة البقرة ٣٠.

فأجابهم الله عز وجل بالاحتجاج ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(١).
 لتكون آية البحث من البرهان والشاهد العملي على هذا الاحتجاج،
 وكيف أن الله عز وجل لا يقطع هذه الفتنة وأسباب الفساد بأن يأوي
 النبي صلى الله عليه وآله وسلم في المدينة ، ويهيء له أنصار وأعواناً ،
 وقال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي
 سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَصَرُّوا أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾^(٢).

لقد ابتدأت الآية بلفظ ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ أي يسألونك يا رسول الله ، ويكون
 تقدير الآية على وجوه :

الأول : سؤال المسلمين عن الشهر الحرام ، وهل فيه قتال ، ويدل هذا
 سؤال بالدلالة التضمنية على مسائل :

الأولى : معرفة المسلمين بالشهر الحرام على نحو التعيين .

الثانية : تمييز المسلمين بين الشهر الحرام والشهر الحل .

الثالثة : تقييد المسلمين بجرمة الشهر الحرام .

الرابعة : التأكيد من حال وهو ماذا لو غزانا وهجم علينا المشركون في
 الشهر الحرام ، فهل نقاتلهم أم نلزم البيوت حتى يقتلوننا ، فجاء الجواب
 من الله عز وجل بأن دافعوا عن أنفسكم ونييكم والتنزيل وأداء الفرائض
 ، قال تعالى ﴿أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ
 لَقَدِيرٌ﴾^(٣).

الثاني : يسألونك عن القتال في الشهر الحرام .

(١) سورة البقرة ٣٠ .

(٢) سورة الأنفال ٧٢ .

(٣) سورة الحج ٣٩ .

الثالث : يسألونك عن صد المشركين المسلمين عن طاعة الله .

وقد يقال لا دليل على التقدير الأخير أعلاه ، إنما ورد سؤال المسلمين عن الشهر الحرام والقتال فيه .

فجاء الجواب من عند الله بالمعنى الأعم ، ولا يعني قوله تعالى ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾^(١) على أن القتل أمر هين بل هو ظلم عظيم ، بدليل احتجاج الملائكة على جعل الإنسان ﴿فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾^(٢) بسبب فساده في الأرض وقيامه بقتل أخيه الإنسان بغير حق ولكن الفتنة أشد من القتل وهي قبيحة بذاتها وطريق للقتل الجماعي المتعدد .

وهل تدل الآية على أن الملائكة لا يعلمون بأن الفتنة أشد من القتل لأنهم لو كانوا يعلمون بهذا القانون لاحتجوا بأن الإنسان يختار الفتنة وهي أشد من القتل .

الجواب لا ، فمن إعجاز القرآن بيان حقيقة وهي أن احتجاج الملائكة مركب من أمرين :

الأول : إفساد الإنسان في الأرض .

الثاني : قيام الإنسان بالقتل .

ويدل عليه ما ورد حكاية عن الملائكة في التنزيل ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ

يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾^(٣) .

العاشر : بيان إصرار الذين كفروا على قتال المسلمين ، وعدم إنقطاع هذا القتال إلا بالفتح لتقييد الآية لقتال الذين كفروا بذكر غايتهم منه ، وهو إرتداد المسلمين لقوله تعالى ﴿وَلَا يَزَالُونَ يَقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ

(١) سورة البقرة ١٩١ .

(٢) سورة البقرة ٣٠ .

(٣) سورة البقرة ٣٠ .

دِينَكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ﴿١﴾ وبما أنهم لم يستطيعوا حمل أو إكراه المسلمين على الإرتداد فان هذا القتال سيستمر.

وتدل الآية على وجوب دفاع المسلمين عن أنفسهم وعقيدتهم مجتمعين لعدم الإنفكاك بينهما .

وفيه شاهد بأن الذين كفروا يتصفون بأمر :

الأول : الإعتداء والظلم .

الثاني : مواصلة الهجوم على المسلمين .

الثالث : قتال المشركين في الشهر الحرام .

الرابع : الإستمرار بالقتال لقصد القضاء على الإسلام ، فهم لا

يرضون بارتداد طائفة أو فرقة من المسلمين إنما يريدون قتل النبي محمد

صلى الله عليه وآله وسلم وإستصال الإيمان واستدامة عبادة الأوثان ،

فتفضل الله عز وجل وأخبر المسلمين بنوايا المشركين ومقاصدهم الخبيثة

ونزل قوله تعالى ﴿قُلْ هَلْ تَرْتَضُونَ بَنِي إِلْحَادِي الْحُسَيْنِيِّ﴾ (٢) أي أما

النصر وأما الشهادة ، فكل فرد منهما نضيف الإرتداد وحرب على

الشرك ومفاهيم الكفر والضلالة ، وتحتمل جهة الخطاب في الآية أعلاه

وجوهاً :

الأول : إرادة الكافرين .

الثاني : المقصود المنافقون .

الثالث : المعنى الأعم الجامع لهما .

والصحيح هو الثالث .

ويدل تربص الكافرين والمنافقين بالمؤمنين إنتظارهم لحوق الخسارة

(١) سورة البقرة ٢١٧ .

(٢) سورة التوبة ٥٢ .

والضرر بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه ، وأن المشركين يجتهدون في السعي للهجوم والإغارة على المدينة ، وأن المسلمين لم يهجموا ولم يغزوا غيرهم ، فلو كانوا يغزون المشركين لما انتظر المشركون والمنافقون لحوق الخسارة والأذى بهم ، ومن الشواهد على دلالة آية التريص على قانون (لم يغزو النبي أحداً) قوله تعالى ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾^(١).

وذكرت آية البحث قتال الكافرين للمسلمين من أجل غاية خبيثة وهي إرتداد المسلمين عن دينهم ، وفيه شاهد بأن المسلمين لم يختاروا القتال ، إنما المشركون هم الذين اختاروا القتال وبدأوه وأصرروا عليه ، ولا يختص سعيهم لإرتداد المسلمين بالقتال ، قال تعالى ﴿إِنْ تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يُدْزِكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾^(٢) لبيان أن الذين كفروا يحاربون الإسلام والمسلمين في ملتهم وإيمانهم في حال الحرب والسلم .

ثم جاءت آية البحث بقانون وهو أن الإرتداد عن الإسلام خسارة في الدنيا ، وإن استمرار الإرتداد حتى مغادرة الدنيا فهو طريق إلى جهنم والعذاب الأليم .

وذكرت الآية حبط وضياع الأعمال في الدنيا والآخرة .

ليبيان الخسارة الحاضرة والآجلة بسبب الإرتداد ، والإرتداد على

قسمين :

الأول : الإرتداد الفطري ، وهو الذي يكون صاحبه قد ولد لأبوين مسلمين أو أحدهما مسلم .

(١) سورة التوبة ٥١.

(٢) سورة آل عمران ١٤٩.

الثاني : الإرتداد الملمي ، وهو الذي يكون صاحبه قد دخل الإسلام بنفسه ، وليس وراثه عن أبوية .

وجاءت الآية مطلقة بلحاظ القسمين أعلاه .

ولم تذكر الآية الذي يرتد عن الإسلام ثم يتوب بلحاظ أن التوبة ماحية للذنوب والمعصية ، قال تعالى ﴿وَأَنبِي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾^(١) للتحذير والتخويف من الإرتداد وبيان قبحة الذاتي وسوء عاقبته في الدنيا والآخرة .

ويدل بالدلالة التضمنية على ذم الكافرين وإنذارهم من الموت على الكفر والجحود لضياح أعمالهم وخسارتهم في النشأتين ، فليس من جزاء إلا العقاب الإليم ، قال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾^(٢).

من غايات الآية

في الآية مسائل :

الأولى : إبلاغ المسلمين بأنه يجب عليهم الصبر في ميادين الدفاع ومواضع المرابطة ، قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(٣) بلحاظ كبرى كلية وهي أن المرابطة في الثغور من مصاديق الدفاع .

(١) سورة آل عمران ١٤٩ .

(٢) سورة طه ٨٢ .

(٣) سورة آل عمران ٢٠٠ .

الثانية : ذم الذين كفروا لإصرارهم على القتال ، وقيامهم بالغزو والهجوم على المدينة المنورة ، ومن معجزات النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم الدفاعية يوم بدر أنه ليس له مدينة أخرى يلجأ إليها .

فأنعم الله عز وجل بالمدد من الملائكة وهو أفضل من العمق في الأرض ، وبخصوص معركة أحد قال تعالى ﴿بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾^(١) .

الثالثة : بيان التباين بين القتال والغزو ، وينصرف القتال في الآية إلى الدفاع إذ أن السنة النبوية مرآة وتفسير للقرآن ، وكان النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه في حال دفاع متصل .

الرابعة : إرتقاء المسلمين في المعارف الإلهية ، وادراكهم لقانون وهو أن معجزات النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وآله عليه وآله وسلم وآيات القرآن كافية في الدعوة إلى الله عز وجل وهداية الناس ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾^(٢) .

الخامسة : بيان قانون وهو عدم الملازمة بين الكراهة والضرر الخاص والعام ، فقد يكره الفرد والجماعة والطائفة أمراً ولكن فيه النفع والخير وكذا العكس ، لذا قال تعالى في ذات الآية ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٣) ، وقد يجب الفرد أو الجماعة شيئاً ويكون فيه أذى وضرر لذا تفضل الله عز وجل وفتح باب الدعاء للناس ليكون من

(١) سورة آل عمران ١٢٥ .

(٢) سورة الزمر ٣٦ .

(٣) سورة البقرة ٢١٦ .

منافعه ما يتجلى بقوله تعالى ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾^(١)، لتأكيد قانون وهو أن الله عز وجل هو الأعلم بالمصلحة وهو الذي يجلبها للمؤمنين ، ويدفع عنهم السوء ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنَزِّلُ رَبُّكَ قُلْ اللَّهُ يُنَزِّلُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾^(٢) .

السادسة : ترغيب المسلمين بالفرائض والعبادات ، قال تعالى ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَادْكُرُوا لِلَّهِ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَىٰ الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾^(٣) .

السابعة : دعوة المسلمين لتفويض الأمور إلى الله عز وجل ، ومن معاني قوله تعالى (وَأَفْوِضْ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ)

الثامنة : تأكيد خاتمة آية البحث على إحاطة الله عز وجل علماً بكل شيء .

(قال ابن إسحاق: قال الزهري: ثم بعثت قريش سهيل بن عمرو أخا بني عامر بن لؤي إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقالوا: أئت محمداً وصالحه، ولا يكن في صلحه لا أن يرجع عنا عامه هذا، فوالله لا تتحدث العرب أنه دخلها عنوة أبداً.

فأتاه سهيل بن عمرو فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مقبلاً قال: قد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل.

فلما انتهى سهيل إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تكلم فأطال الكلام، وتراجعا ثم جرى بينهما الصلح.

(١) سورة البقرة ٢١٦.

(٢) سورة الرعد ٣٩.

(٣) سورة النساء ١٠٣.

فلما التأم الامر ولم يبق إلا الكتاب وثب عمر فأتى أبا بكر فقال: يا
أبا بكر أليس برسول الله؟

قال: بلى.

قال: أو لسنا بالمسلمين؟

قال: بلى.

قال: أو ليسوا بالمشركين؟

قال: بلى.

قال: فعلام نعطي الدنية في ديننا؟

قال: أبو بكر: يا عمر الزم غرزه فإني أشهد أنه رسول الله.

قال عمر: وأنا أشهد أنه رسول الله.

ثم أتى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: يا رسول الله
ألست برسول الله؟

قال: بلى.

قال: أو لسنا بالمسلمين؟

قال: بلى.

قال أو ليسوا بالمشركين؟

قال: بلى.

قال: فعلام نعطي الدنية في ديننا؟

قال: أنا عبد الله ورسوله لن أخالف أمره ولن يضيعني وكان عمر
يقول: ما زلت أصوم وأتصدق وأصلي وأعتق من الذي صنعت يومئذ،
مخافة كلامي الذي تكلمته يومئذ، حتى رجوت أن يكون خيرا.

◆ ◆ ◆ قال: ثم دعا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم علي بن
أبي طالب عليه السلام عنه فقال: اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم قال
فقال سهيل: لا أعرف هذا، ولكن اكتب: باسمك اللهم.

قال: فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: اكتب باسمك اللهم.
فكتبها.

ثم قال: اكتب: " هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو ."

قال: فقال سهيل: لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك.

قال: فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: اكتب: " هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو، اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض، على أنه من أتى محمدا من قريش بغير إذن وليه رده عليهم، ومن جاء قريشا ممن مع محمد لم يردوه عليه، وأن بيتنا عيبة مكفوفة، وأنه لا إسلال ولا إغلال، وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه ."

فتواثبت خزاعة فقالوا: نحن في عقد محمد وعهده.

وتواثبت بنو بكر فقالوا: نحن في عقد قريش وعهدهم.

وإنك ترجع عامك هذا فلا تدخل علينا مكة، وإنه إذا كان عام قابل خرجنا عنك فدخلتها بأصحابك فأقمت بها ثلاثا، معك سلاح الراكب: السيوف في القرب لا تدخلها بغيرها.

قال: فبينما رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يكتب الكتاب هو وسهيل بن عمرو إذ جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف في الحديد قد انفلت إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وقد كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد خرجوا وهم لا يشكون في الفتح لرؤيا رآها رسول الله صلى الله عليه وآله

وسلم، فلما رأوا ما رأوا من الصلح والرجوع وما تحمل عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في نفسه دخل على الناس من ذلك أمر عظيم حتى كادوا يهلكون.

فلما رأى سهيل أبا جندل قام إليه فضرب وجهه وأخذ بتليبيه وقال: يا محمد قد لجت القضية بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا. قال: صدقت.

فجعل ينتره بتليبيه ويجره

يعني يرده إلى قریش، وجعل أبو جندل يصرخ بأعلى صوته: يا معشر المسلمين أرد إلى المشركين يفتنونني في ديني. فزاد ذلك الناس إلى ما بهم.

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: " يا أبا جندل اصبر واحتسب، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا. إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحا وأعطيناهم على ذلك وأعطينا عهد الله، وإنا لا نغدر بهم ".

قال: فوثب عمر بن الخطاب مع أبي جندل يمشي إلى جنبه ويقول: اصبر أبا جندل، فإنما هم المشركون وإنما دم أحدهم دم كلب. قال: ويدنى قائم السيف منه.

قال: يقول عمر: رجوت أن يأخذ السيف فيضرب أباه!

قال: فضن الرجل بأبيه، ونفذت القضية. (١)

الحادية عشرة: منع المسلمين من أداء الحج والعمرة.

قال تعالى ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي

(١) السير النبوية لابن كثير ٣/٣١٩.

الدُّنْيَا خَزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾

الثانية عشرة : تجدد صدّ المشركين عن سبيل الله عز وجل كل يوم .
الخامس : كفر المشركين بالله عز وجل وعبادتهم الأوثان وإتخاذها
وسائط للتقرب بها إلى الله عز وجل زلفى ، قال تعالى ﴿الْخَالِصُ وَالَّذِينَ
اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زَلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ
بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ ﴿٢﴾

أي أن الله عز وجل يحكم بين هؤلاء الكفار وبين المؤمنين الذين
يعبدون الله عز وجل إلهاً واحداً ولا يشركون به شيئاً ، وعن (ابن عباس
قال : وقف النبي صلى الله عليه وآله وسلم على قريش وهم في المسجد
الحرام ،

وقد نصبوا أصنامهم وعلقوا عليها بعض النعام وجعلوا في آذانها
السيوف وهم يسجدون لها .

فقال : يا معشر قريش والله لقد خالفتم ملة أبيكم إبراهيم
وإسماعيل ، ولقد كانا على الإسلام .

فقلت له قريش : يا محمد إنا نعبدها حباً لله ، ليقربونا إلى الله زلفى ،
فقال الله تعالى : قل يا محمد إن كنتم تحبون الله وتعبدون الأصنام
ليقربوكم إليه فاتبعوني يحببكم الله ، وأنا رسوله إليكم وحجته عليكم وأنا
أولى بالتعظيم من الأصنام. ﴿٣﴾

السادس : صدّ المشركين الناس عن المسجد الحرام ، وجحود بقدسيته
، وعدم تعاهد طهارته ، قال تعالى في خطاب إلى إبراهيم وإسماعيل

(١) سورة البقرة ١١٤ .

(٢) سورة الزمر ٣ .

(٣) الكشف والبيان للثعلبي ٥٨/٣ .

﴿طَهَّرَ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾^(١).

أما مشركوا قريش فقد نصبوا الأصنام في البيت الحرام ، وأختلف المسلمون في عطف الطهر على المضمَر ، أي عطف المسجد الحرام على الضمير الهاء في قوله تعالى (وَكُفِّرُ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ) والمختار الجواز خاصة مع القرائن التي تدل عليه .

السابع : قيام المشركين بإخراج النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه من مكة ، فمع أن كثيراً من الصحابة خرجوا من تلقاء أنفسهم نتيجة أذى قريش ، ومنهم من أمر النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بمغادرة مكة للنجاة بنفسه ودينه فقد نسبت الآية الإخراج إلى المشركين لأنهم السبب لهذا الخروج ، كما في قوله تعالى ﴿فَازْلَمَهُمُ الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا﴾^(٢).

ولم تذكر الآية الجهة التي أخرج إليها النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه إذ كانت غاية المشركين إبعادهم لأمر :
أولاً : منع أولاد المشركين من دخول الإسلام .

ثانياً : عدم نشر الإسلام عند عامة القبائل ، إذ كانوا يأتون للحج والإعتمار فيلتمقي معهم النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه ويتلون عليهم آيات القرآن ، ويبينون لهم معجزات النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وبطلان وزيف عبادة الاوثان .

ثالثاً : تعريض النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه إلى المخاطر والمهالك في طريق الهجرة .

رابعاً : صيرورة المؤمنين في حال غربة وعوز وضعف ، قال تعالى

(١) سورة البقرة ١٢٥.

(٢) سورة البقرة ٣٦.

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ (١).

ومن الإعجاز والحجة في الآية نعت النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين بأنهم أهل المسجد الحرام لبيان قانون وهو أن خلو مكة منهم سبب لنزول البلاء بأهلها لتكون الآية دعوة لإحتجاج عامة أهل مكة على رؤساء الكفر ، وفي التنزيل ﴿وَمَا لَهُمْ آلِيَعَذِبُهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ﴾ (٢).

الثامن : بيان قانون وهو أن الصد عن سبيل الله والكفر به سبحانه ، والتعدي على حرمت المسجد الحرام ، وإخراج المسلمين من مكة أكبر عند الله عز وجل من مسألة قتل عمرو بن الحضرمي التي وقعت في الشهر الحرام ، والامر الذي استتكره المشركون من سرية عبد الله بن جحش والذي بعثهم النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم للإستطلاع وليس للقتال كما تقدم في أسباب النزول فجاءت الآية رداً على المشركين في إنكارهم هذا وتعييرهم المسلمين لواقعة القتل التي لم يرض بها النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ولم يستلم الخمس الذي عزلته السرية له من الغنائم يومئذ .

في الآية مسائل :

الأولى : بيان قانون وهو توجه الأسئلة من المسلمين الى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

الثانية : توالي الأسئلة من أهل البيت والصحابة الى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

(١) سورة الأنعام ١٢٣.

(٢) سورة الأنفال ٣٤.

الثالثة : عناية الصحابة بالشهر الحرام ، وتقديم موضوعيته وأهميته على القتال فيه إذ إبتدأ السؤال عن الشهر الحرام ، مما يدل بالدلالة التضمنية على الإنتفاع العام من الشهر الحرام وتعدد المصالح وأسباب دفع المفسد فيه ، ليكون من وجوه تقدير الآية على وجوه :

الأول : يسألونك عن الشهر الحرام وعن القتال فيه .

الثاني : يسألونك خصائص الشهر الحرام .

الثالث : يسألونك عن منزلة و قدسية الشهر الحرام .

الرابع : يسألونك عن أمور الدين والدنيا ، ومنها الشهر الحرام والقتال فيه .

الخامس : يسألونك عن حلية أو حرمة القتال في الشهر الحرام إذا واهم المشركون المسلمين .

إذ يدل ذات السؤال على أن المرتكز في أذهان المسلمين هو عدم القتال في الشهر الحرام ، فاذا كان المشركون يتعاهدون حرمة الشهر الحرام فمن باب الأولوية أن يتعاهده المسلمون ويحافظوا عليه ، ولكن لتعدد صدور التهديد والوعيد من الذين كفروا توجه المسلمون بالسؤال للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم عن الشهر الحرام والقتال فيه .

الرابعة : من غايات الآية حرص المسلمين على الصدور عن الكتاب والسنة .

لقد وجود النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بين ظهراني المسلمين والناس جميعاً نعمة عظيمة ، وكذا بعثة كل نبي ورسالة كل رسول ، فانتفع المسلمون الإنتفاع الأمثل من هذه النعمة وصاروا يلجأون الى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ليسألوه عن أمور دينهم وديناهم ، والإنصات له في تلاوته للقرآن وما يأتي به من الأحكام ، وهذه التلاوة على وجوه :

الأول : تلاوة النبي صلى الله عليه وآله وسلم للآية والآيات حال

نزولها وعند انفصال الوحي عنه.

الثاني : قراءة النبي صلى الله عليه وآله وسل آيات وسور القرآن في الصلاة الواجبة والمندوبة ، ومن الإعجاز في السنة النبوية حرص النبي صلى الله عليه وآله وسلم على أدائه الصلاة جماعة ، وحث المسلمين والمسلمات على أدائها جماعة ، وهل حضوره صلاة الجماعة حث للمسلمين والمسلمات لحضورها الجواب نعم .

ومن الإعجاز أن الصلاة سور جامع للسنة القولية والفعلية ، ليتلو النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم قوله تعالى ﴿سَأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾^(١)، فيعلم المسلمون بجواز الدفاع في الشهر الحرام ، فان قلت قد أذنت الآية بالقتال وليس الدفاع بدليل قوله تعالى ﴿سَأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾^(٢) ، والنسبة بين القتال والدفاع عموم وخصوص مطلق ، فكل دفاع هو قتال وليس العكس ، والجواب هذا صحيح ولكن منطوق ذات آية البحث والقرائن تدل على إرادة الدفاع ، فحصر السؤال عن الشهر الحرام شاهد على تسليم المسلمين بحرمته ، وأن هذه الحرمة عامة ليس فيها استثناء إلا حال الضرورة الدفاعية .

الثالث : تلاوة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم آيات القرآن على المنبر بحسب الحال والمناسبة أو ابتداء من النبي صلى الله عليه وآله وسلم

وهل هذه التلاوة والآيات التي يختارها النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم فيها من الوحي ، الجواب نعم ، لبيان حاجة المسلمين والناس للإستماع للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وهو يتلو آيات القرآن ،

(١) سورة البقرة ٢١٧.

(٢) سورة البقرة ٢١٧.

ولتوكيد قانون وهو أن آيات القرآن نزلت لتتلى على نحو التكرار والمداومة وأن يعمل بها ، وتعرض أعمال الناس عليها ، ويصدرون عنها ، قال تعالى ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا﴾^(١).

والمراد من الحبل السبب والبلغة والطريق الذي يوصل إلى الغاية والبلغة ، وقد تقدم الكلام في الآية أعلاه^(٢) ، وسيأتي مزيد كلام بخصوصه في الجزء السادس والسبعين بعد المائة من هذا السفر المبارك .

الخامسة : تبعث آية البحث المسلمين على الصبر ، وتدعوهم للإستعانة به وبالصلاة بسبب إصرار الذين كفروا على صدّهم عن المسجد الحرام ، ومنعهم من الحج والعمرة ، ومن زيادة اهلية خاصة بالنسبة للمهاجرين ، قال تعالى ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾^(٣) .

وهل منع المشركين من بقي من المسلمين في مكة من الهجرة الى المدينة من الصدّ عن سبيل الله الذي تذكره آية البحث ، الجواب نعم .

السادسة : إخبار آية البحث عن الكفر بالله في الشهر الحرام تحذير للمسلمين من الذين كفروا إذ أن هجوم المشركين عليهم أقل رتبة في الجحود والإستكبار من الكفر الذي هو أم الكبائر ، قال تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾^(٤) .

(١) سورة آل عمران ١٠٣ .

(٢) أنظر الجزء السابع والستون من هذا التفسير ص ٥ .

(٣) سورة البقرة ٤٥ .

(٤) سورة النساء ٤٨ .

السابعة : ذم الذين كفروا لقيامهم باخراج النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته وأصحابه من مكة وفيه بيان لقانون وهو سخط الله على المشركين بسبب هذا الإخراج ، وفيه إنذار لهم وأمانة على قرب البطش بهم ، ولم تمر سنتان على هجرة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم حتى وقعت معركة بدر فكان الخزي والإنكسار نصيب الذين كفروا منها مع أنهم هم الذين أصروا على القتال قال تعالى في خطاب الى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾^(١).

وهل نصر المسلمين في معركة بدر من وجوه البطش الإلهي بالذين كفروا لإخراجهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه من مكة وإرادتهم قتله مع تعذيب طائفة من أصحابه مثل بلال وصهيب وعمار ووالديه وأخيه الجواب نعم .

الثامنة : بيان قانون وهو أن إثارة الفتنة وإيذاء المسلمين أكبر من القتال.

التاسعة : زجر الذين كفروا عن الفتنة وإرادة افتتان المسلمين ، والسعي الخبيث لحملهم على الإرتداد لأن هذا الإرتداد من الفتنة التي تذكرها آية البحث ، وهو سبب لنشر الفساد في الأرض ، وعندما احتجت الملائكة على جعل الله الإنسان ﴿فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾^(٢) ، بأنه ﴿يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾^(٣) ، أجابهم الله عز وجل بأحاطته علماً بكل الأمور والوقائع الحادثة وان خلاف الإنسان في الأرض سبب لعمارتها

(١) سورة آل عمران ١٢٣.

(٢) سورة البقرة ٣٠.

(٣) سورة البقرة ٣٠.

بالعبادة ، وأن الفساد يستأصل بغلبة مفاهيم الإيمان ، وأن هذه الخلافة مؤقتة والدنيا نوع مزرعة للأخرة فلا يجب المفسدون من يطيعهم ، وفي التنزيل ﴿لَا تَطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ * الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾^(١)، وجاء القرآن بالإخبار عن سوء عاقبة كفار قريش الذين يصدون عن سبيل الله كما في آية البحث ويظهرون الفساد في الأرض ، قال سبحانه ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾^(٢).

العاشرة : دعوة آية المسلمين للصبر والإستعداد للقتال والمعارك المتعددة مع المشركين بسبب إصرارهم على الكفر والقتال دون عبادة الأوثان لقوله تعالى ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾^(٣)، إذ تبين الآية أعلاه للمسلمين حقيقة وهي بعد انقضاء بدر سيزحف المشركون لقتالهم ، ولم تمر سنة وبضعة أيام حتى أطل ثلاثة آلاف مقاتل من أهل مكة والقبائل المتحالفة معهم على المدينة وصاروا عند جبل أحد يطلبون القتال فخرج معهم النبي بألف من أصحابه قال تعالى ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾^(٤).

وانخزل ثلاثمائة منهم وسط الطريق بتحريض من رأس النفاق عبد الله بن أبي بن سلول.

(١) سورة الشعراء ١٥١-١٥٢.

(٢) سورة النحل ٨٨.

(٣) سورة البقرة ٢١٧.

(٤) سورة آل عمران ١٢١.

لقد بينت آية البحث غاية الذين كفروا من قتالهم المسلمين وهو الإرتداد لتدل الآية بالدلالة التضمنية على إرادتهم قتل النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ومنع توالي نزول آيات القرآن ، وهو من الإعجاز في قوله تعالى ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ﴾^(١).

ومن وجوه تقدير الآية :

الأول : حتى يردوكم عن دينكم بقتل النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

الثاني : حتى يردوكم عن دينكم يجبسكم وأسركم .

الثالث : حتى يردوكم عن دينكم بالحصار عليكم .

الرابع : حتى يردوكم عن دينكم بمنع لحاق أزواجكم بكم الى المدينة .

الخامس : حتى يردوكم عن دينكم بكثرة المعارك والقتال معكم .

السادس : حتى يردوكم عن امتكم باعانة تشجيع المنافقين ضدكم .

الحادية عشرة : بيان الآية لقانون الإرتداد كفر إنذار لكل مسلم

ومسلمة من الإرتداد ، وزجر لغيرهم من حمل المسلم عن الإرتداد ،

لقانون السببية ونسب الله إلى ابليس أكل آدم وحواء من الشجرة التي

نهاهما الله عنها قال تعالى

﴿ فَازْلَمْهَا الشَّيْطَانُ مِنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقَلْنَا رَبِّعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ

فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾^(٢).

الثانية عشرة : بيان عاقبة الإرتداد وهو الخسارة والخيبة في الدنيا

والآخرة .

الثالثة عشرة : تأكيد قانون الكفر حبط للأعمال وبرزخ دون ثواب

(١) سورة البقرة ٢١٧ .

(٢) سورة البقرة ٣٦ .

فعل الصالحات ولا يختص حبط الأعمال بالذين يرتدون عن الإسلام ومن معاني الحبط هنا البطلان وعدم الإنتفاع وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : ليؤتين يوم القيامة بالعظيم الطويل الأكل والشروب ، فلا يزن عند الله تبارك تعالى جناح بعوضة ، اقرؤوا إن شئتم { فلا تقيم لهم يوم القيامة وزناً }^(١).

الرابعة عشرة : أخبرت آية البحث عن الإرتداد بصيغة المفرد (من يرتدد) بينما جاء الإنذار بالعذاب بصيغة الجمع فيمت وهو كافر ﴿فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾^(٢). لبيان أن حبط وبطالان الأعمال لا يختص بالمرتد إنما يشمل الذي يموت على الكفر والذي لا يتخلى عن النفاق حتى مغادرته الحياة الدنيا .

ومن مصاديق قوله تعالى ﴿وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا﴾^(٣) ، محاربة كفار قريش للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والتنزيل ، وتجهيزهم الجيوش وانفاقهم عليها الأموال الطائلة التي رزقهم الله ببركة البيت الحرام وجواره ، وقوله تعالى ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ * إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ * فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾^(٤).

واصرار قريش على القتال ومحاربة النبي صلى الله عليه وآله وسلم من الجحود والكفر بالنعمة قال تعالى ﴿أَفَبِاطِلٍ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ

(١) الدر المنثور ٦/٤٢٦ .

(٢) سورة البقرة ٢١٧ .

(٣) سورة الفرقان ٥٥ .

(٤) سورة قريش ١-٤ .

يَكْفُرُونَ ﴿١﴾.

التفسير

تفسير قوله تعالى ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ﴾

وفيه وجوه :

الأول : أي فرض الله على المسلمين القتال دفاعا ، والأمر فيه مطلقٌ موجه للمسلمين على نحو كفائي الموجود منهم والمعدوم في كافة امصارهم وعبر اجيالهم المتعاقبة.

الثاني : الضمير في (عليكم) يعود للمسلمين.

الثالث : يكون الخطاب في الآية على نوعين:

الأول: نوعي عام توجه الى المسلمين بصفتهم مسلمين.

الثاني: انه ينحل بعدد المسلمين فيشعر المسلم بانه المخاطب بالآية

الكريمة على نحو شخصي.

الرابع : الآية اعم من الدفاع الإبتدائي فهي تشمل الدفاع عن بيضة الإسلام وعن النفس والعرض، أي ان المسلم مقصود من المشركين بالعدوان بلحاظ انه مسلم لتخرج الأسباب والعداوة الشخصية، واغراء الشيطان واثارته للفتن بين المسلمين فهو مما لا يشمل موضوع القتال في هذه الآية.

الخامس : الظاهر ان فرض الدفاع سنة عقائدية كتبها الله عز وجل على المؤمنين في الأزمان والمثلل السابقة ، ولو على نحو الموجبة الجزئية ، قال تعالى ﴿ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ

خَشِيَّةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ ﴿١﴾.

وفي الجمع بين هذه الآية والآية محل البحث يظهر الإرتقاء الإيماني عند المسلمين بتسليمهم واستجابتهم لفرض الدفاع ، وتلقي الأذى من الذين كفروا (لَنْ يَضُرُّكُمْ إِذَا ذُيِّبُوا بِالْحَقِّ وَالْحَقُّ لِلَّهِ).

السادس : الدفاع باب من ابواب الثواب وسبيل لدخول الجنة،

قال تعالى ﴿ وَلَا يَتَّوَلَّوْنَ مِنْكُمْ الْعَدُوِّ وَالْأَكْثَبُ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ ﴾ (٢).

السابع : ظاهر الآية ان الدفاع ضرورة وحاجة آنية لحفظ النفس

والمبدأ.

الثامن : من القواعد الكلية في خطابات القرآن انها لا تنحصر بزمان

التنزيل وان كانت اسباب النزول شخصية لأن العبرة بعموم الموضوع والمعنى والعلة والدلالة وليس بسبب النزول وأوانه، ففرض الدفاع ملازم للهوية العقائدية والانتماء الى الإسلام بالولادة او بالإختيار.

التاسع : الدفاع أعم من أن ينحصر مصداقه بالمعركة سواء تلك

التي يستعد لها او التي يباغت بها المسلمون، بل يشمل الحالات الشخصية.

العاشر : فرض الدفاع لا يعني حصوله لكل شخص او في كل زمان

ولكنه سلاح وقابلية واستعداد، ومن الإعجاز في فرضه إمتناع المشركين مواصلة الهجوم والغزو.

الحادي عشر : تدل الآية بالدلالة التضمنية على رحمة الله تعالى

بالمسلمين، فان المسلم يؤجر ويثاب على موضوع الدفاع والصبر فيه وان

لم يزاوله شخصياً ﴿ لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي

(١) سورة النساء ٧٧.

(٢) سورة التوبة ١٢٠.

الضَّرَّ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ
وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ
عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١﴾.

الثاني عشر : في الآية ثناء على المسلمين بلحاظ المقارنة بينهم وبين
غيرهم من الملل السابقة، فان الله عز وجل اكرم المسلمين بفرض القتال
عليهم مما يعني انه تعالى رضي لهم الدفاع.

الثالث عشر : في الآية إنذار ووعد للكافرين ، قال تعالى ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ
وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ... ﴾ (٢) فالمسلمون يقاتلون في سبيل الله واستجابة لأمره
فمن يقتل بسيفهم يكون مصيره الى النار.

الرابع عشر : الآية بشارة النصر والظفر لأن أمر الله تعالى بالقتال
دفاعا يعني الإعانة والمدد الإلهي، فلا غرابة ان ترى الملائكة تنزل في
معركة بدر لنصرة المسلمين قال تعالى ﴿ يُدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنْ
الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾ (٣).

الخامس عشر : في الآية بشارة الشهادة ونيل الدرجات العلى
لمن يقتل في سبيل الله، قال تعالى ﴿ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ
وَيُقْتَلُونَ... ﴾ (٤).

السادس عشر : فرض القتال دفاعا من عند الله تعالى يعني تهية

(١) سورة النساء ٩٥.

(٢) سورة الانفال ١٧.

(٣) سورة آل عمران ١٢٥.

(٤) سورة التوبة ١١١.

مستلزماته واسبابه ومقدماته والمدد اثنائه ، قال تعالى ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَأَخْرِبَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُوهُمْ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَظْلَمُونَ﴾^(١).

فأنت ترى الملك او القائد اذا امر جنده بالقتال في ناحية ما فانه لا يأمرهم حتى يدرس الحال ويقدر باللوازم ويستحضر وقادته الموانع والمقارنة مع العدو عدداً وعدة ، ونسبة احتمال النصر ويهيئ لهم المعدات الكافية والتدريب والتأهيل والمؤون اللازمة، فكيف بالأمر من عند الله تعالى وببيده مقلد الأمور والأشياء جميعها مستجابة له وتهيئة مقدمات نصر المؤمنين من مصاديق قوله تعالى ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾^(٢).

السابع عشر : في الآية تنبيه للمسلمين بضرورة تعاهد هذه الآية والتقيد بأحكامها وعدم التفريط بما فيها من الأمر بالدفاع في سبيل الله لتجاوز الوهن والضعف قال تعالى ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾^(٣).

الثامن عشر : مما لا يخفى ان احكام الجهاد في الفقه الإسلامي تتصف بالدقة والتنظيم والوضوح والبيان ومع هذا فيقتضي الحال تأسيس علم خاص اسمه مدرسة الدفاع في القرآن تبين تأريخه وفرضه وسننه واحكامه

(١) سورة الأنفال ٦٠.

(٢) سورة النحل ٤٠.

(٣) سورة البقرة ٢٤٦.

والمضامين العقائدية فيه، والترغيب بالسلم والمراد عنه قال تعالى ﴿وَإِذْ جَنَّحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْتَحَّ لَهَا﴾^(١)، وانه بلحاظ نتائج رحمة للناس جميعاً مع بيان الوجوه الأخلاقية والإنسانية في الصبر، ففي فتح مصر وعندما اراد المسلمون المغادرة رأوا عش حمامة ويضها على فسطاط لهم وهو البيت الكبير من الشعر فوق الخباء فتركوه لها، فسميت المنطقة باسم فسطاط مصر،

ومن مسائل هذا العلم ذكر من أدى وظائفه والتزم به ومن قصر فيه من اتباع الأنبياء السابقين، وتأريخ المسلمين في الدفاع لتجلى أكثر صفحات التأريخ اشراقاً وتقسيمة تقسيماً استقرائياً الى:

الأول : صبر المسلمين في مكة .

الثاني : خروج النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في الكتاب وبعثه السرايا من المدينة وعودتهم من قتل أو قتال .

الثالث : الدفاع في معركة بدر وأحد .

الرابع : تعاهد سلامة الثغور الإسلامية، قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(٢).

الخامس : حفظ عن العقيدة والقرآن.

السادس : الدفاع عن بيضة الإسلام ، و(عن ثوبان : أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : إن ربي روي لي الأرض حتى رأيت مشارقها ومغاربها ، وأعطاني الكنزين الأحمر والأبيض ، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوى لي منها ، وإني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنة عامة فأعطانيها ، وسألته أن لا يسلط عليها عدواً من غيرهم

(١) سورة الأنفال ٦١ .

(٢) سورة آل عمران ٢٠٠ .

فأعطانيها ، وسألته أن لا يذيق بعضهم بأس بعض فمنعنيها ، وقال : يا محمد إني إذا قضيت قضاء لم يرد ، إني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكها بسنة عامة ، ولا أظهر عليهم عدواً من غيرهم فيستبيحهم بعامة ، ولو اجتمع من بين أقطارها حتى يكون بعضهم هو يهلك بعضاً وبعضهم هو يسبي بعضاً ، وإني لا أخاف على أمتي إلا الأئمة المضلين ، ولن تقوم الساعة حتى تلحق قبائل من أمتي بالمشركين ، وحتى تعبد قبائل من أمتي الأوثان ، وإذا وضع السيف في أمتي لم يرفع عنها إلى يوم القيامة ، وأنه قال : كلها يوجد في مائة سنة ، وسيخرج في أمتي كذابون ثلاثون ، كلهم يزعم أنه نبي الله ، وأنا خاتم الأنبياء لا نبي بعدي ، ولن يزال في أمتي طائفة يقاتلون على الحق ظاهرين لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله . قال وزعم أنه لا ينزع رجل من أهل الجنة شيئاً من ثمرها إلا أخلف الله مكانها مثلها ، وأنه قال : ليس دينار ينفقه رجل بأعظم أجراً من دينار ينفقه على عياله ، ثم دينار ينفقه على فرسه في سبيل الله ، ثم دينار ينفقه على أصحابه في سبيل الله . قال : وزعم أن نبي الله عظم شأن المسألة وأنه إذا كان يوم القيامة جاء أهل الجاهلية يحملون أوثانهم على ظهورهم ، فيسألهم ربهم ما كنتم تعبدون؟ فيقولون : ربنا لم ترسل إلينا رسولا ولم يأتنا امر . فيقول : أرايتم إن أمرتكم بأمر تطيعوني؟ فيقولون : نعم . فيأخذ موثيقهم على ذلك فيأمرهم أن يعمدوا لجهنم فيدخلونها ، فينطلقون حتى إذا جاءوها رأوا لها تغيضاً وزفيراً فهابوا ، فرجعوا إلى ربهم فقالوا : ربنا فرقنا منها .

فيقول : ألم تعطوني موثيقكم لتطيعن ، اعمدوا إليها فادخلوا . فينطلقون حتى إذا رأوها فرقوا فرجعوا ، فيقول : ادخلوها داخرين قال نبي الله صلى الله عليه وآله وسلم : لو دخلوها أول مرة كان عليهم برداً

وسلاماً^(١).

السابع: الجهاد دفاعاً عن النفس.

الثامن: القتال الشخصي والمحدود.

التاسع: احكام التخفيف عند الدفاع كما في صلاة الخوف مثلاً.

العاشر: آيات القتال الدفاعي وكيفيته ومقدماته ومستلزماته.

الحادي عشر: القتال في سبيل الله دفاعاً خالص لوجه الله

الكريم، قال تعالى ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ﴾^(٢).

التاسع عشر: تكون هذه الآية اذناً سماوياً للتصدي للكفار ورد

اعتدائهم بحزم وقوة السلاح، وقد تقدم قوله تعالى ﴿فَإِنْ قَاتَلْتُمُ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾^(٣).

العشرون: في الآية تخفيف عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم

في الدعوة الى الصبر ودفع الأعداء، ومنع للسأم والملل من التسرب الى نفوس المقاتلين المرابطين، وفيها خزي للذين كفروا ومنع من تأثيرهم وأذاعهم للمسلمين.

الحادي والعشرون: الآية دحر للشيطان واعداء الدين وهي وقاية

وحرز للنفوس من وسوسة الشيطان واغوائه والميل الى الراحة والغفلة قال تعالى ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾^(٤).

الثاني والعشرون: الآية سلاح وحرز من الإنشغال التام بمباهج

(١) الدر المنثور ٧٠/٤.

(٢) سورة النساء ١١٦.

(٣) سورة البقرة ١٩١.

(٤) سورة آل عمران ١٣٩.

الدنيا التي اقبلت على العرب والمسلمين مع بدايات الفتح ويزوغ شمس الإسلام، فقد يقبل الإنسان على الدفاع ويتوجه الى ميادين الجهاد في حال الفقر والفاقة والعوز ولكنه يتردد في مواصلة الجهاد عند توالي النعم وكثرة الغنائم وزيادة الأملاك والثروة، وقد يعتذر بادائه لما عليه من القسط والنصيب .

فجاء الأمر الإلهي في الآية وهو يحمل صفة الفرض للدفاع خصوصاً مع استحضار الآيات التي تتضمن الأحكام التفصيلية له والأحاديث النبوية الشريفة بهذا الخصوص.

الثالث والعشرون : لا يعني الأمر بالدفاع بالسيف حصوله بالضرورة في كل زمان ومكان لعمومات أدلة التخفيف والقواعد الإمتثالية التي تستغرق الأحكام الشرعية الا ما خرج بالدليل.

الرابع والعشرون : يجعل الإمتثال التام لما في الآية من احكام يجعل الفزع والخوف يدب في قلوب كفار قريش ومن ولاهم ويؤدي الى عدم حصول الدفاع بهزيمة الكفار من غير قتال، قال تعالى ﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَدْبَارَ...﴾^(١).

الخامس والعشرون: من وجوه التخفيف فضل الله تعالى بصرف القتال وتفويت اسبابه عندما يستعد المسلمون للقتال استجابة لأمر الله تعالى كما في واقعة الأحزاب مثلاً ، قال تعالى ﴿وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾^(٢).

السادس والعشرون : تبث الآية الرعب في قلوب الكافرين وتجعلهم على خوف شديد من المسلمين المستعدين على نحو مستديم للقتال ، وعن

(١) سورة الفتح ٢٢.

(٢) سورة الاحزاب ٢٥.

(السدي قال : لما ارتحل أبو سفيان والمشركون يوم أحد متوجهين نحو مكة ، انطلق أبو سفيان حتى بلغ بعض الطريق .

ثم إنهم ندموا فقالوا : بئسما صنعتم إنكم قتلتموهم حتى لم يبق إلا الشريد ، تركتموهم . . . ؟

إرجعوا فاستأصلوا . فقذف الله في قلوبهم الرعب فانهزموا فلقوا أعرابياً فجعلوا له جعلاً فقالوا له : إن لقيت محمداً فأخبرهم بما قد جمعنا لهم . فأخبر الله رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ، فطلبهم حتى بلغ حمراء الأسد .

فأنزل الله في ذلك ، فذكر أبا سفيان حين أراد أن يرجع إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وما قذف في قلبه من الرعب فقال { سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب }^(١) الآية .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في هذه الآية قال : قذف الله في قلب أبي سفيان الرعب فرجع إلى مكة فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : إن أبا سفيان قد أصاب منكم طرفاً ، وقد رجع وقذف الله في قلبه الرعب)^(٢) .

السابع والعشرون : الجهاد أعم من كونه واجباً كفائياً أو واجباً عينياً ولكن الآية تجعل توجهه لكل مسلم على نحو العموم الإستغراقي والعموم المجموعي أي ان الخطاب موجه للمسلمين ، قال تعالى ﴿ وَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾^(٣) .

(١) سورة آل عمران ١٥١ .

(٢) الدر المنثور ٢/٤٥٥ .

(٣) سورة آل عمران ١٠٤ .

الثامن والعشرون : هل تكفي المرة الواحدة للندب للدفاع ام لا بد من التعدد، الجواب انه بحسب الحاجة والحال وامر الإمام، نعم تكفي المرة الواحدة وصرف الوجود في صدق اسم الجهاد الا ان هذا لا يكون سبباً للتخلف عنه عندما تقتضي مصلحة الإسلام الإشتراك في الدفاع، او اتخاذه عذراً للفرار من الزحف وهو محرم ومن الكبائر مع عدم العذر .

وعن أبي سعيد الخدري في قوله (وَمَنْ يُؤْمِرْ بِهُمْ يَوْمِئِذٍ دَبْرَهُ) ^(١)، قال : إنها كانت لأهل بدر خاصة .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير عن أبي نضرة في قوله (وَمَنْ يُؤْمِرْ بِهُمْ يَوْمِئِذٍ دَبْرَهُ) . قال : نزلت يوم بدر ولم يكن لهم أن ينحازوا ، ولو انحازوا لم ينحازوا إلا للمشركين ^(٢)، لبيان السعة والمندوحة في الفداء في معركة بدر ، ويدل عليه فرار من الصحابة في معركة أحد ولم يوبخهم النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

(وعن ابن عمر قال : الفرار من الزحف من الكبائر .

وأخرج سعيد بن منصور وابن سعد وابن أبي شيبة وأحمد وعبد بن حميد والبخاري في الأدب المفرد واللفظ له وأبو داود والترمذي وحسنه وابن ماجه وابن المنذر وابن أبي حاتم والنحاس وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عمر قال : كنا في غزاة ، فخاص الناس حيصه قلنا : كيف تلقى النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقد فررنا من الزحف وبؤنا بالغضب؟!

فأتينا النبي صلى الله عليه وآله وسلم قبل صلاة الفجر ، فخرج فقال من القوم . . . ؟

(١) سورة الأنفال ١٦.

(٢) الدر المنثور ٤/٤٢٦.

فقلنا : نحن الفرارون .

فقال : لا بل أنتم العكارون^(١) .

فقبلنا يده فقال : أنا فتتكم وأنا فئة المسلمين ، ثم قرأ { إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة }^(٢) .

تفسير قوله تعالى ﴿وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ﴾

في معنى الكره الوارد في الآية وجوه:

الأول : الشدة والمشقة على النفس لأنه تكليف يتعلق بالنفس والتضحية بها.

الثاني : انه ثقیل وفيه كلفة بسبب الإبتعاد عن الوطن وبذل الجهد الإضافي غير المتعارف وخلاف العادة والواقع في الحياة اليومية في الحضر.

الثالث : لأنه خلاف الطبع والمزاج.

الرابع : لما فيه من احتمال القتل والإصابة والجرح.

الخامس : لكثرة الأعداء ومواجهة الأهوال والشدائد ، قال تعالى

﴿وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾^(٣).

السادس : لتجدد القتال ، وتكرر حصوله وان تباينت صيغته، فمرة دفاعاً ومرة هجوماً وهكذا.

السابع : الضمير (لكم) يعود لعموم المسلمين والمسلمات، فيشمل الذين لم يشتركوا في القتال من القاعدين والمعذورين لما فيه من الأخطار

(١) العكارون: جمع عكار وهو من صيغ المبالغة ومعناه الكرار وشديد الهجوم على

على الخصم .

(٢) الدر المنثور ٤/٤٢٧ .

(٣) سورة البقرة ٢١٦ .

واحتمال فقد الآحبة، ويشمل النساء وإن كان القتال ساقطاً عنهن ،
وتقدير الآية (يا ايها الذين آمنوا كتب عليكم القتال وهو كره لكم
ولنساءكم) .

الثامن : لما في القتال من الخوف والفرع ، وجاء القرآن لبيان قانون
وهو في الإستعداد للدفاع سكينة وأمن ، قال تعالى ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي
مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كُرُوكُكُمْ فَلَمْ تَفْعَلْ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ
عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ * ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَةً عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى
الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا﴾ (١) .

وعن جابر بن عبد الله قال : لما استقبلنا وادي حنين انحدرنا في واد
من أودية تهامة أجوف حطوط إنما ننحدر فيه انحدارا قال وفي عماية
الصبح وكان القوم قد سبقونا إلى الوادي فكمنا لنا في شعابه وأجنابه
ومضايقه وقد أجمعوا وتهيئوا وأعدوا فوالله ما راعنا ونحن منحطون إلا
الكتائب قد شدوا علينا شدة رجل واحد وانشمر الناس راجعين لا يلوى
أحد على أحد .

وانحاز رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذات اليمين ثم قال يا
أيها الناس هلم إلى أنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنا محمد بن
عبدالله قال فلا شئ حملت الابل بعضها على بعض فانطلق الناس إلا أنه
قد بقى مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نفر من المهاجرين وأهل
بيته وفيمن لبث معه من المهاجرين أبو بكر وعمر ومن أهل بيته علي بن
أبي طالب والعباس وأبو سفيان بن الحرث وابنه والفضل بن العباس
وربيعة بن الحرث وأسامة بن زيد وأيمن بن أم أيمن وقتل يومئذ، قال
ورجل من هوازن على جمل له أحمر بيده راية

إذا فاته الناس رفع رحمة لمن وراءه فاتبعوه فبينما هو كذلك إذ أهوى إليه علي بن أبي طالب ورجل من الانصار يريدانه قال فيأتي علي من خلفه فيضرب عرقوبي الجمل فوق علي عجزه ووئب الانصاري على الرجل فضربه ضربة أطن قدمه بنصف ساقه فانجحف^(١)، عن رحله قال واجتلد الناس فوالله ما رجعت راجعة الناس من هزيمتهم حتى وجدوا الاسارى مكتفين عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

قال ابن إسحق فلما انهزم الناس يعنى المسلمين ورأى من كان مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من جفاة أهل مكة الهزيمة تكلم رجال منهم بما في أنفسهم من الضغن .

فقال أبو سفیان بن حرب لا تنتهي هزيمتهم دون البحر وإن الازلام لمعه في كناتته وصرخ جبلة بن الحنبل - وصوبه ابن هشام كلدة - ألا بطل السحر اليوم فقال له صفوان أخوه لأمه وكان بعد مشركا اسكت فض الله فاك فوالله لئن يربنى رجل من قريش أحب إلى من أن يربنى رجل من هوازن.

وروينا عن ابن سعد قال أنا محمد بن عمر ثنا عمر بن عثمان المخزومي عن عبدالمملك بن عبيد قال محمد بن عمرو حدثنا خالد بن الياس عن منصور بن عبدالرحمن الحجبي عن أبيه عن أمه وغيرها قالوا كان شيبه بن عثمان رجلا صالحا له فضل وكان يحدث عن إسلامه وما أراد الله به من الخير ويقول ما رأيت أعجب

مما كنا فيه من لزوم ما مضى عليه أبأؤنا من الضلالات.

ثم يقول لما كان عام الفتح ودخل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مكة عنوة قلت أسير مع قريش إلى هوازن بجنين فعسى إن اختلطوا أن أصيب من محمد غرة فأثار منه فأكون أنا الذى قمت بثأر قريش كلها،

(١) يقال ضربة حتى انجحف أي انصرع (الاشتقاق ١/١٢٧).

وأقول لو لم يبق من العرب والعجم أحد إلا اتبع محمدا ما تبعته أبدا وكنتم مرصدا لما خرجت له لا يزداد الامر في نفسي إلا قوة فلما اختلط الناس اقتحم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن بغلته وأصلت السيف فدنوت أريد ما أريد منه ورفعت سيفي حتى كدت أسوره فرفع لى شواظ من نار كالبرق كاد يمحشنى ^(١).

فوضعت يدي على بصري خوفا عليه والثفت إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فناداني يا شيب ادن فدنوت فمسح صدري ثم قال : اللهم أعذه من الشيطان قال فوالله لهوكان ساعتئذ أحب إلى من سمعي وبصري ونفسي وأذهب الله ما كان في.

ثم قال أدن فقاتل فتقدمت أمامه اضرب بسيفي الله يعلم أنى أحب أن أقيه بنفسى كل شئ ولو لقيت تلك الساعة أبى لو كان حيا لا وقعت به السيف فجعلت ألزمه فيمن لزمه حتى تراجع المسلمون وكروا كرة رجل واحد وقربت بغلة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فاستوى عليها فخرج في أثرهم حتى تفرقوا في كل وجه ورجع إلى معسكره فدخل خباءه فدخلت عليه ما دخل عليه غيري حبا لرؤية وجهه وسرورا به فقال يا شيب الذى أراد الله بك خير مما أردت بنفسك ثم حدثني بكل ما اضمرت في نفسي مما لم أكن أذكره لاحد قط .

فقلت : فأنى أشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله ثم قلت استغفر لى فقال غفر الله لك ^(٢).

التاسع : يدل قوله تعالى ﴿يَوْمَ التَّقَىٰ الْجَمْعَانِ﴾ ^(٣) على احتمال من احتمال الخسارة والهزيمة وتعرض الإسلام للخطر، وهذه المسألة

(١) يقال يمحش الرجل : خدشه.

(٢) عيون الأثر ٢/٢١٥.

(٣) سورة الأنفال ٤١.

تستحق الوقوف والدراسة أي ان المسلمين افراداً وجماعات لا يكرهون القتال للخوف على انفسهم فان هذا الخوف معدوم بدليل اختيارهم الإسلام وما فيه من صيغ التعرض للإبتلاء والأذى وتدل عليه شواهد تاريخية كثيرة ولأن البشارة بالجنة تجعل الرجحان للأمل والسعادة الأبدية. ولكنهم كانوا يخشون على الإسلام والدعوة إلى الله، لذا كان دعاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم عشية معركة بدر : اللهم إنك إن تهلك هذه العصابة لا تعبد بعدها في الارض " وجعل يهتف بربه عز وجل ويقول: " اللهم أنجز لى ما وعدتني، اللهم نصرک^(١).

العاشر : لقد اختار المسلمون الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر، وقد كتب الله على المسلمين الدفاع بسبب جحود وعناد الذين كفروا وتسييرهم الجنود لمحاربة النبوة والتنزيل مما يدل على رضاهم بالقتال والتسليم والإستعداد للدفاع عن الإسلام والإمثال للأوامر الإلهية التي ترد في القرآن او على لسان النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وما يأتي به من الوحي.

الحادي عشر : علة كره المسلمين للقتال الحرص على الإسلام والخوف على اركانه وقواعده الأساسية وعلى شخص النبي صلى الله عليه وآله وسلم وائمة الهدى من بعده، والسلامة العامة لهم وللناس. وفي معركة بدر توجه النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالدعاء واكثر من التوسل والتضرع رجاء النصر، وكذا في كل معركة من معارك الإسلام.

الثاني عشر : لقد اقترنت عقيدة التوحيد في الأرض بالإسلام ، ففيه تتمثل أحكامها.

الثالث عشر : الكره بسبب ما في القتال من الإثم والمعصية لمن يجارب

(١) السيرة النبوية / ابن كثير ٤١١/٢ .

المسلمين ويختار الإفساد في الأرض والخلود في النار، إذ ان الرأفة في النبوة والرحمة على الناس جميعاً.

ولما أراد الله عز وجل أن يجعل الإنسان ﴿فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾^(١) تفضل وأحاط الملائكة علماً بالأمر ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾^(٢)، فتضرع الملائكة إلى الله بأن لا يجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء فقال الله تعالى ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٣)، فمن علم الله قتال الذين كفروا للأنبياء ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾^(٤).

الرابع عشر : ان المسلمين حملوا على القتال والدفاع حملاً لأنه حاجة لازمة وان لم يكونوا راضين به.

الخامس عشر : ان الله عز وجل لا يريد لكم المشقة ويكره لكم التعب والأذى ولكن الدفاع فرض عبادي وهو خلاف الحياة العامة للمسلمين وما فيها من الدعة والسكينة والإستقرار، وهو الطريق لمثل هذه الحياة، قال تعالى ﴿وَيُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَبَجَعَلَهُمْ أَتَمَّةً وَبَجَعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾^(٥).

السادس عشر : ان الكره ليس مطلقاً انما يتعلق بحال القتال والإقدام عليه والا فان منافعه اكبر مما يتعرض له المؤمنون من الأذى حال التلبس بالقتال فهو كالدواء المر والعملية الجراحية التي لا بد

(١) سورة البقرة ٣٠.

(٢) سورة البقرة ٣٠.

(٣) سورة البقرة ٣٠.

(٤) سورة الأعراف ١٢٨.

(٥) سورة القصص ٥.

منها، فحينما يخير الطبيب المريض بين العملية الجراحية وبين حصول مضاعفات تؤدي الى الهلاك بدونها يختار العملية وان سببت فقدان احد اعضاء الجسم، وكذا القتال فانه مشقة واذى وقد يقتل في الدفاع بعض المؤمنين الا انه قياس مع الفارق، فالذي يقتل عادة من ضحى بنفسه واختار الذهاب الى النعيم الخالد، قال تعالى ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتٌ بَلْ أحياءٌ وَلَكِنْ لَّا تَشْعُرُونَ﴾ (١).

السابع عشر: الكره ظاهري ومحدود ، ففي الواقع لا خسارة للمؤمنين وعوائلهم في القتال مع انه تثبت وترسيخ لأحكام الإسلام والتضحية في سبيل الله، ونيل بعض المؤمنين الشهادة يؤدي الى صيانة نفوس المسلمين من القتل والإضطهاد.

الثامن عشر: الكره من الكلي المشكك فهو يختلف بحسب الحالة النفسية للشخص وقوة ايمانه وقدرته على التحمل واستعداده للتضحية وتساهم الآية في ارتقاء المسلم في هذه الوجوه مجتمعة ومتفرقة وعندما علم المسلمون بقدم جيش المشركين لمعركة أحد تسابقوا وتناجوا للملاقاتهم ، قال تعالى ﴿وَقَدْ كُنْتُمْ تَمْتَمُونَ الْمَوْتِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ (٢).

التاسع عشر: من مقدمات القتال الإنفاق على الجيوش والمؤن وتحمل الأسفار وترك الأهل والأولاد والأموال والتعرض للتلف ومع هذا ففيه سعادة دائمة واستقرار وأمان للمسلمين في مدنهم وقراهم.

العشرون: يتطلب الجهاد والقتال دفاعاً عن النفس الإنفاق وصرف الأموال على السلاح ، ووسائل النقل ومؤونة الجنود والمقاتلين،

(١) سورة البقرة ١٥٤.

(٢) سورة آل عمران ١٤٣.

وفيه تكليف واعاقة لمشاريع التنمية ولكن منافعه اللاحقة والمستقبلية عظيمة وربحه عقائدي ومعنوي وله ثمار مالية عاجلة وآجلة بالإضافة الى عظيم الأجر والثواب على الإنفاق في سبيل الله والتعويض العاجل بكثرة الغنائم وحالات العز والفرح بالنصر ليكون من معاني الهلكة في قوله تعالى ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾^(١)، الإمتناع عن الإنفاق في سبيل الله، وصيرورته سبباً للخسارة والهزيمة.

الحادي والعشرون : السعادة الأبدية بالشهادة في سبيل الله ونيل منازل عالية في الجنة لا تنال الا بالشهادة.

الثاني والعشرون : تحث الآية على تجاوز المشاق والصعاب التي تعيق الجهاد بلحاظ انه حق وحثم لازم.

(وعن عكرمة في قوله { وهو كره لكم } قال : نسختها هذه الآية ﴿ وقالوا سمعنا وأطعنا ﴾^(٢) وأخرجه ابن جرير موصولاً عن عكرمة عن ابن عباس .

وأخرج ابن المنذر والبيهقي في سننه عن ابن عباس قال : عسى من الله واجب .

وأخرج ابن المنذر عن مجاهد قال : كل شيء في القرآن عسى ، فإن عسى من الله واجب)^(٣).

ولا دليل على النسخ بين الآيتين أعلاه فمن قواعد النسخ التعارض بين الناسخ والمنسوخ وليس من تعارض بين آية البحث وقوله تعالى

(١) سورة البقرة ١٩٥.

(٢) سورة البقرة ٢٨٥.

(٣) الدر المنثور ١/٤٩١.

﴿أَمَّنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا تَفَرَّقُ بَيْنَ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾^(١).

للإطلاق في السمع والطاعة من قبل المسلمين وموضوع الآية هو الإيمان ، ثم لو لم يقولوا سمعنا وأطعنا ، إنما تبين آية البحث من جهات :
الأولى : تتعلق الكراهية بذات القتال وهو مكرمة لما فيه من الضرر والجراحات والقتل واستنزاف الأموال ، وتعطيل التجارات ، ونمو الأحقاد .

الثانية : كراهة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم للقتال لعمومات قوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(٢) ، ولإدراك النبي صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين لقانون وهو أن معجزات النبي صلى الله عليه وآله وسلم العقلية والحسية كافية لجذب الناس للإسلام ، ولكن الذين كفروا هم الذين تعجلوا بالقتال ، وصاروا يسارعون في المناجاة بالإجهاز على المسلمين وإرادة قتل النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته وأصحابه ، وتدل عليه خارطة معارك الإسلام الأولى من وجوه :
الأول : وقوع معركة بدر على بعد (١٥٠) كم من المدينة ونحو (٣٤٠) كم من مكة .

الثاني : إصرار الذين كفروا على القتال يوم معركة بدر والتي وقعت في شهر رمضان من السنة الثانية للهجرة ، كما يأتي بيانه^(٣) .
الثالث : انتفاء السبب لمعركة بدر إذ خرجت قريش لإنقاذ قافلة أبي

(١) سورة البقرة ٢٨٥ .

(٢) سورة الانبياء ١٠٧ .

(٣) أنظر الجزء الحادي والستين بعد المائة من هذا السفر المبارك .

سفيان ، وقد بعث لهم أبو سفيان وهم في الطريق إلى معركة بدر يخبرهم بسلامة القافلة ويطلب منهم الرجوع والعودة إلى مكة .

(قال ابن إسحاق : وَلَمَّا رَأَى أَبُو سُفْيَانَ أَنَّهُ قَدْ أَحْرَزَ عَيْرَهُ أَرْسَلَ إِلَى قُرَيْشٍ : إِنَّكُمْ إِنَّمَا خَرَجْتُمْ لَتَمْنَعُوا عَيْرَكُمْ وَرِجَالَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ فَقَدْ نَجَّاهَا اللَّهُ فَارْجِعُوا ، فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ بْنُ هِشَامٍ وَاللَّهِ لَا نَرْجِعُ حَتَّى نَرُدَّ بَدْرًا - وَكَانَ بَدْرٌ مَوْسِمًا مِنْ مَوَاسِمِ الْعَرَبِ ، يَجْتَمِعُ لَهُمْ بِهِ سُوقٌ كُلِّ عَامٍ - فَتُقِيمُ عَلَيْهِ ثَلَاثًا ، فَتَنْحَرُ الْجُزُرُ الْعَرَبُ وَبِمَسِيرِنَا وَجَمَعْنَا ، فَلَا يَزَالُونَ يَهَابُونَنَا أَبَدًا بَعْدَهَا ، فَاْمَضُوا .) (١).

الرابع : زحف جيوش المشركين على المدينة بعد ثلاثة عشر شهراً من معركة بدر ، ووقوع معركة أحد وصاروا على بعد (٥) كم عن المسجد النبوي ، ولو لم يخرج النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه لهم لهجموا على المدينة ، ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٢).

الخامس : مجيء المشركين بثلاثة آلاف رجل وهو ثلاثة أضعاف عددهم في معركة بدر .

السادس : مجيء كفار قريش بعشرة آلاف رجل في معركة الخندق في السنة الخامسة للهجرة ، وإحاطتهم بالمدينة نحو عشرين ليلة ، مما يدل على أنهم على أمور :

الأول : تعيين المشركين لموضع وأوان المعركة .

الثاني : قيام المشركين بالهجوم على المدينة .

(١) ابن هشام/السيرة النبوية ٦١٨/١ .

(٢) سورة آل عمران ١٢١ .

الثالث : كثرة عدد جيش المشركين ، وحرصهم على أن يكون عدد أفراد جيشهم أضعاف عدد المسلمين ، أي أنهم يعلمون بعدد المقاتلين والصحابة الذين يقاتلون مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وهل هذا التباين في عدد أفراد الجيش ورجحانه إلى جانب وطرف المشركين ، من مصاديق قوله تعالى ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ ﴾ (١) ، الجواب نعم لبيان فضل الله عز وجل في نصر المسلمين مع قلة عددهم ، وهذه القلة من مصاديق الذلة التي ورد ذكرها في قوله تعالى ﴿ وَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِدُرُودٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (٢) .

الثالثة : كراهة المسلمين والمسلمات للقتال ، فصحيح أن النساء ساقط عنهن القتال ، وليس عليهن الخروج للدفاع إلا أن القتال مكروه بالنسبة لهن كراهة شديدة ، لما فيه من غياب الآباء والأبناء والأزواج وفقد بعضهم وجراحات طائفة منهم ومن إعجاز آية البحث أنها لم تقل (كتب عليكم القتال في سبيل الله وهو كره لكم) إنما ذكر الغاية من القتال وكونه في سبيل الله من أسباب التخفيف من هذا الكره الذي هو من الكلبي المشكك الذي يكون على مراتب متفاوتة قوة وضعفاً.

(١) سورة البقرة ٢١٦.

(٢) سورة آل عمران ١٢٣.

تفسير قوله تعالى ﴿وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾

في الآية مسائل :

الأولى : قيل : ان عسى هنا تامة أي انها تتم بالفاعل ولا تحتاج الى الخبر.

وظاهرها انها ناقصة والخبر هو خير لكم .

الثانية : الآية قاعدة كلية لا ينحصر موضوعها بالقتال والجهاد بل هي عامة تشمل ما فيه من المنافع العاجلة او الآجلة وان تضمنت حال التلبس ضرراً واذى.

الثالثة : القتال لا يؤدي الا الى احدى الحسنيين اما النصر والظفر وعز الإسلام، واما الشهادة والنعيم الخالد في الجنة، وكل منهما خير محض ، قال تعالى ﴿قُلْ هَلْ تَرْتَضُونَ بَنَاتِ الْإِخْدَى الْحُسَيْنِ﴾^(١).

الرابعة : تدل الآية في مفهومها على الشر والعذاب الذي يواجه الكفار في اختيارهم محاربة المسلمين والهجوم المتعدد والمتكرر عليهم مع الإنذارات القرآنية والميدانية ، وفي التنزيل ﴿لَيَقْطَعَنَّ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتُهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ﴾^(٢).

الخامسة : من الخير الذي يترشح عن القتال حصول الغنائم وتحسين الموارد الإقتصادية للمسلمين لتكون عوناً لمعارك أخرى قادمة سواء كانت محددة سلفاً أو مستحدثة.

السادسة : تؤكد الآية على ملاك الأفعال وما فيها من المصالح والمفاسد وليس الحالة النفسية والمزاج وحال التلبس بالفعل، والأمور

(١) سورة التوبة ٥٢.

(٢) سورة آل عمران ١٢٧.

العظيمة والتحويلات النوعية لا تتم الا بالتضحيات وتحمل المشاق وبذل الجهود ومواصلتها.

السابعة : الآية بناء أخلاقي وعقائدي للمسلمين ، وفيها تشريع لنظام وقوانين الجهاد، ودعوة للناس للتوبة والإنابة.

وعن عروة بن الزبير قال: جلس عمير بن وهب الجمحي مع صفوان بن أمية بعد مصاب أهل بدر من قريش في الحجر ييسير وكان عمير بن وهب شيطاناً من شباطين قريش وكان ممن يؤذى رسول الله صلى الله عليه وسلم واصحابه ويلقون منه عناء وهو بمكة.

وكان ابنه وهب بن عمير في أسارى بدر فذكر اصحاب القليب^(١)، ومصابهم.

فقال صفوان لمن في العيش والله خير بعدهم قال له عمير صدقت اما والله لولا دين على ليس له عندي قضاء وعيال اخشى عليهم الضيعة بعدى لركبت إلى محمد حتى اقتله فان لى فيهم علة ابني اسير في ايديهم.

فاغتنمها صفوان فقال على دينك انا اقضيه عنك وعيالك مع عيالي او اسيهم ما بقوا لا يسعنى شئ ويعجز عنهم.

قال عمير فاكنتم عنى شأني وشأنك قال افعل.

ثم امر عمير بسيفه فشحذ له وسم ثم انطلق حتى قدم المدينة فيينا عمر بن الخطاب في نفر من المسلمين يتحدثون عن يوم بدر ويذكرون ما اكرمهم الله به وما اراهم من عدوهم إذ نظر عمر إلى عمير بن وهب حين اناخ على باب المسجد متوشحاً بالسيف.

فقال هذا الكلب عدو الله عمير بن وهب ما جاء الا لشر وهذا الذي

(١) القليب : البئر قبل أن تطوى ، أي قبل أن تكسى جدرانها بالحجارة ، فإذا كسيت كلها بالحجارة سميت بئراً مطوية ومضروسة لمنعها من أن تنهال أما إذا كسيت قدر قامة من أسفلها فتسمى معروشة.

حرض بيننا وحزرننا للقوم يوم بدر ثم دخل عمر على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال يا نبي الله هذا عدو الله عمير بن وهب وقد جاء متوشحا سيفه.

قال فأدخله علي.

قال فأقبل عمر حتى أخذ بجمالة سيفه في عنقه فلبه بها وقال لرجال ممن كانوا معه من الأنصار ادخلوا على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فاجلسوا عنده واحذروا عليه هذا الخبيث فإنه غير مأمون.

ثم دخل به على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعمر أخذ بجمالة سيفه في عنقه قال ارسله يا عمر ادن يا عمير ادن يا عمير فدنا.

ثم قال انعموا صباحا وكانت تحية اهل الجاهلية بينهم.

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد اكرمنا الله بتحية خير من تحيتك يا عمير بالسلام تحية اهل الجنة قال اما والله ان كنت بها يا محمد لحديث عهد.

فما جاء بك يا عمير .

قال جئت لهذا الاسير الذى فيكم فاحسنوا فيه.

قال فما بال السيف في عنقك.

قال قبحها الله من سيوف وهل اغنت عنا شيئا قال اصدقني ما الذى جئت له قال ما جئت الا لذلك قال بلى قعدت انت وصفوان بن امية في الحجر فذكرتما اصحاب القلب من قريش ثم قلت لولا دين على وعيال لي لخرجت حتى اقتل محمدا فتحمل لك صفوان بدينك وعيالك على ان تقتلني له والله حائل بينك وبين ذلك.

قال عمير اشهد انك رسول الله قد كنا يا رسول الله نكذبك بما تأتى به من خبر السماء وما ينزل عليك من الوحي وهذا امر لم يحضره الا انا

وصفوان فوالله انى لاعلم ما اتاك به الا الله والحمد لله الذى هدانى للاسلام وساقنى هذا المساق ثم تشهد شهادة الحق.
فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقهوا احاكم في دينه واقرئوه القرآن واطلقوا له اسيره ففعلوا ذلك.

ثم قال يا رسول الله انى كنت جاهدا على اطفاء نور الله شديد الاذى لمن كان على دين الله فانا احب ان تأذن لى فأقدم مكة فأدعوهم إلى الله والى الاسلام لعل الله يهديهم والا آذيتهم في دينهم كما كنت أؤذي أصحابك في دينهم فأذن له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فلحق بمكة قال.

وكان صفوان حين خرج عمير يقول ابشروا بوقعة تأتكم الآن تنسيكم وقعة بدر وكان صفوان يسأل عنه الركبان حتى قدم راكب فأخبره عن اسلامه فحلف ان لا يكلمه ابدا وان لا ينفعه بنفع ابدا^(١).

الثامنة : الآية سلاح للمؤمنين وتساهم في ايجاد حالة اندفاع واقبال على الجهاد، قال تعالى ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾^(٢).

التاسعة : في الآية تخفيف وتصدد للتردد وابرار وجوه الضرر.

العاشرة : منهم من عقد باباً في الفاظ القرآن التي تجري مجرى المثل والتي اطلق عليها في البديع ما ارسل ارسال المثل وجعل هذه الآية منه.

ولكن الآية قاعدة كلية في المعرفة الإلهية، ومن العلوم الكلامية، نعم هي اعم من موضوع القتال لتخلق ملكة نفسية عند المسلمين لمواجهة الصعاب وتحدي المكاره في سبيله تعالى، قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا

(١) عيون الأثر ١/ ٣٥٢ .

(٢) سورة المدثر ٣١ .

اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١﴾، ويجوز اقتباس الحكم والأمثال من القرآن ، قال تعالى ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (٢).

تفسير قوله تعالى ﴿وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾

وفي الآية مسائل:

الأولى : ذكر قاعدة كلية مخالفة للقاعدة السابقة في المحمول وان كان الملاك واحداً.

الثانية : تمنع الآية من الظن بانحصار موضوع الآية بالجانب السلبي فيما يكره المؤمنون مما هو نافع في علم الله عز وجل.

الثالثة : تؤكد الآية بان المدار ليس على الحب والبغض فلا موضوعية لميل العبد وهواه وعليه ان يرجع الى ما في الأفعال من المصالح والمفاسد، قال تعالى ﴿وَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٣).

الرابعة : قد يجب المسلم الدعة والسكينة والراحة ولكن الخير والنفعة والثواب في الدفاع إذا صار حاجة .

الخامسة : الشر هو السوء وما فيه الضرر والأذى فقد تميل النفس لما فيه ضرر عاجل او آجل.

السادسة : (عسى) هنا تفيد الطمع والترجي ايضاً وليبان ان بعض الإنسان هو شر له على نحو السالبة الكلية او الجزئية، وقد يكره ما فيه النفع العظيم.

(١) سورة آل عمران ٢٠٠.

(٢) سورة إبراهيم ٢٥.

(٣) سورة آل عمران ١٠٤.

السابعة : الآية دعوة للإلتجاء الى الله ورسوله والرجوع الى القرآن فيما يحب المؤمنون وان لا يكون القرار نابعاً من المحبة او الكراهة وحدها.

الثامنة : الآية جامعة مانعة، جامعة للميول النفسية والرغبات والمطالب والحاجات ، ومانعة من الزلل والخطأ الذي قد ينجم من الإنطلاق من الرغبة النفسية وحدها، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿وَزَكَّأْنَا عَلَیْكَ الْكِتَابَ بُيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾^(١).

التاسعة : تجعل الآية طمع المسلم منحصرأ بالله تعالى ، إذ يقوم المسلم بالدعاء والسؤال والتفقه في الدين والإمتثال لأوامر النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الجهاد ويتخذ من كل آية مدرسة ونبراساً للسير في دروب الحياة ومسالك الآخرة ، قال تعالى في وصف القرآن والثناء عليه ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^(٢).

العاشرة : في الآية توثيق للصلة بين المؤمن وبين القرآن، فحالما يهم بفعل او يمتنع عنه او يريد تقييم امر يبادر الى القرآن، ولا يصدر إلا عنه.

الحادية عشرة: تحجر الآية على ان القرآن كاشف للكروب وتنهى عن التردد والنكوص، وفي التنزيل ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ تَحْتِمْنُ الْقُلُوبُ﴾^(٣).

الثانية عشرة : تمنع الآية من اليأس والقنوط وتعين على تلقي المصائب والخسارة فلا يلوم المؤمن نفسه لو اصابته خسارة او ضرر بسبب فعل فعله في جنب الله وطلب مرضاته، وفي التنزيل ﴿قُلْ لَنْ

(١) سورة النحل ٨٩.

(٢) سورة المائدة ١٦.

(٣) سورة الرعد ٢٨.

يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾.

الثالثة عشرة : الآية دعوة لمعرفة احكام السنة النبوية ، واقوال الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم لما فيها من ضياء على عالم الأعمال والرغائب.

وقال الخليل: (عسى من الله واجب في القرآن)، ولكنه ليس مطلقاً وان استشهد ببعض الآيات كقوله تعالى ﴿ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنَّكَ بِالْفَتْحِ ﴾ (٢) وقد وجد ﴿ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنَّكَ بِهِمْ جَمِيعًا ﴾ (٣) وقد حصل.

وقيل: ان كل شيء في القرآن عسى فهو واجب الا حرفين: حرف في التحريم: ﴿ عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكَ ﴾ (٤) وفي بني اسرائيل ﴿ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُرْحَمَكُمُ ﴾ (٥)

نعم يمكن ان تكون (عسى) من الله امراً واقعاً ولكن بفضل ومدد وعون منه تعالى سواء في كافة مصاديقها او في شطر منها، والآية محل البحث تدل على عدم اطلاق معنى الإيجاب على نحو العموم للآية فقد تتوافق محبة المسلمين وطائفة منهم مع الخير والمصلحة، وقد يلتقي كرههم وبغضهم للشيء مع ضرره وما فيه من سوء.

الرابعة عشرة : لعل موضوع الآية من الكليات المشككة ، ويختلف الحال من زمان الى آخر، وأمر وموضوع دون غيره وقد يتناسب عكسياً مع زيادة التفقه في الدين وظهور صبغة الإيمان على الأعمال

(١) سورة التوبة ٥١.

(٢) سورة المائدة ٥٢.

(٣) سورة يوسف ٨٣.

(٤) سورة التحريم ٥.

(٥) سورة الاسراء ٨.

والجوارح وانبثاق الرغائب والميول من القرآن واحكامه واتباع اوامره ونواهيه.

بحث بلاغي

يستعمل (عسى) على وجهين:

الأول: فعل ماض جامد لا ينصرف، وهذا الإستعمال على قسمين

احدهما انه مسند إلى اسم ظاهر أو إلى ضمير بارز مثل ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُرْحَمَكُمُ﴾^(١).

والقسم الآخر انه مسند الى (ان والفعل) كما في هذه الآية الشريفة ومنهم من أعربه فعلاً تاماً ، بمعنى عسى كراحتكم أي حصول الكراهة لشيء في الواقع خير لكم.

الثاني: يأتي (عسى) حرفاً شبيهاً بلعل.

وتفيد (عسى) معنى الرجاء والتمني والطمع في المحبوب والإشفاق والخوف من المكروه او طمع في المستقبل واشفاق ان لا يحصل ، ومن الآيات انهما إجتماع المعنيين في هذه الآية.

واخرج ابن ابي حاتم والبيهقي وغيرهما عن ابن عباس انه قال: كل عسى في القرآن فهي واجبة.

ولكن الإمام الشافعي نسبه الى القليل : "يقال عسى من الله واجبة"^(٢) وهذه النسبة تضعيف للقول ولما ذكر من نسبه لابن عباس ، أي لو كانت النسبة والسند والطريق الى عبد الله بن عباس صحيحة، او ان القول والقاعدة مطلقة لما قال الشافعي (يقال).

والحق ان (عسى) في القرآن تحمل ذات المعنى اللغوي من الترجي

(١) سورة الأسراء ٨.

(٢) الأتقان في علوم القرآن ٤/٢٠٤.

والإشفاق مع حصة زائدة وهي عمومات اللطف الإلهي، إلا ان تدل قرينة أو أمانة على افادتها الوجوب والقطع.

وما ذكره مكرراً بان جرت عادة الجبارة من الإجابة بلعل وعسى ووقوع ذلك منهم موقع القطع والبت، لا يصلح للإستدلال وقاصر عن افادة التشبيه و(عسى) دعوة للعمل ونيل الأجر والثواب.

تفسير قوله تعالى ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ في الآية مسائل :

الأولى : جاءت خاتمة الآية قاعدة كلية عامة تصلح للإستدلال.
الثانية : تحت الآية على عدم الغرور والإعتداد بالرأي الشخصي أو النوعي لأن عدم العلم جاء في الآية مطلقاً ، قال تعالى ﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾^(١).

الثالثة : المعروف هو حجية الإجماع وان الأمة لا تجتمع على ضلالة أو خطأ، وصحيح ان الحب والكراهة اعم من الخطأ والزلل فقد يكون منه ترك الأولى، أو اتيان المهم وترك الأهم، ولا بد ان الكره أو الحب المغاير لما كتب الله ليس عاماً مستغرقاً للمؤمنين، لذا تجد حب الدفاع ودفع العدو ظاهر في كل زمان وتتسع دائرته ويزداد تجليه كلما داهم المسلمين خطر، وفي التنزيل ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾^(٢).

الرابعة : علم الله تعالى بمصلحة الإسلام والسبل الكفيلة بحفظ وتعاهد اجيال المسلمين وشعائر الإسلام وان تطلب الأمر تقديم التضحيات وركوب الأهوال والمخاطر.

الخامسة : من اللطف الإلهي ان حجب الله الينا الإيمان وزينه في قلوب المسلمين ورغبهم في الجهاد ووعده عليه الدرجات العلى والرفعة ، قال

(١) سورة الإسراء ٨٥.

(٢) سورة البقرة ١٩٠.

تعالى ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ (١).

السادسة : تمنع الآية من الفرقة والخلاف وتحث على الرجوع الى القرآن والسنة النبوية الشريفة بتحديد المواقف وما يجب اتخاذه ، وهذا الرجوع من مصايق قوله تعالى ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا﴾ (٢).

السابعة : تدعو الآية الى الإنشغال بطاعة الله تعالى ونبذ اتباع الهوى، واللهاث وراء الشهوات وأسباب الزينة.

(١) سورة الحجرات ٧.

(٢) سورة آل عمران ١٠٣.

قوله تعالى ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدُّ
عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ
الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يَقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ
يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ
وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ الآية ٢١٧.

الإعراب واللغة

يسألونك : فعل مضارع مرفوع وعلامة رفعه الضمة الظاهرة على آخره .

الواو : فاعل

الكاف : ضمير مفعول به ، والجمله مستأنفة لبيان حكم القتال في الشهر الحرام ، وقيل ان المراد به شهر رجب، والآية أعم في موضوعها ودلالاتها.

عن الشهر: جار ومجرور متعلقان بـ ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ .

الحرام: صفة، قتال: بدل اشتمال من الشهر، والمعنى: يسألونك عن القتال في الشهر الحرام.

فيه : جار ومجرور .

قل: فعل أمر، فاعله مستتر تقديره أنت، والخطاب للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

قتال: مبتدأ، وصح الابتداء به مع انه نكرة لأنه وصف. فيه : جار ومجرور.

كبير: صفة لقتال، وصد: الواو حرف عطف، وصدّ: مبتدأ مبتدأ ساغ الابتداء به لعطفه على قتال.

عن سبيل الله: عن: حرف جر.

سبيل: اسم مجرور وعلامة جره الكسرة تحت آخره وهو مضاف. لفظ الجلالة: مضاف إليه مجرور بالكسرة.

وكفر: الواو حرف عطف.

كفر: اسم معطوف على صدّ.

به: الباء حرف جر، الضمير ضمير في محل جر، عائد إلى اسم الجلالة، متعلق بصفة الكفر، أي كفر بالله.

والمسجد الحرام: الواو: حرف عطف.

المسجد: اسم معطوف على سبيل الله والتقدير: وصدّ عن المسجد الحرام، وهل يجوز عطفه على لفظ الجلالة: ويكون التقدير وكفر بالله وبالمسجد الحرام، خاصة وأن هذا المعنى هو الأقرب من جهة اللفظ إذ ان الكفر على أقسام كما يأتي في باب التفسير.

واخراج أهله: الواو: حرف عطف.

إخراج: معطوف على صدّ، مرفوع وعلامة رفعه الضمة الظاهرة لإلحاق حركة المعطوف بالمعطوف عليه. وهو مضاف،

أهله: أهل: مضاف إليه مجرور وعلامة جره الكسرة الظاهرة تحت

آخره، وهو مضاف، والضمير الهاء: مضاف إليه.

منه: جار ومجرور متعلق باخبار.

أكبر: خبر صدّ، مرفوع بالضمة الظاهرة على آخره.

عند الله: عند: ظرف مكان متعلق بأكبر، وهو مضاف، لفظ الجلالة

مضاف إليه.

والفتنة أشد: الواو: حرف عطف.

الفتنة : مبتدأ مرفوع وعلامة رفعه الضمة الظاهرة على آخره .
 أكبر : خبر مرفوع بالضمة الظاهرة على آخره .
 وقد تكرر لفظ (أكبر) في الآية مرتين بذات الإعراب والحركة التي
 على آخره .

من القتل : جار ومجرور متعلق بأكبر الأخير أعلاه .
 ولا يزالون : الواو للإستئناف .

لا : نافية . يزالون : فعل مضارع ناقص مرفوع وعلامة رفعه ثبوت
 النون ، واو الجماعة في لا يزالون : اسم لا يزالون .
 يقاتلونكم : فعل مضارع مرفوع بثبوت النون .
 والواو : فاعل .

و(كم) ضمير متصل مفعول به .
 والجملة الفعلية خبر لا يزالون .

حتى يردوكم : حتى : حرف غاية وجر او للتعليل، يردوكم: فعل
 مضارع منصوب بأن مضمرة بعد حتى ، وعلامة نصبه حذف النون ،
 وواو الجماعة فاعل ، و(كم) ضمير متصل مفعول به .

عن دينكم : عن : حرف جر ، دين : اسم مجرور وعلامة جره
 الكسرة ، وهو مضاف (كم) ضمير مضاف إليه .

إن : حرف شرط جازم . استطاعوا: فعل ماض في محل جزم
 فعل الشرط، والواو فاعل، وجواب الشرط محذوف دل عليه ما قبله
 أي ﴿يَرُدُّوكُمْ﴾ .

ومن: الواو استئنافية، من: اسم شرط جازم مبتدأ، يرتدد: فعل
 الشرط. منكم : جار ومجرور . عن دينه : عن : حرف جر .
 دين : اسم مجرور وعلامة جره الكسرة تحت آخره ، وهو مضاف
 و(الهاء) ضمير مضاف إليه .

فيمت: الفاء عاطفة، يمت: فعل مضارع مجزوم عطفاً على (يرتدد).
 وهو كافر: واو حالية، ومبتدأ وخبر.
 فأولئك: الفاء رابطة لجواب الشرط، أولئك: اولاء اسم اشارة مبني
 في محل رفع مبتدأ .

الكاف : حرف خطاب

وحبط حبطاً وحبوطاً: عمل عملاً ثم افسده.

اعمالهم : اعمال : فاعل مرفوع وعلامة رفعه الضمة الظاهرة على

آخره ، وهو مضاف ، الضمير (هم) ضمير متصل مضاف إليه .

في الدنيا : في : حرف جر .

الدنيا : اسم مجرور وعلامة جره الكسرة المقدرة على الألف .

والآخرة : الواو : حرف عطف ، الآخرة : اسم مجرور بالكسرة تحت

آخره .

وهو معطوف على الدنيا .

وأولئك : الواو : حرف عطف ، أولئك : اولاء اسم اشارة مبني في

محل رفع مبتدأ .

أصحاب : خبر مرفوع ، وعلامة رفعه الضمة الظاهرة على آخره وهو

مضاف ، النار : مضاف إليه مجرور وعلامة جره الكسرة الظاهرة تحت

آخره .

بحث نحوي

من بلاغة اللغة العربية واسباب الفصاحة فيها تعدد المواضع والوجوه

النحوية للفظ ليكون له بكل وجه معنى معين فتأتي بالبيان والتفصيل

وتمنع من الإجمال اللفظي.

ومن هذه الوجوه البدل الذي يمنع من اللبس والإشتباه لذا عرف في

عبارات النحاة بأنه النافع المقصود بالحكم وهو الذي يرد بنية تكرار

العامل واستئناف جملة، وللبدل اغراض متعددة بحسب اللحاظ والقصد وله شعب عديدة هي:

الأولى : بدل الخطأ: وهو تدارك اللفظ الذي يسبق اليه اللسان بلفظ آخر اوفى واكثر احاطة بالمعنى، كقولك: حصلت على الدواء الحكمة، فقد سبق لسانك الى كلمة الدواء لأن الحكمة شفاء للنفوس ثم اردفت بكلمة الحكمة لمنع اللبس، قال تعالى ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (١).

الثانية : بدل النسيان: وهو الذي يأتي فيه المتكلم بلفظ مقارب للمقصود نسياناً ثم يلتفت ويأتي باللفظ الذي ينطبق على المعنى المطلوب ايصاله الى السامع كما في قولك: اديت الزيارة الحج، فكلمة الزيارة اعم من الحج ولا تفيد ذات المعنى فترددها بكلمة الحج لتمام البيان وتحقيق المعنى عند السامع.

الثالثة : بدل الإضراب وهو الذي يأتي تداركاً وتخفيفاً ويسمى ايضاً بدل البداء، تقول لولدك: اد صلاة الظهر، صلاة العصر، فتذكر صلاة العصر اخباراً عن عدولك عن قولك الأول لأنك التفت الى ادائه لصلاة الظهر، ودخول وقت صلاة العصر، قال تعالى ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ (٢).

والاقسام الثلاثة هذه تسمى البدل المباين لوجود التباين بين طرفيه البدل والمبدل عنه واجماع النحاة على نزاهة وخلو القرآن من اقسام

(١) سورة النحل ١٢٥

(٢) سورة النساء ١٠٣

البدل المباين كما انه لا يقع في كلام البلغاء ولا في الشعر والكلام المعد سلفاً لما فيه من الخطأ والنسيان والتردد.

الرابعة : بدل الإشتمال: وهو نوع من المجاز يحول دون اللبس والوهم عند السامع وكأنه من التخصيص وبيان موضوع الكلام والجهة المطلوبة لمنع العموم وهو يشبه التمييز المحمول ، ولكنه لا يعود منصوباً بل تابعاً في اعرابه لما حل محله في الإسناد، وقد يحول هذا البدل على الفاعل او المفعول به او عن المبتدأ او المجرور او المضاف اليه او تقول: صمت يوم الشك، فتخاف توهم السامع بان صومه وجوباً وبدعة من التشريع المحرم لأنه لم تثبت رؤية الهلال فتقول تداركاً واتماماً للفائدة والمعنى "صمت يوم الشك استحباباً"

وسمي بالإشتمال لأن العلاقة بين البدل والمبدل عنه جاءت على نحو الشمول والإستغراق وان كان بلحاظ جهة معينة ويشترط فيه ان يربط بضمير يعود للمبدل منه.

الخامسة : بدل الجزئية: ويسمى بدل البعض عن الكل وهو كبديل الإشتمال الا انه يختلف ببيان التبويض ومجيء البدل لدفع وهم بان الفعل او الأمر تم على نحو الإطلاق والكل، كقولك "قمت الليل آخره" فحينما تقول قمت الليل يتبادر الى ذهن السامع قيامك الليل كله وانت لم تقصد الا آخره فجئت بالبدل وهم آخره لمنع الإلتباس، ونلاحظ في المثال اضافة آخر ضمير يعود على المبدل منه وهو الليل فقلت "آخره".

السادسة : البدل المطابق: ويسمى ايضاً بدل الكل من الكل لأن طرفي البدل فيه متساويان في المعنى او مترادفان او انهما اسمان لمعنى واحد فيأتي بالبدل للبيان والوضوح والتوكيد فكأنه عطف بيان كما تقول قال ابن عباس عبد الله، فحينما قلت ابن عباس خشيت ان السامع لا يفهم

المعنى فجئت بكلمة اخرى لإفادة المعنى ومنع اللبس والوهم، وفي التنزيل ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾^(١).

وجاء لفظ قتال بدلاً عن المجرور وإفادة استيعاب جواز القتال والإذن فيه طيلة الشهر الحرام كله وليس بعضاً منه.

فالمدار على اجتماع شرائط واسباب هذا القتال ، ومنها صبغة الدفاع ، فهذا البديل منع للبس والوهم وطرد للحيرة والتردد فقد يتوقع بعضهم ان مدار الآية على اسباب النزول او انها خاصة بشهر رجب دون غيره من الأشهر الحرم فجاء بدل الإشتمال لإفادة لغة العموم.

في سياق الآيات

بعد السؤال عن كيفية وموضوع الإنفاق وبيان فرض الجهاد، جاءت هذه الآية متضمنة للسؤال عن شطر من احكام الدفاع يتعلق بزمان ومكان مخصوصين للقتال.

وفي صلة آية البحث بالآيات المجاورة وجوه :

الوجه الأول : صلة هذه الآية بالآية السابقة ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ

وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٢)، وفيه مسائل :

المسألة الأولى : ابتدأت كل من الآيتين بصيغة الجملة الخبرية ، ولكنها

تنتقل إلى صيغة الجملة الإنشائية ، وفيه وجوه :

أولاً : بيان تفضل الله عز وجل على المسلمين في تعدد صيغ ومضامين

الآية القرآنية.

(١) سورة المائدة ٩٧

(٢) سورة البقرة ٢١٦.

ثانياً : بلوغ المسلمين مراتب الفقاهاة ، و(عن أبي أمامة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : إن لقمان قال لابنه : يا بني عليك بمجالسة العلماء ، واسمع كلام الحكماء ، فإن الله يحبي القلب الميت بنور الحكمة كما تحيا الأرض الميتة بوابل المطر .

وأخرج البخاري ومسلم والنسائي وابن ماجة عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : لا حسد إلا في اثنتين : رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الحق ، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها .

وأخرج البيهقي في الشعب عن يزيد بن الأخنس أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : لا تنافس إلا في اثنتين : رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل والنهار ويتبع ما فيه ، فيقول رجل : لو أن الله أعطاني ما أعطى فلاناً فأقوم به كما يقوم به ، ورجل أعطاه الله مالاً فهو ينفق منه ويتصدق به ، فيقول رجل : لو أن الله أعطاني كما أعطى فلاناً فأتصدق به .

قال رجل : رأيته النجدة تكون في الرجل؟

قال : ليست لهما بعدل ، إن الكلب يهم من وراء أهله .^(١)

ثالثاً : تلقي الأحكام بالإصغاء والتدبر ، وهو من مصاديق قوله

تعالى ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(٢) .

وهل هو من الإلتفات وفق الإصطلاح البلاغي الجواب لا .

(١) الدر المنثور ٢/٢٠٨ .

(٢) سورة آل عمران ١١٠ .

الثانية : إتحاد موضوع الآيتين ، وكل واحدة منهما تتعلق بالدفاع عن النبوة والتنزيل ، مما يدل على موضوعيته ولزوم إحاطة المسلمين علماً بمسائله ، والتنزه عن النفاق والحذر من المنافقين ، وكفار قريش.

الثالثة : آية البحث والسياق مجتمعين ومتفرقتين حرب على النفاق وزجر وتوبيخ للمنافقين الذين ذكرهم الله عز وجل بالذم كما في قوله تعالى ﴿ الَّذِينَ قَالُوا لِلْإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قَاتَلُوا قُلُودَ فَادِرُوعًا عَنِ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾^(١).

ومن إعجاز القرآن أنه يأتي بالأمر ويحذر من الموانع المحتملة دون العمل به ، وينهى عن الشيء وينبه إلى لزوم التقيد به ، والإمتناع عن إتيان ما نهى عنه ، وأمر الله عز وجل بطاعة الرسول قال سبحانه ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾^(٢).

الرابعة : من معاني الجمع بين الآيتين كتابة الدفاع على المهاجرين والأنصار في الشهر الحرام عندما يكون دفاعاً .
وسمي الشهر الحرام لحرمة القتال فيه ، وكذا كان يسمى في الجاهلية ليكون قوله تعالى ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ ﴾^(٣) أمراً جلياً وواضحاً عند المسلمين وعموم الناس .

تقيد العرب بجرمة القتال في الأشهر الحرم إنما هو من بقايا حنيفية إبراهيم وأن للبيت الحرام فيه موضوعية ، إذ تحتاج القبائل الحج إليه والطواف حوله في موسم الحج ، فتعاهدوا الأشهر الحرم ، لذا يمكن أن يكون معنى وعلة الشهر الحرم أعم من أن تختص بذات الأشهر تشمل

(١) سورة آل عمران ١٦٨.

(٢) سورة الحشر ٧.

(٣) سورة البقرة ٢١٧.

قدسية موضوعية البيت والحج إليه في هذه التسمية ، وهو من مصاديق قوله تعالى في خطاب إلى ابراهيم ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾^(١) ، ومن الآيات في البيت الحرام أن الله عز وجل جعله للناس جميعاً في أجيالهم الزمانية ، قال سبحانه ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾^(٢).

ومن إعجاز القرآن التوثيق السماوي للوقائع وبيان الحقائق وتثبيت القوانين سواء التي تترشح عن الإرادة التكوينية أو التشريعية ، ومنها إخباره عن كون الأشهر الحرم تشريع من عند الله تعالى إذ قال ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ...﴾^(٣).

وهل من موضوعية للأشهر الحرم في قيام النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالتبليغ وإقامة صرح دولة الإسلام ، الجواب نعم ، ولولا هذه الأشهر لإجتهد الذين كفروا في منع النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم عن إتصاله بالقبائل في موسم الحج ، ولعزموا على قتله ولغزو المدينة حتى في الأشهر الحرم ، والإجهاز عليه وعلى أصحابه عند خروجهم معتمرين في صلح الحديبية ، وإن كان الأصل هو أن الله عز وجل يحفظه في كل الأحوال ، لإتمام تبليغ الرسالة ، قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾^(٤).

(١) سورة الحج ٢٧.

(٢) سورة آل عمران ٩٦.

(٣) سورة التوبة ٣٦.

(٤) سورة المائدة ٦٧.

الخامسة : تقدير الجمع بين الآيتين : كتب عليكم القتال دفاعاً حتى في الشهر الحرام) من خصال الذين كفروا الغدر والخيانة والغش ، وجاءت كل من آية البحث والسياق لقطع الطريق عليهم ، وزجرهم عن المكر والحيلة والإجهاز على المسلمين في الشهر الحرام ، وكأن كلاً من آية البحث والسياق تقول للمسلمين لا تلقوا أسلحتكم في الشهر الحرام ، فقد يباغتمكم الذين كفروا ، وفي التنزيل ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَقَفَلْنَا عَنْكُمْ لَإِذْ كَفَرْتُمْ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ فَسَلَوْنَ كَيْدَهُمْ فَوَقَفُوا بِأَنفُسِهِمْ فَوُجِدُوا فِي الْعُدُوِّ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَقَفَلْنَا عَنْكُمْ لَإِذْ كَفَرْتُمْ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ فَسَلَوْنَ كَيْدَهُمْ فَوَقَفُوا بِأَنفُسِهِمْ فَوُجِدُوا فِي الْعُدُوِّ﴾ (١).

وصحيح أن الآية أعلاه نزلت في تشريع صلاة الخوف في يوم ذات الرقاع ، وكان المشركون قد رأوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم صلى بأصحابه صلاة الظهر فندموا لأنهم لم يجهزوا عليهم ، فقال بعضهم عندهم صلاة أحب من هذه إليهم وهي صلاة العصر فعزم المشركون على الهجوم على النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه عند إقامتها فنزل جبرئيل بصلاة الخوف ، و(عن جابر قال : كنت مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، فلقينا المشركين بنخل فكانوا بيننا وبين القبلة ، فلما حضرت صلاة الظهر صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ونحن جميع ، فلما فرغنا تأمر المشركون فقالوا لو كنا حملنا عليهم وهم يصلون فقال بعضهم : فإن لهم صلاة ينتظرونها تأتي الآن ، وهي أحب إليهم من أبناءهم ، فإذا صلوا فمیلوا عليهم .

فجاء جبريل إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالخبر وعلمه كيف يصلي ، فلما حضرت العصر قام نبي الله صلى الله عليه وآله وسلم مما يلي العدو ، وقمنا خلفه صفين ، وكبر نبي الله صلى الله عليه وآله وسلم وكبرنا جميعاً) (٢).

(١) سورة النساء ١٠٢.

(٢) الدر المنثور ٣/٢٢٩.

ووقعت معركة ذات الرقاع في السنة الرابعة للهجرة أي بعد معركة أحد بنحو سنة .

ووقعت المعركة مع بني ثعلبة من قبيلة غطفان وهي أكثر القبائل إعانة لكفار قريش في حربهم على الإسلام ، وسبب التسمية هو قيام المسلمين بوضع الخرق والرقاع على الشقوق والجروح في أقدامهم بسبب وعورة الأرض وقلة الرواحل التي معهم ، إذ كان كل ستة أو سبعة أو ثمانية منهم يتناوبون على بعير أو راحلة واحدة .

السادسة : لقد ذكر لفظ القتال في آية السياق ، وتكرر لفظ (قتال) من غير تعريف مرتين في آية البحث لتكون هاتان الآيتان من آيات الدفاع ، ومن الإعجاز إبتداء آية السياق بقوله تعالى ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ^(١) ، أي فرض عليكم الدفاع ، وفيه شاهد بأن قتال المسلمين للدفاع وليس للهجوم والغزو .

ومن الإعجاز إفادة الجمع بين الآيتين وقوع القتال بين المسلمين والذين كفروا ، بقيام المشركين بالغزو .

ففي شهر رمضان من السنة الثانية للهجرة وقعت معركة بدر إذ خرج النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه وعددهم ثلاثمائة وثلاثة عشر في كتيبة استطاع كما بلغهم نبأ قافلة قريش برئاسة أبي سفيان وكانت تتألف من ألف بعير قادمة من الشام متوجه إلى مكة ومحملة بالبضائع والذهب تعود لأشخاص متعددين من قريش .

ولم يخرج النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه للقتال بدليل قوله تعالى ﴿وَتَوَدُّونَ أَنْ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَ تَكُونَ لَكُمْ...﴾^(١)، ولا دليل على إرادتهم الإستيلاء على قافلة أبي سفيان وإن كان هذا المعنى شائعاً ومكرراً في كتب المؤرخين ، خاصة مع استحواذ الكفار في مكة على أملاك المسلمين الذين هاجروا إلى المدينة .

وكان أبو سفيان يتجسس الأخبار ويسأل الركبان عن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه ، وعندما علم بخروجهم من المدينة قام بأمرين :

الأول : الإرسال إلى قريش لإستنفارهم إلى أموالهم إذ استأجر شخصاً اسمه ضمضم بن عمرو وبعثه إلى مكة وأمره أن يسرع ويجهد السير ، ويخبرهم بأن محمداً قد عرض للقافلة وأصحابه .

الثاني : تغيير مسار القافلة والإتجاه إلى ساحل البحر الأحمر .

وخرج المشركون مسرعين ومعهم القيان والدفوف يريدون القتال وتوجهوا إلى بدر قريباً من الموضع الذي أرسل منه أبو سفيان الخبر منه .
(قال ابن إسحاق : وحدثني يزيد بن زياد ، عن محمد بن كعب القرظي ، قال حدثت أن عتبة بن ربيعة - وكان سيّداً - قال يوماً وهو جالس في نادي قريش ورسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - جالس في المسجد وحده يا معشر قريش ، ألا أقوم إلى محمد فأكلمه شاء وكيف عنا ؟ وذلك حين أسلم حمزة ، ورأوا أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - يزيدون ويكثرُونَ .

فقالوا : بلى يا أبا الوليد قم إليه فكلمه فقام إليه عتبة حتى جلس إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال يا ابن أخي ، إنك منا حيث

قَدْ عَلِمْتَ مِنَ السُّلْطَةِ^(١)، فِي الْعَشِيرَةِ وَالْمَكَانِ فِي النَّسَبِ وَإِنَّكَ قَدْ أَتَيْتَ قَوْمَكَ بِأَمْرٍ عَظِيمٍ فَفَرَّقْتَ بِهِ جَمَاعَتَهُمْ وَسَفَّهْتَ بِهِ أَحْلَامَهُمْ وَعَبْتِ بِهِ آلِهَتَهُمْ وَدِينَهُمْ وَكَفَرْتَ بِهِ مِنْ مَضَى مِنْ آبَائِهِمْ فَاسْمَعْ مِنِّي أَعْرِضْ عَلَيْكَ أُمُورًا تَنْظُرُ فِيهَا لَعَلَّكَ تَقْبَلُ مِنْهَا بَعْضَهَا قَالَ .

فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ : قُلْ يَا أَبَا الْوَلِيدِ أَسْمِعْ قَالَ يَا ابْنَ أَخِي إِنْ كُنْتَ إِنَّمَا تُرِيدُ بِمَا جِئْتَ بِهِ مِنْ هَذَا الْأَمْرِ مَالًا ، جَمَعْنَا لَكَ مِنْ أَمْوَالِنَا ، حَتَّى تَكُونَ أَكْثَرَنَا مَالًا .

وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ بِهِ شَرْفًا سَوَدْنَاكَ عَلَيْنَا ، حَتَّى لَا تَقْطَعَ أَمْرًا دُونَكَ .
وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ بِهِ مُلْكًا مَلَكَانَا عَلَيْنَا ، وَإِنْ كَانَ هَذَا الَّذِي يَأْتِيكَ رِثِيًّا تَرَاهُ لَا تَسْتَطِيعُ رَدَّهُ عَنْ نَفْسِكَ ، طَلَبْنَا لَكَ الطَّبَّ ، وَبَدَلْنَا فِيهِ أَمْوَالِنَا حَتَّى نُبْرِثَكَ مِنْهُ .

فَإِنَّهُ رَبَّمَا غَلَبَ التَّابِعُ عَلَى الرَّجُلِ حَتَّى يُدَاوِيَ مِنْهُ أَوْ كَمَا قَالَ لَهُ .
حَتَّى إِذَا فَرَّغَ عُبَيْةٌ وَرَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَسْتَمِعُ مِنْهُ
قَالَ أَقَدْ فَرَّغْتَ يَا أَبَا الْوَلِيدِ ؟

قَالَ نَعَمْ .

قَالَ " فَاسْمَعْ مِنِّي " ، قَالَ أَفْعَلُ .

فَقَالَ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿حَم تَنْزِيلٍ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
كِتَابٍ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ
فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾^(٢) .

ثُمَّ مَضَى رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِيهَا يَقْرؤها عَلَيْهِ فَلَمَّا
سَمِعَهَا مِنْهُ عُبَيْةٌ أَنْصَتَ لَهَا ، وَأَلْقَى يَدَيْهِ خَلْفَ ظَهْرِهِ مُعْتَمِدًا عَلَيْهِمَا ،
يَسْمَعُ مِنْهُ ثُمَّ انْتَهَى رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إِلَى السَّجْدَةِ

(١) أي في السلطة ، .

(٢) سورة فُصِّلَتْ ١-٥ .

مِنْهَا ، عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالذِّينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ﴾ (١).

فَسَجَدَ ثُمَّ قَالَ قَدْ سَمِعْتُ يَا أَبَا الْوَلِيدِ مَا سَمِعْتُ ، فَأَنْتَ وَذَلِكَ .
فَقَامَ عْتَبَةَ إِلَى أَصْحَابِهِ فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ نَحْلَفُ بِاللَّهِ لَقَدْ جَاءَكُمْ
أَبُو الْوَلِيدِ بِغَيْرِ الْوَجْهِ الَّذِي ذَهَبَ بِهِ . فَلَمَّا جَلَسَ إِلَيْهِمْ قَالُوا : مَا وَرَاءَكَ
يَا أَبَا الْوَلِيدِ ؟

قَالَ وَرَائِي أَنِّي قَدْ سَمِعْتُ قَوْلًا وَاللَّهِ مَا سَمِعْتُ مِثْلَهُ قَطُّ .
وَاللَّهِ مَا هُوَ بِالشَّعْرِ وَلَا بِالسَّحْرِ وَلَا بِالْكَهَانَةِ .

يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ أَطِيعُونِي وَاجْعَلُونِي بِي ، وَخَلُّوا بَيْنَ هَذَا الرَّجُلِ وَبَيْنَ
مَا هُوَ فِيهِ فَاعْتَزَلُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ لَيَكُونَنَّ لِقَوْلِهِ الَّذِي سَمِعْتُ مِنْهُ نَبَأٌ عَظِيمٌ فَإِنِ
تُصِبَهُ الْعَرَبُ فَقَدْ كَفَيْتُمُوهُ بِغَيْرِكُمْ وَإِنِ يَظْهَرِ عَلَى الْعَرَبِ ، فَمَلِكُهُ مَلِكُكُمْ
وَعِزُّهُ عِزُّكُمْ وَكُنْتُمْ أَسْعَدَ النَّاسِ بِهِ قَالُوا : سَحَرَكِ وَاللَّهِ يَا أَبَا الْوَلِيدِ بِلِسَانِهِ
قَالَ هَذَا رَأَيْي فِيهِ فَاصْنَعُوا مَا بَدَأَ لَكُمْ (٢).

(قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ فَأَخْبَرَنِي مَنْ لَا أَتُهُمْ عَنْ عِكْرَمَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ
وَيَزِيدَ بْنِ رُومَانَ عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ قَالَا : وَقَدْ رَأَتْ عَاتِكَةَ بِنْتَ عَبْدِ
الْمُطَّلِبِ قَبْلَ قُدُومِ ضَمْضَمٍ (٣) ، مَكَّةَ بِثَلَاثِ لَيَالٍ رُؤْيَا أَفْرَعَتْهَا .

فَبَعَثَتْ إِلَى أَخِيهَا الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَقَالَتْ لَهُ يَا أَخِي .
وَاللَّهِ لَقَدْ رَأَيْتِ اللَّيْلَةَ رُؤْيَا أَفْطَعْتَنِي ، وَتَخَوَّفْتُ أَنْ يَدْخُلَ عَلَيَّ
قَوْمُكَ مِنْهَا شَرًّا وَمُصِيبَةً فَارْتَمَيْتُ عَنِّي مَا أَحَدَّثَكَ بِهِ فَقَالَ لَهَا : وَمَا رَأَيْتِ ؟
قَالَتْ رَأَيْتِ أَقْبَلَ عَلَيَّ بِعَيْرٍ لَهُ حَتَّى وَقَفَ بِالْأَبْطَحِ ثُمَّ صَرَخَ بِأَعْلَى صَوْتِهِ

(١) سورة فصلت ٣٨ .

(٢) الروض الأنف ٤٦/٢ .

(٣) أي رسول أبي سفيان إلى قريش يستنفرهم .

أَلَا انْفِرُوا يَا آلَ غَدْرٍ لِمَصَارِعِكُمْ فِي ثَلَاثِ فَاَرَى النَّاسَ اجْتَمَعُوا إِلَيْهِ ثُمَّ دَخَلَ الْمَسْجِدَ وَالنَّاسُ يَتَّبِعُونَهُ فَبَيْنَمَا هُمْ حَوْلَهُ مِثْلَ بِهِ بَعِيرُهُ عَلَى ظَهْرِ الْكَعْبَةِ ثُمَّ صَرَخَ بِمِثْلِهَا : أَلَا انْفِرُوا يَا آلَ غَدْرٍ لِمَصَارِعِكُمْ فِي ثَلَاثِ ثُمَّ مِثْلَ بِهِ بَعِيرُهُ عَلَى رَأْسِ أَبِي قَيْسٍ فَصَرَخَ بِمِثْلِهَا . ثُمَّ أَخَذَ صَخْرَةً فَأَرْسَلَهَا فَأَقْبَلَتْ تَهْوِي ، حَتَّى إِذَا كَانَتْ بِأَسْفَلَ الْجَبَلِ ارْفَضَتْ فَمَا بَقِيَ بَيْتٌ مِنْ بُيُوتِ مَكَّةَ وَلَا دَارٌ إِلَّا دَخَلَتْهَا مِنْهَا فَلَقَّةٌ قَالَ الْعَبَّاسُ وَاللَّهِ إِنَّ هَذِهِ لَرُؤْيَا ، وَأَنْتَ فَآكُتْمِيهَا ، وَلَا تَذْكُرِيهَا لِأَحَدٍ .

ذُبُوعُ الرُّؤْيَا وَمَا أَحْدَثَتْ بَيْنَ أَبِي جَهْلٍ وَالْعَبَّاسِ (١) .

ويدل قوله تعالى ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ ﴾ (٢) ، على أن قتال المسلمين للدفاع وليس للهجوم والغزو وهو الذي تدل عليه الشواهد كما في معركة بدر ومعركة أحد والخندق .

وهل قوله تعالى ﴿ كُتِبَ ﴾ في آية البحث مثل لفظ ﴿ كُتِبَ ﴾ في قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَكُمْ تَقْوَى ﴾ (٣) .

المختار أن النسبة بينهما هي العموم والخصوص من وجه ، فمادة الإلتقاء هو الفرض واللزوم ومادة الإفتراق أن الصيام عبادة بدنية تكرر كل سنة في شهر وأيام مخصوصة ، والقتال نتيجة تعدي وظلم الذين كفروا لذا أخبرت الآية عن كون القتال كره للمسلمين ، أما الصيام فهو عيد

(١) الروض الأنف ٤٩/٢ .

(٢) سورة البقرة ٢١٦ .

(٣) سورة البقرة ١٨٣ .

عبادي ويسر لقوله تعالى ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (١).

لقد أراد الله عز وجل للمسلمين أن يأخذوا حذرهم ، قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَاتِرُوا بُنَاتٍ أَوْ انْفِرُوا جَمِيعًا﴾ (٢).

إعجاز الآية الذاتي

اقبال المسلمين على التوجه للنبي صلى الله عليه وآله وسلم بالسؤال عن احكام القتال مانع للزلل والخطأ، كما تدل الآية بالدلالة التضمنية على استجابة المسلمين للأمر بالجهاد، وتفضح الكفار وسوء نواياهم وشدة عدائهم للمسلمين، وفي الآية تحذير وتنبية للمسلمين واطشارة لقدسية الشهر الحرام، وبيان للإستثناء واحكام الضرورة بخصوصه.

إبتدأت آية البحث بالإخبار عن سؤال المسلمين وغيرهم للنبي محمد مع بيان موضوع السؤال.

وكان العرب في الجاهلية يتخذون النسئ في حساب الأشهر لموافقة موسم الحج والأشهر الحرام أياماً يعتدل فيها المناخ لتزدهر النجاة في أسواق العرب التي تقوم هناك في موسم الحج خاصة ويمكن تسميتها بأنها أسواق موسمية مقرونة بعبادة مخصوصة ومنها :

الأول : سوق عكاظ .

الثاني : سوق ذي المجاز .

الثالث : سوق مجنة .

الرابع : سوق دومة الجندل .

الخامس : سوق مكة .

(١) سورة البقرة ١٨٥.

(٢) سورة النساء ٧١.

السادس : سوق عدن .

السابع : سوق حضرموت .

الثامن : سوق صنعاء .

التاسع : سوق هجر .

العاشر : سوق بصرى .

وهذه الأسواق من الكلي المشكك إذ تتابن في البضائع والسلع المعروضة فيها وروادها ، فمنها ما تختص بالمجاورين لها من أهل القرى أو البلد ، ومنها ما يكون عاماً وأعظم هذه الأسواق عكاظ ، ثم سوق ذي المجاز وسوق مجنة .

وسوق عكاظ قريب من الطائف ويعرض فيه التمر والسمن والعسل والخمر والثياب والأبل والسيوف والدروع .

ويستمر عشرين يوماً من صباح هلال ذي القعدة وهو أول يوم من أيام الأشهر الحرم الثلاثة المتصلة ذي القعدة ، ذي الحجة ، محرم ، ويستمر عشرين يوماً حيث يلقي الشعراء قصائدهم ويقوم الخطباء ، ويكثر فيه التفاخر بالأنساب والآباء وحضوره مقدمة ونوع طريق لأداء الحج ، وربما وقعت حروب بسبب المدح أو الهجاء الذي يقال في هذه السوق كما في حرب الفجار ، وقد يأتي الرجل إلى هذا السوق ليعرض بناته للزواج وقيل هدم الإسلام هذه السوق .

وبه قال الخليل بن أحمد الفراهيدي وابن منظور صاحب لسان العرب .

ولا دليل على أن الإسلام هدمه ، إنما استمر لسنوات في الإسلام ثم تغشت مبادئ الإسلام والأخوة الإيمانية المسلمين ، ومالوا إلى الأسواق المستقرة والثابتة في مكة والمدينة ، قال تعالى ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾^(١) .

(١) سورة الحجرات ١٠ .

في الآية حفظ تاريخي للإسلام ولا يستطيع أحد إحصاء منافع هذه الآية في تثبيت الإسلام وتعاهد احكامه وتوارث قيمه.

من إعجاز الآية تفقه المسلمين في الدين وتسليمهم بلزوم الصدور عن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في أمور القتال والحرب، وأخذ الحيلة من الذين كفروا، وما يتصفون به من الغدر وإحتمال الهجوم على المسلمين في الشهر الحرام، وهو الذي تدل عليه الآية الكريمة وما فيها من التنبيه والتحذير بقوله تعالى ﴿قُلْ قَاتِلْ فِيهِ كَيْدٌ وَصَدُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾^(١)، أي إن قتلتم شخصاً من المشركين بالشهر الحرام فإنهم صدوكم عن العبادة والدعوة إلى الله، ومنعوكم من المسجد الحرام، ونصبوا الأصنام في البيت لتكون آية البحث من مصاديق قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾^(٢).

ومن إعجاز الآية إخبارها عن إصرار الذين كفروا على قتال المسلمين وسعيهم لإرتدادهم عن الإسلام ورجوعهم إلى مستنقع الكفر والضلالة. وهل يدل بالدلالة التضمنية على عزم الذين كفروا على قتل النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، الجواب نعم خاصة وأن الآية بصيغة الخطاب للمسلمين على نحو العموم المجموعي، وهل تشمل الآية تحذير المسلمات، وتقدير الآية: ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم أن استطاعوا، الجواب نعم، وقد سعت قريش في إعادة بعض المؤمنات المهاجرات إلى مكة ولكن النبي صلى الله عليه وآله وسلم إمتنع عن تسليمهن كما في أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط والتي هاجرت بعد صلح الحديبية إلى المدينة.

(١) سورة البقرة ٢١٧.

(٢) سورة الحج ٣٨.

فخرج أخوها عمارة والوليد ابناء عقبة في طلبها للشرط الذي بين النبي صلى الله عليه وآله وسلم وبين المشركين بإعادة من هاجر إلى المدينة ، ولكن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أبى عليهم لان الشرط بخصوص الرجال وقد نزل قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ ۗ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ ۗ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ ۗ فَإِنْ عَلَّمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَأَهُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۗ وَأَتَوْهُنَّ مَا أَنْقَتُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ ۗ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكُفَّارِ ۗ وَأَسْأَلُوا مَا أَنْقَتُمْ ۗ وَلَيْسَ لَكُمْ أَنْقَتُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ .

وقيل هو من تخصيص السنة بالقرآن وهو امر نادر ، أي أن السنة هي شرط النبي صلى الله عليه وآله وسلم للمشركين في صلح الحديبية بإعادة الذي يأتي مسلماً من المدينة ، فخصصت الآية الإعادة بالرجال دون النساء .

وتزوجت من زيد بن حارثة ، وعندما استشهد تزوجت الزبير ، ثم ألحت عليه بطلب الطلاق ولو تطليقة واحدة وكانت حاملاً فطلقها وخرج إلى المسجد ، على أمل أن يرجع بها في العدة ، وعندما رجع وجدها قد وضعت حملها ، فأتى النبي صلى الله عليه وآله وسلم وذكر له ما حدث فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : بلغ الكتاب أجله ، فاخطبها .

وعن عمرو بن ميمون عم أبيه (قال: كانت أم كلثوم بنت عقبة تحت الزبير وكان فيه شدة على النساء وكانت له كارهة فكانت تسأله الطلاق فيأبى عليها حتى ضربها الطلق وهو لا يعلم فألحت عليه وهو يتوضأ

للصلاة فطلقها تطليقة ثم خرجت فوضعت فأدركه إنسانٌ من أهلها فأخبره أنها قد وضعت فقال: خدعتني خدعها الله! فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له فقال: " قد سبق فيها كتاب الله فاخطبها " فقال: لا ترجع أبداً^(١). وسيأتي ذكر لهذا الموضوع في الجزء الثالث بعد المائتين من هذا التفسير .

وأختتمت آية البحث ببيان حكم من الإرادة التكوينية وهو حرمة الإرتداد، وسوء عاقبته.

ويمكن تسمية الآية آية (سَأَلْنَاكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ) ولم يرد هذا اللفظ في القرآن إلا في آية البحث ، وورد فيها لفظ (قَالَ فِيهِ) مرتين ولم يرد في آية أخرى من القرآن .

ومن إعجاز الآية مجئ قوله تعالى ﴿وَمَنْ يُرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾^(٢) وفيه مسائل :
الأولى : صيغة الجملة الشرطية ﴿وَمَنْ يُرْتَدُّ﴾ .

الثانية : ذكر الدين وإرادة الإسلام وعدم حصر الأمر بالإيمان ، وبين الإسلام والإيمان عموم وخصوص مطلق لإرادة النطق بالشهادتين ، وعدم الجحود بالنبوة والتنزيل .

الثالثة : مدار الدم على الموت على الكفر ، ومغادرة الدنيا على حال منع من الإرتداد ، وحث على التوبة والإنابة ، وفي التنزيل ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾^(٣).

(١) الإصابة في معرفة الصحابة ٥٠٠/٣ .

(٢) سورة البقرة ٢١٧ .

(٣) سورة البقرة ٢٢٢ .

الرابعة : ذكر المرتدين بصيغة البعد باسم الإشارة ﴿أُولَئِكَ﴾ ليدل بالدلالة الإلزامية على سلامة المسلمين من الإرتداد ، وأن أهل النار غيرهم ، ليكون من معاني الآية البشارة للمسلمين والمسلمات بسلامتهم من الإرتداد .

إعجاز الآية الغيري

لقد ابتدأت آية البحث بالخطاب للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بما يفيد الحصر والتعيين (يسألونك) وفيه دلالة على إحصار إنتظارهم الجواب بالرسول صلى الله عليه وآله وسلم هو من مصاديق قوله تعالى ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾^(١)، وانتقلت الآية إلى الأمر إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بأن يخبر المسلمين بالإجابة عن سؤالهم بما يكون منهاجاً، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾^(٢).

وهو من أسرار تلاوة كل مسلم ومسلمة على نحو الوجوب العيني لسورة الفاتحة في الصلاة عدة مرات في اليوم. وتبعث مضامين آية البحث الفزع والخوف في قلوب الذين كفروا من جهات :

الأولى : رجوع المسلمين إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بخصوص الدفاع .

الثانية : دلالة الآية على طرد الغفلة عن المسلمين ، وعن (عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في قوله { ولا تكن من

(١) سورة النجم ٣-٤.

(٢) سورة الفاتحة ٦.

الغافلين} (١) قال : ذاكراً لله في الغافلين كالمقاتل عن الفارين (٢).

الثالثة : منع الاختلاف بين المسلمين ، اذ أنهم يرجعون إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم في المهمات ، ويفضل الله عز وجل ويتولى الإجابة على استئلتهم بما يقطع ويمنع أي خلاف بينهم .

الرابعة : مبادرة المسلمين إلى تلاوة آية البحث والتدبر بنزول الجواب من عند الله عز وجل .

الخامسة : آية البحث مدد للمسلمين ، وعون لهم وبشارة النصر في معركة بدر لذا تفضل الله عز وجل وأنزل الملائكة لنصرة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمؤمنين ، قال تعالى ﴿ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آفَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ ﴾ (٣).

ومن معاني المدد للمسلمين في آية البحث أنها مناسبة لتفقههم في الدين ، وبعثهم على اليقظة والاحتراز ، قال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا بَأْسَاتِ أَوْ اَنْفِرُوا جَمِيعًا ﴾ (٤).

وتبعث آية البحث المسلمين على الصبر ، وتحمل الأذى وإختيار الهجرة للسلامة في الدين وإجتناّب القتال ، وتدعو المسلمين إلى التعاون فيما بينهم ، لذا قام النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار ، ولايعني هذا أن كل مهاجر يواخي أنصارياً

(١) سورة الأعراف ٢٠٥.

(٢) الدر المنثور ٤٠١/٤.

(٣) سورة آل عمران ١٢٤.

(٤) سورة النساء ٧١.

وبالعكس ، فقد يؤاخي المهاجر مهاجراً ، والأنصاري أنصاريّاً ، قال تعالى ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾^(١).

ومن الآيات وقوع هذه المؤاخاة في بدايات هجرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى المدينة ، وبعد خمسة أشهر من وصوله إليها لبعث الألفة والمودة بين المسلمين ، ومنع أثر الغربة وإزاحة الوحشة عنهم .
وقد آخى النبي صلى الله عليه وآله وسلم بينه وبين الامام علي عليه السلام ، ومنها المؤاخاة : (أبو بكر الصديق وخارجه بن زيد بن أبي زهير الأنصاري .

عمر بن الخطاب وعثمان بن مالك الأنصاري .
جعفر بن أبي طالب ومعاذ بن جبل الأنصاري .
حمزة ابن عبد المطلب وزيد بن حارثة الأنصاري وكلاهما من المهاجرين .

أبو عبيدة الجراح وسعد بن معاذ الأنصاري .
عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع الأنصاري .
الزبير بن العوام وسلمة بن سلامة الأنصاري .
طلحة بن عبيد الله وكعب بن مالك الأنصاري .
عثمان بن عفان وأوس بن ثابت الأنصاري .
سعيد بن زيد وأبي بن كعب الأنصاري مصعب بن عمير وأبو أيوب الأنصاري .

أبو حذيفة بن عتبة وعباد بن بشر الأنصاري .
عمار بن ياسر وحذيفة بن اليمان العنسي الأنصاري .
حاطب بن أبي بلتعة وعوين بن ساعدة الأنصاري .
سلمان الفارسي وأبو الدرداء الأنصاري .

(١) سورة الحجرات ١٠.

- أبو ذر الغفاري والمنذر بن عمرو الأنصاري .
 أبو سبرة بن أبي رهم وسلامة بن وقش الأنصاري .
 خباب بن الأرت ومولى عتبة بن غزوان تميم مولى خراش بن الصمة .
 . (وقيل بين خباب بن الأرت وبين جبير بن عتيك) (١) .
 صفوان بن وهب ورابع بن العجلان .
 صهيب بن سنان والحارث بن الصمة .
 عبد الله بن مخزومة وفروة بن عمرو بن ورقة .
 مسعود بن ربيعة وعبيد بن التيهان .
 معمر بن الحارث بن معمر ومعاذ بن عفراء .
 واقد بن عبد الله بن عبد مناف وبشر بن البراء .
 زيد بن الخطاب ومعن بن عدي .
 الأرقم بن أبي الأرقم وطلحة بن زيد .
 وبين سعد بن أبي وقاص وسعد بن معاذ .
 وبين عمرو بن معاذ ومسعود بن ربيع القاري .
 وبين طلحة بن عبيد الله وأبي بن كعب .
 وبين بلال وأبي زرعة الخثعمي .
 وبين معتب بن حراء الخزاعي وثعلبة بن حاطب .
 (وبين زيد ابن الخطاب ومعن بن عدي قتلا باليمامة وبين واقد بن
 عبد الله التميمي أو حصن حليف بنى عدي وبشر بن البراء بن معرور ♦
 وبين عامر بن ربيعة العنزي حليف الخطاب ويزيد بن المنذر بن سرح ♦
 وبين
 سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل ورافع بن مالك ♦ وبين عاقل بن
 ابي البكير قتل بيدر وبين مبشر بن عبد المنذر قتل بيدر ♦ ويقال بل

(١) الوافي بالوفيات ٤/٣٥٦ .

مجذر بن زياد ♦ وبين عامر بن ابي البكير وزيد بن الدثنة ♦ وبين اياس
ابن ابي البكير والحارث بن خزيمة ♦ وبين عثمان بن مظعون وابي
الهيثم بن التيهان ♦ وبين عبد الله بن مظعون وسهل بن عبيد بن المعلى
وبين السائب بن عثمان وحارثة بن سراقة قتل بيدر ♦ وبين معمر بن
الحارث ومعاذ بن عفراء ♦ وبين خنيس بن حذافة وابي عبس بن جبر ♦
وبين عبد الله بن مخزومة بن عبد العزى بن ابي قيس وفروة بن عمرو ♦
وبين ابي سبرة بن ابي رهم وسلمة بن سلامة ابن وقش ♦ وبين وهب بن
سرح وسويد بن عمرو، قتلا بمؤتة ♦ وبين ابي عبيدة بن الجراح ومحمد
بن مسلمة ♦ وبين صفوان بن بيضاء قتل بيدر ورافع بن المعلى قتل بيدر
وبين سلمان الفارسي وابي الدرداء. (١). (مراجعتي)

وكانوا هؤلاء الأخوة بالإيمان والصحبة يرث كل أخ أخاه إلى أن نزل
قوله تعالى ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ
شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (٢).

وهل قوله تعالى ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قَاتَل فِيهِ كَيْفٌ﴾ (٣)،
آيات السلم أم من آيات الحرب والقتال .

الجواب هو الأول ، فالآية دعوة إلى أخذ الحائطة من الذين كفروا
والحذر منهم حتى في الشهر الحرام من أجل إعلاء كلمة التوحيد ،
وسيادة الأمن في ربوع الجزيرة ، وتهشيم الأصنام ، وصيرورة حج البيت
الحرام عبادة خالصة لوجه الله وسيأتي مزيد كلام في الأجزاء الخاصة

(١) كتاب المحبر (محمد بن حبيب البغدادي ت ٢٤٥) ٧٥/١.

(٢) سورة الأنفال ٧٥.

(٣) سورة البقرة ٢١٣.

بقانون (آيات السلم محكمة غير منسوخة) (١).

الآية سلاح

إبتدأت الآية بقوله تعالى (سَأَلْنَاكَ) وهو سلاح من جهات :

الأولى : توجه السؤال من المسلمين إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وتوثيق السؤال في القرآن .

الثانية : في هذا السؤال تسليم نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم .
الثالثة : دلالة الآية على إكرام الله عز وجل للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بذكر أسئلة المسلمين له ، وتفضل الله بتولي الإجابة بنفسه .

الرابعة : موضوع السؤال مدرسة فقهية إذ يحض الشهر الحرام ، والإقرار بالعام بقسمة السور إلى قسمين :

الأول : الأشهر الحرم .

الثاني : الأشهر الحل .

الخامسة : السؤال عن حرمة القتال في الشهر الحرام ، والرخصة فيه شاهدين على تعيين المسلمين للأشهر الحرم ، وموقفهم بها .

سؤال المسلمين عن القتال في الشهر الحرام على التسالم بحرمته ، ولكن فإذا لو هجم المشركون في الشهر الحرام ، وأرادوا مباغته المسلمين ولو بحجة الثأر لعمر بن الحضرمي ، وإدعاء بأن المسلمين في شهر رجب وهو شهر حرام .

ليكون تقدير الآية : نحن نعلم بجرمة القتال بالشهر الحرام ، ولكن ماذا لو أراد الذين كفروا أحد أمور :
الأول : الإغارة على المدينة .

(١) انظر الجزء الرابع بعد المائتين من هذا السفر .

الثاني : الإعتداء على سرح وأنعام المسلمين في أطراف وحوالي

المدينة ، كما حصل في غارة كرز المحاربي ، وفي قوله تعالى (وَإِذِ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ) (١) الآية.

قال ابن عباس وابن الزبير وابن يسار والسدي : أغار كرز بن جابر القرشي على سرح المدينة حتى بلغ الصفراء فبلغ النبي صلى الله عليه وآله وسلم فركب في أثره فسبقه كرز فرجع النبي صلى الله عليه وآله وسلم فأقام سنة وكان أبو سفيان أقبل من الشام في غير لقريش فيها عمرو بن العاص وعمرو بن هشام ومخرمة بن نوفل الزهري في أربعين راكباً من كبار قريش وفيها تجارة عظيمة وهي اللطيمة حتى إذا كان قريباً من بدر بلغ النبي صلى الله عليه وآله وسلم فندب أصحابه إليهم وأخبرهم بكثرة المال وقلة الجنود فقال : هذه غير قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعل الله عز وجل ينفلكموها فخرجوا لا يريدون إلا أبا سفيان والركب لا يرونها إلا غنيمة لهم وخف بعضهم وثقل بعض.

وذلك أنهم كانوا لم يظنوا أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يلقي حرباً فلما سمع أبو سفيان بمسير النبي صلى الله عليه وآله وسلم استأجر ضمضم بن عمرو الغفاري وبعثه إلى مكة وأمره أن يأتي قريشاً فيستنفرهم ويخبرهم أن محمداً قد عرض لغيرهم وأصحابه. (٢).

ومع أن خيل المشركين برئاسة كرز بن جابر هي التي أغارت على أنعام المسلمين حول المدينة فإن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لم يتصد لقايلة أبي سفيان ، ولو أراد التعدي لها لخرج وأصحابه بالوقت المناسب وأدركها بالوحي وكما يمكن التعدي للقوافل من غير اللجوء إلى

(١) سورة الأنفال .٧.

(٢) الكشف والبيان للثعلبي ١٢/٦.

الوحي ، إذ يعتمد الرجال تتبع الأخبار والرصد ، والكشف في الطريق ، ولكن الوحي هو الذي حال دون تعرض النبي صلى الله عليه وآله وسلم لقافلة أبي سفيان لبيان أنها لم تكن مطلوبة له صلى الله عليه وآله وسلم وسيأتي مزيد الكلام في قانون (لم يغزو النبي "ص" أحداً)^(١).

وترفع الآية الحرج في خصوص الدفاع في الشهر الحرام عند المواجهة والرد على الكفار وتبين ضرر الفتنة وشدة وقعها واثرها، وفيها تثبيت للمسلمين في منازل الإيمان وعدم التفريط بأحكام الشريعة وبالهدوية العقائدية، وهي انذار ووعيد للكافرين.

اسباب النزول

وعن (عن جندب بن عبد الله عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم : أنه بعث رهطاً وبعث عليهم أبا عبيدة بن الجراح ، أو عبيدة بن الحرث ، فلما ذهب لينطلق بكى صباية إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجلس وبعث مكانه عبد الله بن جحش .

وكتب له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كتاباً وأمره أن لا يقرأ الكتاب حتى يبلغ مكان كذا وكذا ، وقال : لا تكرهن أحداً على السير معك من أصحابك ، فلما قرأ الكتاب استرجع^(٢) ، وقال : سمعاً وطاعة لله ولرسوله ، فخبّرهم الخبر وقرأ عليهم الكتاب .

فرجع رجالان ومضى بقيتهم ، فلقوا ابن الحضرمي فقتلوه ، ولم يدروا أن ذلك اليوم من رجب أو جمادى ، فقال المشركون للمسلمين :

قتلتم في الشهر الحرام ، فأنزل الله { يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قَاتَلٍ فِيهِ

(١) انظر الأجزاء ١٥٩-١٦٠-١٦١-١٦٣-١٦٤-١٦٥-١٦٦-١٦٧-١٦٩-١٧١-١٧٢-١٧٣-

١٧٣-١٧٥-١٧٦-١٧٧-١٧٨-١٨٨ .

(٢) أي قال انا لله وانا إليه راجعون.

... { (١) ، الآية . فقال بعضهم إن لم يكونوا أصابوا وزراً فليس لهم

أجر ، فأنزل الله { **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ** } { (٢) .

وأخرج البزار عن ابن عباس في قوله { يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه } قال بعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عبد الله بن فلان في سرية ، فلقوا عمرو بن الحضرمي ببطن نخلة ، فذكر الحديث .
وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : إن المشركين صدوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وردوه عن المسجد الحرام في شهر حرام .

فتح الله على نبيه في شهر حرام من العام المقبل أي في شهر ذي القعدة من السنة الثانية للهجرة ، فعاب المشركون على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم القتال في شهر حرام ، فقال الله { قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله } { (٣) من القتال فيه ، لأن المسلمين يقاتلون دفاعاً .

وأن النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم بعث سرية ، فلقوا عمرو بن الحضرمي وهو مقبل من الطائف في آخر ليلة من جمادى وأول ليلة من رجب ، وأن أصحاب محمد كانوا يظنون أن تلك الليلة من جمادى .

وكانت أول رجب ولم يشعروا ، فقتله رجل منهم وأخذوا ما كان معه ، وأن المشركين أرسلوا يعيرونه بذلك ، فقال الله { **يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ** } وغيره أكبر منه { **وَصَدُّ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ**

(١) سورة البقرة ٢١٧ .

(٢) سورة البقرة ٢١٨ .

(٣) سورة البقرة ٢١٧ .

وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ^(١) .

وإخراج أهل المسجد الحرام منه أكبر من الذي أصاب أصحاب محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، والشرك أشد منه^(٢) .

عن علي بن ابراهيم انه كان سبب نزولها (انه لما هاجر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الى المدينة بعث سرايا الى الطرقات التي تدخل مكة تتعرض لعير قريش حتى بعث عبد الله بن جحش في نفر من اصحابه الى النخلة وهي بستان بني عامر ليأخذوا عيراً لقريش .

ولم يثبت هذا القصد والأخذ ، إنما كانت السرية استطلاعية بدليل لوم النبي صلى الله عليه وآله وسلم لأفرادها على قتل ابن الحضرمي ، وعدم قبوله للخمس الذي خصصوه له منها وقال (قَالَ مَا أَمَرْتُكُمْ بِقِتَالِ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ .)^(٣) ، اقبلت من الطائف، عليها الزبيب والادم والطعام فوافوها وقد نزلت العير وفيهم عمرو بن عبد الله الحضرمي وكان حليفاً لعبة بن ربيعة، فلما نظر الحضرمي وأصحابه الى عبد الله بن جحش واصحابه فزعوا وتهيأوا للحرب وقالوا هؤلاء اصحاب محمد.

وأمر عبد الله بن جحش اصحابه ان ينزلوا ويحلقوا رؤسهم فنزلوا وحلقوا رؤسهم، فقال ابن الحضرمي هؤلاء قوم عباد ليس علينا منهم، فلما اطمأنوا ووضعوا السلاح حمل عليهم عبد الله بن جحش فقتل ابن الحضرمي ، لم يحمل عبد الله بن جحش ، إنما (رَمَى

(١) سورة البقرة ٢١٧ .

(٢) الدر المنثور ٣/٢ .

(٣) ابن هشام/ السيرة النبوية ١/٦٠٣ .

وَأَقْدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ التَّمِيمِيِّ عَمْرُو بْنُ الْحَضْرَمِيِّ بِسَهْمٍ فَقَتَلَهُ (١) . وقتل أصحابه ، لم يقتل أحد في هذه السرية إلا عمرو بن الحضرمي ، واخذوا العير بما فيها وساقوها الى المدينة ، فكان ذلك اول يوم من رجب من اشهر الحرم فعزلوا العير وما كان عليها ولم ينالوا منها شيئاً ، فكتبت قريش الى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم انك استحللت الشهر الحرام وسفكت فيه الدم واخذت المال .

وكثر القول في هذا وجاء أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقالوا: يا رسول الله أيحل القتل في الشهر الحرام؟ فأنزل الله ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ ﴾ قال القتال في الشهر الحرام عظيم ، ولكن الذي فعلت بك قريش يا محمد من الصد عن المسجد الحرام والكفر بالله واخراجك منه اكبر عند الله والفتنة يعني الكفر بالله اكبر من القتل ، ثم انزلت عليه ﴿ الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَنَنْ أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ ﴾ (٢) (٣) .

(١) ابن هشام / السيرة النبوية ١ / ٦٠٣ .

(٢) سورة البقرة ١٩٤ .

(٣) البرهان في تفسير القرآن ١ / ٢١٠ - ٢١١ .

مفهوم الآية

ابتدأت آية البحث بالخطاب للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والإخبار عن سؤال الصحابة له عن الشهر الحرام ، وفيه شاهد على تفقه المسلمين في الدين ، وإرتقائهم في المعارف الإلهية ، من جهات :

الأولى : توجه المسلمين بالسؤال الى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

الثانية : حرص المسلمين على تعاهد حرمة الشهر الحرام ، وعدم القتال فيه .

الثالثة : إرادة منع الحرج في الدين .

الرابعة : الفصل والتمييز بين الشهر الحرام والشهر الحل .

والأشهر الحرم هي :

الأول : شهر ذي القعدة .

الثاني : شهر ذي الحجة .

الثالث : شهر محرم الحرام .

الرابع : شهر رجب .

والأشهر الحل هي :

الأول : شهر صفر .

الثاني : شهر ربيع الأول .

الثالث : شهر ربيع الآخر .

الرابع : شهر جمادى الأولى .

الخامس : شهر جمادى الآخرة .

السادس : شهر شعبان .

السابع : شهر رمضان ، وهو الشهر التاسع من الأشهر القمرية وهو الشهر الوحيد الذي ورد ذكره في القرآن مع أنه ليس بشهر حرام ولكن

نزل فيه القرآن وفيه فريضة الصيام وفيه أشرف الليالي وهي ليلة القدر ، قال تعالى ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾^(١).

الثامن : شهر شوال .

ولا يدل اختصاص ذكر شهر رمضان بالإسم في القرآن على انحصار الفضل والتفضيل به ، إذ ذكرت اشهر الحج كما قوله تعالى ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِيهِ الْحَجُّ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِي يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾^(٢).

كما ذكر الأشهر الحرم بصيغة المفرد والجمع ، ووردت صيغة المفرد في آية البحث وقال تعالى ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْيَتِيمَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِّلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهُدْيَ وَالْقَلَائِدَ ذَلِكَ لَتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾^(٣).

(١) سورة البقرة ١٨٥ .

(٢) سورة البقرة ١٩٧ .

(٣) سورة المائدة ٩٧ .

وصيغة الجمع بقوله تعالى ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرْمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخَذُوهُمْ وَاحْضَرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ إِنَّا تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(١)، وتسمى هذه الآية آية السيف.

وليس من لفظ سيف في القرآن وقالوا أنها نسخت أكثر من مائة من آيات السلم والموادعة والصلح. وسيأتي البيان في عدة أجزاء من هذا التفسير بأن هذه الآية لم تنسخ آيات السلم والموادعة.

وورد لفظ (الشهر الحرام) خمس مرات في القرآن، منها مرتان في آية واحدة بقوله تعالى ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَأَتَوْا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾^(٢)، ومضمون الآية أعلاه جواب على السؤال الوارد في آية البحث لإفادة البيان والتأكيد والإحتراز من سفك الدماء، إذ تدل الآية أعلاه على أن النبي محمداً لم يغز المشركين بلحاظ الزمان من جهتين:

الأولى: لا يغزو النبي صلى الله عليه وآله وسلم المشركين في الشهر الحرام إلا أن يقوموا بغزو المسلمين فلا بد من الدفاع حيثئذ.

الثانية: إرادة الإطلاق في الفعل والزمن، من جهة الإعتداء وأوانه سواء في الشهر الحرام أو الشهر الحلال لقوله تعالى ﴿فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾^(٣)، وتدل الآية أعلاه على حصر رد الإعتداء بالذي يقوم به، لبعث السكينة في قلوب الناس من المسلمين

(١) سورة التوبة ٥.

(٢) سورة البقرة ١٩٤.

(٣) سورة البقرة ١٩٤.

وإدراك قانون وهو تنزههم من الظلم والتعدي والإرهاب ويدل على هذا المعنى في تأويل الآية أعلاه قوله تعالى ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾^(١).

ومن مفاهيم آية البحث بعث المسلمين على الإحتراز في الشهر الحرام مثل احترازهم في أيام السنة الأخرى ، وعدم الركون إلى حرمة الشهر وحدها ، لأن المشركين يتعدون عليها ، وإصرارهم على الكفر والجحود أكبر من هذا التعدي ، وهو من مصاديق قوله تعالى في آية البحث ﴿وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾^(٢).

لقد كشفت آية البحث للمسلمين حقيقة عزم المشركين على قتال المسلمين في كل الأحوال مع بيان غايتهم من هذا القتال لقوله تعالى ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُبَايِعُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾^(٣).

الصلة بين أول وآخر الآية

ابتدأت الآية الكريمة بلفظ متحد يتألف من ثلاث كلمات وهو قوله تعالى ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ ففيه فعل وفاعل ومفعول به ، وتفضل الله عز وجل بالإخبار عن سؤال المسلمين للنبي صلى الله عليه وآله وسلم إكرامه من جهات :

الأولى : إكرام النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

الثانية : إكرام المسلمين .

الثالثة : بيان موضوعية السؤال ، وحاجة المسلمين للإجابة عليه من عند الله ، ترى لماذا لم يكن الجواب عن طريق الوحي من السنة النبوية

(١) سورة الأنعام ١٦٤.

(٢) سورة البقرة ٢١٧.

(٣) سورة البقرة ٢١٧.

وليس التنزيل خاصة وأن السنة شعبة من الوحي قال تعالى ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾^(١)، الجواب لقد أراد الله عز وجل توثيق هذا القانون في القرآن وهو بعث الخوف والفرع في قلوب المشركين ، ومنعهم من الهجوم والإغارة على المدينة وكان أهلها على أقسام :

الأول : الأنصار من الأوس والخزرج.

الثاني : المهاجرون من مكة ونواحيها .

الثالث : أهل الكتاب من نبي قريظة وقينقاع والنضير .

الرابع : المنافقون ، وفي التنزيل ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَاللَّيْلِ الرَّسُولَ رَأَيْتَ الْمُتَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾^(٢).

الخامس : الذين لا زالوا على الكفر .

فأي اغارة وهجوم على المدينة قد يؤدي الى الفتنة فيها خاصة من المسلمين من هو حديث عهد بالإيمان فتفضل الله عز وجل وأنزل آية البحث لزجر الذين كفروا عن الهجوم والإغارة على المدينة بذريعة قتل سرية عبد الله بن جحش لعمر بن الخطاب في شهر حرام.

وأخبرت آية البحث عن موضوع السؤال وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾^(٣)، ولمنع الجهالة والغرر، ولقد أراد الله عز وجل تشريع قانون عام من الإرادة التكوينية بالقتال في الشهر الحرام في حال الدفاع .

(١) سورة النجم ٣-٤.

(٢) سورة النساء ٦١.

(٣) سورة النحل ٨٩.

وهل يشمل حال الضرورة الجواب إنما يختص الأمر بالدفاع ولا يتعارض الأمر مع كون هذا الدفاع ضرورة ، أما الضرورة وحدها من غير دفاع فلا دليل عليه ، إذ أن حرمة القتال في الشهر الحرام مطلقة إلا ما خرج بالدليل ، وهو من أسرار تقديم الشهر في الآية .

وجاء الجواب من عند الله بالإذن بالدفاع وفيه منع للخلاف بين المسلمين ، فإذا زحف جيش المشركين من مكة إلى المدينة فلا يبقى المسلمون في حال خلاف وشقاق هل يخرجون للدفاع أم يبقون في المدينة للدفاع ، أم يمتنعون عن إشهار السيوف لأنهم في شهر حرام ،

ومن إعجاز الآية أنها تتضمن الإذن بالقتال في الشهر الحرام إلا أنها في الحقيقة تحول دون حدوثه ، وهو من إعجاز القرآن في المجيء بأمر واذن لفعل فيه أذى ليمنع من وقوعه كما في قوله تعالى ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾^(١) ، فهذه الآية مانعة من كثرة القتل وسفك الدماء وذكرت آية البحث وقوع الصدّ والحجب عن سبيل الله وفعل الصالحات ، ومنع للمسلمين من حج البيت الحرام ، ومن الإعتمار ، ومثلما يكون الصد والمنع هذا من طرف المشركين فإن القتال الكبير في الشهر الحرام هو من جهة المشركين أنفسهم .

لقد جعل الله عز وجل آية البحث شاهداً على عتو وظلم الذين كفروا في الأشهر الحرم مما يدل على تماديهم في الجور بالأشهر الحل أيضاً .
لقد جاء السؤال عن الشهر الحرام ولكن الله عز وجل ﴿ذُو الْفَضْلِ

الْعَظِيمِ﴾ ، إذ بينت الآية أموراً :

الأول : وقوع القتال في الشهر الحرام .

الثاني : إتصاف هذا القتال بانه كبير .

الثالث : الصد والمنع عن سبيل الله في الشهر الحرام .
الرابع : إظهار المشركين الكفر بالله في الشهر الحرام مع أن له قدسية خاصة ، مما يدل على عدم ترتب الثواب على إمتناعهم عن القتال فيه عند تحقق هذا الإمتثال .

الخامس : صد المشركين الناس عن المسجد الحرام ، وعدم مراعاة حرمة و قدسيته ، ووجوب تعاهد طهارته ، وفي خطاب لإبراهيم واسماعيل قال تعالى ﴿ وَطَهَّرَ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾^(١).

السادس : قيام المشركين باخراج المسلمين من مكة في الشهر الحرام بالقوة والتعسف والاستيلاء على اموالهم .

وعن سليمان بن قال أقبل صهيب مهاجراً نحو النبي صلى الله عليه وسلم ، فاتبعه نفر من قريش ، فنزل عن راحلته وانثقل ما في كنانته ثم قال : يا معشر قريش قد علمتم إني من أركم رجلاً ، وأيم الله لا تصلون إلي حتى أرمي بكل سهم في كنانتي ، ثم أضرب بسيفي ما بقي في يدي فيه شيء ، ثم افعلوا ما شئتم ، وإن شئتم دلتكم على مالي وقنيتي بمكة وخليتم سبيلي .

قالوا : نعم .

فلما قدم على النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : ربح البيع ، ربح البيع .

ونزلت { ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله والله رؤوف بالعباد }^(٢).

(١) سورة الحج ٢٦ .

(٢) الدر المنثور ١/٤٨٠ .

ثم تفضل الله عز وجل وذكر قانوناً وهو أن أخراج المسلمين من جوار المسجد الحرام أكبر عند الله من الصد عن المسجد الحرام ، وذكر أن المراد أكبر من قتل المسلمين لإبن الحضرمي في الشهر الحرام .
ثم ذكرت آية البحث قانوناً وهو أن (الفتنة أكبر من القتل) والمراد من الفتنة وجوه :

الأول : سعي المشركين لإرتداد طائفة من المسلمين .

الثاني : الإضرار بالمسلمين .

الثالث : الإستهزاء بالتنزيل ﴿قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾^(١) .

الرابع : السخرية بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ومحاوله منع

الناس من التصديق بنبوته برمييه بالكذب والسحر ، وفي التنزيل ﴿كَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ﴾^(٢) .

الخامس : إرادة القتال في الشهر الحلال وفي الشهر الحرام .

السادس : المناجاة بالباطل ويقتال النبي صلى الله عليه وآله وسلم

وأصحابه ثم انتقلت الآية بلغة الخطاب إلى صيغة الجمع وإرادة المسلمين بقوله تعالى ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ وهذا الانتقال من إعجاز الآية وسعة المعارف وكثرة الأحكام التي تتضمنها ، ولتدل الآية على أن المشركين يطلبون القتال في كل حال أي في أيام أشهر الحلال والأشهر الحرم لبيان سوء سرائر الذي كفروا ، وقيدت آية البحث سعي الذين كفروا بالإرتداد المسلمين إن استطاعوا ، وهذا القيد من البشارات للمسلمين ، والله عز وجل هو الذي يحول بين المشركين وغاياتهم الخبيثة ، ليكون من إعجاز

(١) سورة النحل ٢٤ .

(٢) سورة يونس ٢ .

الآية ابتداؤها بذكر القرآن في الشهر الحرام وانتهائها بما يعث السكينة في نفوس المسلمين .

من غايات الآية

في الآية مسائل :

الأولى : ابتدأت آية البحث بقوله تعالى ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ لبيان قانون وهو تسليم المسلمين برسالة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأنه لا ينطق إلا عن الوحي ، وأن الله عز وجل رزقه الوحي إلى جانب آيات القرآن ، ليكون الوحي والسنة النبوية بياناً وتفسيراً لآيات القرآن .

ومن غايات الآية دعوة المسلمين للجوء إلى سؤال النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن الوقائع والأحداث والمسائل الإبتلائية ، وتقدير الآية: ويسألونك يا رسول الله .

الثانية : هذه الآية من أكثر الآيات التي وردت فيها مادة (قتل) من وجوه :

الأول : ورود لفظ (قتال) في الآية مرتين .

الثاني : مجئ اسم (القتل) .

الثالث : لفظ يقاتلونكم .

ولم يرد فيها لفظ ﴿تَقَاتِلُونَهُمْ﴾ انما أخبرت الآية عن إصرار الذين كفروا على القتال بقوله تعالى ﴿وَلَا يَزَالُونَ يَقَاتِلُونَكُمْ﴾^(١) لبيان حقيقة وهي أن المسلمين في حال دفاع .

ويحتاجون إلى إتخاذ الحيلة والحذر ، قال تعالى ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخِرِينَ مِنْ

(١) سورة البقرة ٢١٧ .

دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُوهُمْ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُتَفَقَّهُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظَلَمُونَ ﴿١﴾ .

الثالثة : لقد سأل المسلمون وغيرهم عن القتال في الشهر الحرام ، فجاء الجواب بالإيجاب ، وهو مقيد بما إذا اعتدى الذين كفروا أو اتخذوا الشهر الحرام مقدمة للهجوم والإغارة على المدينة وأهلها أما سؤال المسلمين فالغاية منه على وجوه :

الأول : التفقه في الدين .

الثاني : معرفة الواجب والجائز والحلال والحرام .

الثالث : أخذ الحائطة والحذر .

الرابع : إرادة الأجر الثواب .

أما غيرهم من المشركين والمنافقين فانهم ييغون الفتنة ، ويريدون التحريف والتشويه ، فأراد الله عز وجل إلزام الناس الحجة ، وقطع العذر ، وفي التنزيل ﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾ (٢) .

الرابعة : من إعجاز الآية أن الله هو الذي أجاب عن السؤال الموجه إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وهو تشریف فاز به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ففي موسى عليه السلام وهو كليم الله ورد سؤال بني اسرائيل له أن يدعو الله عز وجل ويسأله البيان بخصوص صفات البقرة التي أمرهم الله أن يذبحوها لكشف جريمة قتل حدثت بينهم ، كما ورد في التنزيل ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبُحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَنْتَحِدْنَا هَذَا قَالِ اعْوِذْ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ * قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ

(١) سورة الأنفال ٦٠ .

(٢) سورة الأنعام ١٤٩ .

يُبَيِّنُ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بُكْرٌ عَوَازٌ بُيِّنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ * قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءٌ فَاقِعٌ لَوْهَا تَسُرُّ النَّاطِرِينَ * قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنِ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْذُونَ * قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولَ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلِّمَةٌ لَا سِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبِّحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿١﴾ .

وبينت آية البحث توجه سؤال للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ونزول القرآن بالجواب من عند الله ، وليس بالوحي وحده .

الخامسة : لقد سألوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن القتال بخصوص الشهر الحرام فجاءهم الجواب من عند الله على نحو البيان والتفصيل ، وفي موضوع متعدد من وجوه :

الأول : الجواب عن القتال في الشهر الحرام .

الثاني : إبتداء الجواب لذات موضوع السؤال .

الثالث : الإجابة بالإيجاب وجواز القتال في الشهر الحرام في حال الدفاع .

الرابع : وصف القتال الذي قد يقع في الشهر الحرام أنه كبير ، وهذا الكبير من وجوه :

أولاً : شدة القتال .

ثانياً : تعدد القتال في أيام الشهر .

ثالثاً : كثرة القتال وطول مدته .

رابعاً : كثرة الأسلحة التي تستعمل في القتال .

الخامس : الإخبار بأن المشركين يصدون عن سبيل الله ، ويؤذون

المسلمين ، ويمنعون الناس عن دخول الإسلام ، و يصدون الناس عن المسجد الحرام ، وهل نصب الأصنام في البيت الحرام من الصد عن سبيل الله ، الجواب نعم .

(عن ابن مسعود، قال: دخل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مكة، وحول البيت ثلاثمائة وستون صنماً، فجعل يطعنهما ويقول (جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً) .^(١) .

السادس : إصرار المشركين على الكفر بالله عز وجل بقوله تعالى في آية البحث ﴿وَكُفِّرُ بِهِ﴾ .

السابع : الجحود بالمسجد الحرام ، والإساءة في ولايته ، قال تعالى ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٢) .

الثامن : قيام المشركين باخراج النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه من مكة ، ومن الإعجاز أن أكثرهم هاجروا بدينهم ، فنسب الله إخراجهم لكفار قريش .

وعن (محمد بن فليح عن موسى بن عقبة عن ابن شهاب دخل حديث بعضهم في بعض قال ثم ان كفار قريش اجتمعوا امرهم واتفق رأيهم على قتل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقالوا قد افسد ابناؤنا ونساءنا فقالوا لقومه خذوا منا دية مضاعفة ويقتله رجل من غير قريش وتريجوننا وتريجون انفسكم .

فأبى قومه بنو هاشم من ذلك فظاھرهم بنو المطلب بن عبد مناف فأجمع المشركون من قريش على منابذتهم واخراجهم من مكة إلى

(١) تفسير الطبري ١٧/٥٣٨ .

(٢) سورة الأنفال ٣٤ .

الشعب فلما دخلوا إلى الشعب امر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من كان بمكة من المؤمنين ان يخرجوا إلى ارض الحبشة وكان متجرا لقريش .

فكان يشني على النجاشي بأنه لا يظلم عنده احد فانطلق إليها عامة من آمن بالله ورسوله ودخل بنو هاشم وبنو المطلب شعبهم مؤمنهم وكافرهم فالمؤمن ديننا والكافر حمية فلما عرفت قريش ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد منعه قومه اجمعوا على ان لا يبايعوهم ولا يدخلوا إليهم شيئا من الرفق وقطعوا عنهم الاسواق ولم يتركوا طعاما ولا اداما ولا يبيعا الا بادروا إليه واشتروه دونهم ولا يناكحوهم ولا يقبلوا منهم صلحا ابدا ولا تأخذهم بهم رافة حتى يسلموا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم للقتل وكتبوا بذلك صحيفة وعلقوها

في الكعبة وتمادوا على العمل بما فيها من ذلك ثلاث سنين .

فاشتد البلاء على بني هاشم في شعبهم وعلى كل من معهم فلما كان رأس ثلاث سنين تلاوم قوم من قصي ممن ولدتهم بنو هاشم ومن سواهم فأجمعوا امرهم على نقض ما تعاهدوا عليه من الغدر والبراءة وبعث الله على صحيفتهم الارضة^(١) فأكلت ولحست ما في الصحيفة من ميثاق وعهد.

وكان أبو طالب في طول مدتهم في الشعب يأمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وآله وسلم فيأتي فراشه كل ليلة حتى يراه من اراد به شرا أو غائلة فإذا نام الناس امر احد بنيه أو اخوته أو بنى عمه فاضطجع على فراش رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وامر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ان يأتي بعض فرشهم فيرقد عليها فلم يزالوا في الشعب على ذلك إلى تمام ثلاث سنين ولم تترك الارضة في الصحيفة اسما لله عز وجل الا

(١) الأرضة دويبة أصغر من النمل تأكل الخشب .

لحسته وبقي ما كان فيها من شرك أو ظلم أو قطيعة رحم فأطلع الله رسوله على ذلك) (١).

السادسة : بيان آية البحث لقانون وهو (الفتنة أكبر من القتل) وفي آية أخرى الفتنة ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ (٢).

لقد سألوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن القتال في الشهر الحرام ، فأخبر الله عز وجل بلزوم إجتناب الفتنة في الشهر الحرام وغيره لأنها أشد وأقبح من القتل .

ولم تقل الآية أن الفتنة أكبر من القتال ، إنما قالت أنها أكبر من القتل ، فقد يقع القتال ، ولكن لا يكون فيه قتل لبيان الترتيب كالاتي :
القتل أكبر من القتال .
الفتنة أكبر من القتل .

السابعة : حث المسلمين والمسلمات على الثبات على دينهم ، والتقيد بأداء الفرائض لأن الغاية الحثيثة للمشركين في إرهابهم وقتالهم للمسلمين هو إرتدادهم ليكون من إعجاز الآية تثبيت مفاهيم الإيمان في نفوس المسلمين والمسلمات .

الثامنة : بيان سوء عاقبة الذي يموت على الكفر والضلالة وخلوده في النار ، قال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ (٣) .

(١) عيون الأثر ١/١٦٥ .

(٢) سورة البقرة ١٩١ .

(٣) سورة البقرة ١٦١ .

التفسير

إبتدأت الآية بلفظ (سَأَلُونَكَ) وهو جملة خبرية تتألف من فعل وفاعل ومفعول به ، فمن إعجاز الآية إبتداؤها بلفظ متحد يتضمن ثلاث كلمات لتشرئب الأعناق وتصني الأذان لسماع ما بعدها من الموضوع والحكم وهو الذي يتبادر إلى الذهن لتبين الآية موضوع السؤال وهو مركب من أمور:

الأول : الشهر الحرام .

الثاني : جواز القتال في الشهر الحرام أو عدمه .

فمن إعجاز الآية إبتداء السؤال بذكر الشهر الحرام وليس القتال فلم تقل الآية (يسألونك القتال في الشهر الحرام) إذ أراد الله عز وجل إكرام المسلمين وبيان تفقهم في الدين بالإخبار عن معرفتهم بالشهر الحرام وقدسيته وليبان أن الوقائع والفتن التي تقع في الشهر الحرام أكثر وأعم من القتال فيه ليكون من معاني الآية وجوه :

الأول : يا ايها النبي يسألك المسلمون عن الشهر الحرام للدلالة والشهادة على تقيدهم بأحكامه .

الثاني : يا ايها النبي يسألك المشركون عن الشهر الحرام والقتال فيه للتعريض واللوم بسبب قتل سرية عبد الله بن جحش لعمر بن الخطاب الحزري في الشهر الحرام مع أنهم ظنوا عدم دخول شهر رجب بعد ولا تبنى الأحكام على قضية شخصية ومشتبهات الأمور ، ولكن كفار قريش كانوا يخشون على أصنامهم وعلى قوافلهم التي تجوب الصحراء بين مكة والشام ، وبين مكة واليمن ذهاباً وإياباً ، قال تعالى ﴿لِيَلْأَفِ قُرَيْشٍ * إِبِلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾ (١).

(١) سورة قريش ١-٢ .

الثالث : لقد أراد المسلمون معرفة حالهم في الشهر الحرام إذ داهمهم وهاجمهم المشركون ليعث هذا السؤال وتوثيقه في القرآن الفزع والخوف في قلوب الذين كفروا ، ويعلموا أن الله عز وجل يعلم بكيدهم وخططهم للإجهاز على النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه وهذه من عمومات قوله تعالى ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْأَسْوَاقِ الْحَرَامِ أَنْ يَسْأَلُوا عَنْهَا لَعَلَّ يُسْأَلُ عَنْهَا الْمُتَدَابِّرُ وَالْمُؤَدَّبُونَ﴾ (١).

وجاء الجواب على السؤال عن الشهر الحرام وهل فيه قتال أو لا ، بأن فيه قتالاً كبيراً ، وهو من إعجاز القرآن بأن يسألون عن أمر من المتسالم وهو الدفاع والقتال .

فيأتي الجواب من عند الله بأنه كبير ، ليكون هذا الوصف من علم الغيب ، وتنبه وتحذير للمسلمين من تعدي الذين كفروا ، وهو من أسباب البعث على الإستعداد لملاقاة الذين كفروا ، ولا يختص هذا الإستعداد بتهيئة مستلزمات الدفاع في العدة والعدد والرواحل ، إنما يشمل تعاهد سنن التقوى ومصاديق قوله تعالى ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (٢).

لقد ذكرت آية البحث ما يقع في الشهر الحرام بسبب ظلم وجور الذين كفروا وإصرارهم على التعدي وهو :

الأول : القتال في الشهر الحرام .

ولم تذكر الآية الغزو ، ولكن التبادر من الآية أن المشركين هم الذين يغزون ويسرعون بالقتال والغزو في الشهر الحرام بدلالة سؤال المسلمين

(١) سورة الأنفال ٣٠ .

(٢) سورة آل عمران ١٠٣ .

عن الشهر الحرام وهل فيه قتال ، أي أن المرتكز في الأذهان الإمتناع عن القتال فيه ، وعليه تسالم العرب ، ولكن طراً أمر عظيم في الجزيرة وهو نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم فخشي الذين كفروا على ملتهم بتقديس الأصنام ، وعلى شأنهم ومنزلتهم الرفيعة بين العرب ، فصاروا مثل فرعون الذي اختار إنكار نبوة موسى عليه السلام واستضعافه بني اسرائيل ولو أنه آمن برسالة موسى عليه السلام لبقى في سلطانه وعرشه . ولم يتعظ كفار قريش من قصة فرعون والقوم الظالمين إذ أصر فرعون على اللحاق بموسى وقومه عندما إختاروا مغادرة مصر ، فأغرق الله عز وجل فرعون وجنوده قال تعالى ﴿فَارَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا﴾^(١)

وليس في الجزيرة العربية حيث حارب المشركون النبي محمدا صلى الله عليه وآله وسلم من بحر وأنهار ، ولكن لا تستعصي على الله عز وجل مسألة إذ أهلك عدداً من رؤساء الشرك في معركة بدر وأصابته الهزيمة والهوان المشركين جميعاً ، فاذ أغرق الله عز وجل آل فرعون جميعاً وأن الذل والهوان تغشى المشركين جميعاً بالنصر المبين للنبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه في معركة بدر ، ومن مصاديق قوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(٢)

بقاء كثير من مشركي مكة بعد معركة بدر ، لتكون لهم موعظة ، وهو مناسبة لهم لأمر :

- الأول : التدبر في معجزات النبي صلى الله عليه وآله وسلم .
الثاني : الكف عن إيذاء المسلمين في مكة .

(١) سورة الاسراء ١٠٣ .

(٢) سورة الأنبياء ١٠٧ .

الثالث : الإمتناع عن تجهيز الجيوش لمحاربة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه ليكون صلح الحديبية شاهداً عليهم .

الرابع : التوبة والإنابة ودخول الإسلام ، وهو الذي تجلّى في تعاقب دخول الناس في الإسلام ، ثم جاء فتح مكة ليدخل الناس دفعة واحدة حتى سموا (مسلمة الفتح) وكان عددهم بالآلاف ويحتمل المراد من لفظ (كبير) صفة للقتال وجوه :

الأول : تكرار وتعدد القتال في الأشهر الحرام .

الثاني : شهرة القتال .

الثالث : كثرة الذين يشتركون في القتال من الطرفين .

قال تعالى ﴿فَلَا تُطْعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾^(١)

الرابع : تعدي الذين كفروا في الشهر الحرام كبير .

وتبين صفة الكبير للقتال في الشهر الحرام مسألتين :

الأولى : احتمال وقوع القتال في الأشهر الحرام .

الثانية : لزوم أخذ المسلمين الحيطة والحذر من المشركين حتى في

الأشهر الحرم ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَأَخْرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُوهُمْ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾^(٢) .

(١) سورة الفرقان ٥٢ .

(٢) سورة الأنفال ٦٠ .

ويدل مضمون الآية أعلاه على إرادة السلم العام ، ومنع الإقتتال لما فيها من منع المشركين من التعدي وغزو المدينة ^(١) ، وقال تعالى ﴿وَلَا تَعْتَدُوا

إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ ^(٢).

وإذ بدأ السؤال عن الشهر الحرام وهل فيه قتال فإن الجواب إبتدأ بذكر القتال بقوله تعالى ﴿قُلْ قَاتِلْ فِيهِ كَيْفٌ﴾ ^(٣) ، وفيه دعوة للمسلمين لأخذ الحائطة من الذين كفروا في الشهر الحرام وباقي أشهر السنة .

تفسير قوله تعالى ﴿وَكُفْرُ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾

ويحتمل العطف بالواو في الآية أعلاه على لفظ الجلالة ، والتقدير (وكفر بالله وبالمسجد الحرام) كما تقدم في باب الأعراب إذ وأصل الكفر التغطية والستر ، والكفر على وجوه :

الاول : كفر الإنكار ، وهو كفر بالقلب واللسان .

بالربوبية المطلقة لله عز وجل ، قال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ أزدادوا كفراً لم يكن اللهُ ليُغْفِرَ لَهُمْ وَلَا يَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾ ^(٤).

الثاني : كفر الجحود مع معرفة القلب ، وغزوها للقلب طوعاً وقهراً ، قال تعالى ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ﴾ ^(٥) ، ومنه كفر ابليس .

الثالث : كفر نفاق ، وهو الإنكار بالقلب مع إظهار الإيمان باللسان .

الرابع : كفر النعمة ، وعدم الشكر عليها .

(١) أنظر الجزء الأربعين بعد المائتين من هذا السفر .

(٢) سورة البقرة ١٩٠ .

(٣) سورة البقرة ٢١٧ .

(٤) سورة النساء ١٣٧ .

(٥) سورة النمل ١٤ .

الخامس : كفار عناد واستكبار بقول الحق والصدق ، ومنه كفر أبي جهل ، قال تعالى ﴿ وَمَنْ لَمْ يُحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ (١).
وعن الإمام علي عليه السلام قال : (والكفر على أربع دعائم: على التعمق، والتنازع،

والزيغ، والشقاق، فمن تعمق لم ينب إلى الحق، ومن كثر نزاعه بالجهل دام عماء عن الحق، ومن زاغ ساءت عنده الحسنة وحسنت عنده السيئة، وسكر سكر الضلالة، ومن شاق وعرت عليه طرقه وأعضل عليه أمره وضاق مخرجه) (٢).

الأولى : أي وكفر بالله عز وجل، فالهاء في (به) تعود لله تعالى.
الثانية : كان السؤال عن جواز القتال في الشهر الحرام فجاء الجواب بما هو اعم وذكر الفرد الأهم للتوكيد على جواز القتال في الشهر الحرام عند الحاجة.

الثالثة : كأن في الآية اطلاقاً للقصاص، فكما ان الكفار لم يجعلوا للشهر الحرام حرمة فقاموا بالإعتداء فيه، فمن القصاص الرد بالمثل.
الرابعة : هل في الآية مصداق لأحكام الأولوية، فاذا كان تعدي الكفار وارادتهم قتال المسلمين في الشهر الحرام يستلزم الرد والقتال فيه فمن باب اولى ان اظهار الكفر في الشهر الحرام يستلزم القتال ، الجواب لا .

الخامسة : من وجوه الكفر بالله انكار بعث الأنبياء وعدم الإقرار بالتوحيد والإمتناع عن العبادات جحوداً.

السادسة : على القول بان المسجد الحرام معطوف على الباء في الضمير (به) فيكون المعنى كفر بالله وبالمسجد الحرام، والكفر بالمسجد

(١) سورة المائدة ٤٤.

(٢) البحار ٣٤٨/٦٥.

الحرام يتمثل بالصد عن أداء الحج والعمرة وعدم تنزيه البيت الحرام، ومنع المسلمين من الطواف والصلاة فيه وأداء مناسك الحج والعمرة، ولكنها افراد داخلة في مفاهيم الكفر بالله والصد عن سبيله تعالى.

تفسير قوله تعالى ﴿وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ﴾

الأولى : الضمير في اهله يعود للمسجد الحرام.

الثانية : ﴿ أَكْبَرُ ﴾ افعال تفضيل، فلا بد ان اخراج المسلمين من

مكة اكبر من امر آخر قد تقدم فهل هو الكفر بالمسجد الحرام ام المعنى الأعم، يجوز المعنيان وعلى الثاني كيف يكون اخراج المسلمين من المسجد الحرام اكبر من الكفر ولا شيء اكبر اثماً ومعصية من الكفر لأنه اكبر الكبائر، الجواب ان اخراج المسلمين من المسجد يأتي من منازل الكفر والجحود أي انه امر واقعي اضافي وفعل مضاف الى سوء الاعتقاد، فصفة الأكبر بما انه مصداق خارجي للكفر ترتب عليه أثر وضرر نوعي وليس عنواناً مستقلاً.

الثالثة : الآية وثيقة اكرام للمسلمين بنعتهم انه اهل المسجد الحرام وتدل في مفهومها على ان الكفار الساكنين في مكة غرباء عن المسجد الحرام.

الرابعة : الآية بشارة الفتح وحصص السكن في مكة بالمسلمين.

الخامسة : تعتبر الآية موطئة لقوله تعالى ﴿ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا

الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا ... ﴾ (١).

السادسة : الآية بشارة عودة المسلمين الى مكة سكناً وأداء للمناسك.

السابعة : تدل الآية بالدلالة التضمنية على الجزاء العاجل بفضله

تعالى على المسلمين اذ عوضهم على الإخراج من مكة بحسن الإقامة في المدينة ورزقهم فيها آمناً وسكناً وجعلها مثوى كريماً، وقد اختار النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم العودة الى المدينة بعد الفتح وعاد معه المهاجرون والأنصار.

الثامنة : اخراج المسلمين من مكة اعم من ان ينحصر بالشهر الحرام فخطره وعظيم امره في حصوله واقعاً سواء حدث في الشهر الحرام او في غيره، نعم وقوعه في الشهر الحرام اكبر وقعاً واكثر ظلماً وتعدياً وجرأة على الله ورسوله والمؤمنين.

التاسعة : روي انه لما انزلت الآية كتب عبد الله بن جحش صاحب هذه السرية الى مؤمني مكة: اذا غيركم المشركون بقتل ابن الحضرمي في الشهر الحرام فعيروهم اتم بالكفر، واخراج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من مكة ومنع المؤمنين عن البيت الحرام.

تفسير قوله تعالى ﴿ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ ﴾

الأولى : الآية قاعدة عقائدية كلية، وقد وردت في القرآن مرتين، الأولى في الآية الواحدة والتسعين بعد المائة من سورة البقرة وقد تقدم تفسيرها، ولا يعني هذا اتحاد المعنى في الآيتين وان كان موضوعهما واحداً وهو اخراج المؤمنين من مكة، بالإضافة الى ما يفيد التكرار من التوكيد وبيان الأهمية.

الثانية : من الفتنة تعذيب المؤمنين وتعرضهم لصنوف الأذى كما في تعذيب المشركين لعمار ابن ياسر وابيه وامه، وبعض الصحابة كبلال وصهيب.

الثالثة : الآية تحذير وتنبه للمسلمين، وبيان لما في الفتنة من الأضرار الجسيمة.

الرابعة : فيها حث على المبادرة الى قطع دابر الفتنة ومنع استفحالها.
الخامسة : في الآية بيان وتعليل لجواز الدفاع في الشهر الحرام فقد يقوم الكفار بالفتنة، ولكن تركهم والاعراض عنهم اكراماً والتزاماً بجرمة الشهر الحرام يؤدي الى اضرار وخسائر تفوق ما يحدث في القتال، خصوصاً وان الخسائر عادة ما تكون من الطرفين، اما الفتنة فقد تقع أضرارها على المسلمين خصوصاً وانهم اصحاب عقيدة ومبدأ ويسعون لغايات حميدة وبناء صرح ايماني خالد يثبت معالم التوحيد في الأرض اما الكفار فلا يفكرون إلا بيوهم ومصالحهم الآنية القريبة وشهواتهم .

الثامنة : في الآية دعوة للمسلمين لأخذ الحائطة للإمتحان والإبتلاء والتصدي لمكائد الكفر.

السابعة : لزوم يقظة المسلمين في الأشهر الحرم ومنع الغفلة، والإلتفات الى ما قد يصدر من الكفار من الغدر والغيلة.
الثامنة : تمتع الآية الإرباك وحالات اليأس التي تنجم عن مداهمة الفتنة والإبتلاء، وهذه الآية تجعل المسلمين يقظين ويتوقعون الشر والسوء عن الكفار.

التاسعة : تبين الآية خطورة الفتنة، فقد تؤدي الى الإفتتان في الدين ومحاولة اثاره الشك والريب في قلوب بعض المسلمين.

العاشرة : تمتع الآية من استفحال أمر المنافقين وفيها تحجيم وتقليل لأذاهم.

الحادية عشر : في الآية كشف وفضح لأعداء الإسلام والمنافقين ورصد لسلوكهم.

الثانية عشر : تعتبر مضامين الآية سلاحاً في مواجهة الفتنة والإمتحان والإبتلاء.

الثالثة عشر : الآية رادع لأعداء الدين وحجة عليهم في بيان اضرار ما يقومون به والتحذير منه .

الرابعة عشر : في الآية تخويف من عذاب الفتنة وانه اشد من عذاب القتل الذي يكون على نحو القضية الشخصية لأنها أي الفتنة قد تؤدي الى قتل الكثير من المسلمين الى جانب اثارها السلبية الضارة الأخرى.

الخامسة عشر : علة الجناية احد امرين اما المباشرة او التسبيب وقد يجتمع الأمران معاً في الفتنة فيؤثم المسبب والمباشر لها معاً.

السادسة عشر : الفتنة اشد من القتل لحصول القتل فيها على نحو متعدد وزيادة اضرار واهوال اخرى.

السابعة عشر : من الفتنة الهجوم الإعلامي والفكري.

وهل من معاني الفتنة التي تذكرها آية البحث إرادة الكفار قتل النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم الجواب نعم لبيان قانون وهو كما دفع الله عز وجل عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم القتل فإنه يدفع القتال وشره عن المسلمين ، ومن وجوه الفتنة في المقام أمور :

الأول : استهزاء وسخرية قريش بآيات التنزيل .

الثاني : نعت النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بأنه ساحر كذاب ، قال تعالى ﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾^(١).

الثالث : إيذاء وتعذيب الذين كفرا المسلمين الأوائل رجالاً ونساءً ، فمن عادة العرب الإمتناع عن إيذاء النساء ولكن كفار قريش ومع

(١) سورة ص ٤.

منزلتهم بين العرب والدول الكبرى آنذاك مثل بلاد الروم وفارس فأنهم تبادوا في التعدي على النساء أيضاً في صيغ التعذيب الجسدي ، وقام أبو جهل بقتل سمية بنت خياط أم عمار أثناء التعذيب .

الرابع : ضرب الحصار على بني هاشم في شعب أبي طالب ولمدة ثلاث سنوات .

الخامس : عزم المشركين على قتل النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم فنزل قوله تعالى ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾^(١) .

لقد بنى قصي جد النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم دار الندوة للتباحث في أمور صلاحهم ، وشؤونهم ، ودفع الشحناء والفتن ، وتمر الأيام لتجتمع وتجمع قريش فيها على قتل النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في فراشه ، فاختراروا من كل قبيلة شاباً قوياً ليكون المجموع عشرة ودفعوا لكل واحد منهم حساماً عضباً ، ليهجموا عليه وهو نائم في فراشه ويضربون ضربة رجل واحد ، فيتفرق دمه في قبائل قريش ، ولا يقدر بنو هاشم على مناهضة قبائل قريش ، فيقبلون الدية عن قتل النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

واشترك أربعون رجلاً من قريش في محاصرة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ومراقبة طرقات ونواحي مكة ليلة المبيت فخرج النبي صلى الله عليه وآله وسلم منتصفاً الليل من بيته وهو يقرأ سورة (يس) إلى قوله تعالى (فَهُمْ لَا يَصِيرُونَ) ليهجم المشركون على فراشه وقت السحر وقبيل طلوع الفجر ، إذ كانوا يرونه نائماً يتقلب على فراشه ليفاجئوا بالإمام علي عليه السلام نائماً في فراشه ، فندموا وغضبوا

(١) سورة الأنفال . ٣٠ .

وتوجهوا باللوم لأبي جهل الذي منعهم من دخول البيت من أول الليل ، ولم يقف مكرهم عند هذا الحد ولم يتدبروا في الإعجاز وفضل الله عز وجل في نجاة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم إنما بادروا إلى ملاحقته ووضع الجوائز للذي يأتي به وبصاحبه ، وجعلوا للذي يأتي بهما أو قتلها مقدار وسهماً أي مائتي بعير .

السادس من الفتنة التي تذكرها آية البحث مقدمات معركة بدر وأحد والخذق واستعداد كفار قريش للبطش بالمسلمين ، وتجهيزهم للجيش في حربهم للنبوة والتنزيل .

وهي أن قوله تعالى ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾^(١) ، (مثل من الأمثال القرآنية العديدة)^(٢) .

ولكنه قانون من الإرادة التكوينية بما يفيد أنه أعظم من القتل ولكن بلوغ المسلمين مراتب من الفقاهاة يجعل بعض العلماء يشبهه بالمثل ، وهذه الفقاهاة من مصاديق قوله تعالى ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(٣) .

بحث بلاغي

واختلف النحاة في كون (حتى : حرف عطف) وذكرها ابن أجروم^(٤) في أجروميته منها ، وقيد الأمر بكونها حرف عطف قال (و حروف العطف عشرة ، وهي : الواو ، والفاء ، وثم ، وأو ، وأم ، وإما ، وبل ، ولا

(١) سورة البقرة ١٩١ .

(٢) الجدول في إعراب القرآن ٨٩/٢ .

(٣) سورة آل عمران ١١٠ .

(٤) ابن أجروم هو محمد بن محمد بن أجروم الصنهاجي عالم نحوي ، ولد في فاس سنة ٦٧٢ هجرية وتوفى فيها سنة ٧٢٣ هجرية (١٢٧٣-١٣٢٣) ميلادية .

، ولكن ، وحتى في بعض المواضع (١).

ومن معاني العطف (حتى) أخص من واو العطف قال تعالى ﴿وَزَلُّوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرُ اللَّهَ﴾ (٢).

ولكن معنى العطف في (حتى) أخص من واو العطف ، ففي آية البحث يجمع بين العطف والتعليل ، وبين غاية قتال المشركين للمسلمين وأنهم ينتهون بالصلح والمواذعة ، ولا يكفون عندما يطمأنون بسلامة قوافلهم بين الشام ومكة ، وبين اليمن ومكة ، إنما يريدون القضاء على سنن التوحيد ﴿وَيَأْتِي اللَّهُ الْإِنَانَ نِيمًا نُورُهُ وَلُوكُهُ الْكَافِرُونَ﴾ (٣).
وتأتي (حتى) في الجملة على وجوه :

الأول : إفادة الإبتداء ، وتسمى حتى الإبتدائية ، وهي حرف يبتدأ بها الكلام ، فما بعدها جملة مفيدة ، وكلام مستأنف كما في قولك صمت رمضان حتى اليوم الأخير ، وقال تعالى ﴿وَتَكْمِلُوا الْعِدَّةَ﴾ (٤).

الثاني : (حتى) حرف جر ، وتسمى (حتى) الجارة ، إذ تكون حال الاسم الواقع بعدها الجر ، وعلامتها وضع (إلى) مكانها ، كما في قوله تعالى ﴿سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطَلَعِ الْفَجْرِ﴾ (٥) والمعنى إلى مطلع الفجر ، ومن الإعجاز في اللغة العربية التباين الجهتي بين الحروف والكلمات المترادفة ، إذ تدل (حتى) في الآية أعلاه على استدامة السلام حتى دخول طلوع الفجر .

(١) الأجرومية ٥/١.

(٢) سورة البقرة ٢١٤.

(٣) سورة التوبة ٣٢.

(٤) سورة البقرة ١٨٥.

(٥) سورة القدر ٥.

ولبيان إتصال بركات ليلة القدر على نهارها .

الثالث : (حتى) العاطفة .

وقد تأتي (حتى) في جملة وتصلح للوجه الثلاثة أعلاه ، كما في المثل المشهور (أكلت السمكة حتى رأسها).

فتنصب كلمة رأس بلحاظ (حتى) العاطفة ويكون رأسها معطوفاً على السمكة .

وبلحاظ (حتى) الإبتدائية يكون (رأس) مبتدأ مرفوع وخبره محذوف والتقدير حتى رأسها مأكول .

ويكون (رأس) اسماً مجروراً باحتساب (حتى) حرف جر ، والتقدير (إلى رأسها) .

ومنه أن يقال :صليت الصلوات اليومية حتى العشاء صليتها ، وقال (ابن مروان النحوي):

ألقي الصحيفة كي يخفف رحله ... والزاد حتى نعله، ألقاها^(١).

تفسير قوله تعالى ﴿ لَا يَزَالُ بُقَاؤُنْكُمْ حَتَّىٰ يَرْضُوكُمْ غَضَبِنَا ﴾

الأولى : في الآية اعجاز مركب متكون من ثلاثة وجوه:

الأول: الأخبار عن عزم ومواصلة الكفار قتال المسلمين.

الثاني: استدامة هذا القتال لتحقيق مقاصد سيئة وغايات قبيحة.

الثالث: النفي الضمني لتحقيق هذه الغاية بقيد وشرط الإستطاعة.

الثانية : ذكر الفتنة وانها اكبر من القتل لم يمنع من الرجوع الى موضوع القتال مما يدل على خطورته واستدامته، وان نعت الفتنة بوصف الكبر بالقياس للقتل لا يدل على قلة اهمية القتال وخطورته.

الثالثة : الآية انذار للمسلمين ليكونوا مستعدين دائماً الى الدفاع.

(١) الكتاب ٢١/١.

الرابعة : تنفي الآية اليأس والقنوط عن النفوس، فقد يرى بعض المسلمين الآخرين بمنظار انفسهم فكما آمنوا حينما رأوا الآيات فانهم يظنون ان الكفار سيؤمنون ايضا لأن آيات القرآن والنبوة خطاب وحجة على كل عاقل، فجاءت هذه الآية لتمنع الركون الى هذا الظن الذي لم يستند الى اصول عقلائية.

الخامسة : لا ينحصر موضوع الآيات باسباب النزول فهو دائم ويبقى حقيقة تواجه المسلمين بين الحين والآخر وفي هذا المصر او ذاك البلد.

السادسة : ما دام الإسلام موجوداً فالتعدي والقتال والعدوان عليه وعلى المسلمين موجود وعلى نحو ظاهر ومتجسد بالقتال.

السابعة : الآية حجة للمسلمين في جواز الدفاع في الشهر الحرام عند الحاجة والضرورة وما من شيء اضطر اليه الا وهو جائز بقدر الضرورة.

الثامنة : الآية توطين لنفوس المسلمين على الجهاد والإستعداد الدائم للقتال دفاعاً .

التاسعة : لا غرابة ان يكون حكم الإرتداد وعدم التوبة منه القتل لأنه اشد من الفرار من الزحف.

بحث بلاغي

المعنى الغالب لـ(حتى) هو انها حرف لإنتهاء الغاية كـ(ال)، وقد تأتي مرادفة (كي) التعليلية، وذكر ابن مالك معنى آخر لها وانها مرادفة (الا) في الإستثناء، وحتى الواردة في هذه الآية من افراد التعليلية.

تفسير قوله تعالى ﴿إِنْ اسْتَطَاعُوا﴾

الأولى : وجود اداة الشرط (ان) بشارة خيبة امل الكفار وبطلان سوء تدبيرهم وفعالهم.

الثانية : تخبر الآية عن حرز الهي ووقاية سماوية في دفع كيد الكفار.
الثالثة : تدل الآية بالدلالة التضمنية على تحقيق النصر والظفر للمسلمين، فما داموا المسلمون يقاتلون ويذوبون عن دينهم فلا بد ان يخسر الكفار القتال وينتهي بخيبتهم وفشلهم ولو بعد حين.

الرابعة : ان الكفار لا يقاتلون دفاعاً عن انفسهم، او من اجل عقيدة او مبدأ، فهو يقومون بالهجوم والتعدي على المسلمين لإسلامهم، وانعدام المقتضي يفقد المقاتل العزم على مواصلة القتال ويجعل الشك والتردد يدب الى نفسه، بالاضافة الى النواميس الثابتة باندحار الظلم.

الخامسة : تبين الآية ان المسلمين اتخذوا السيف آلة للدفاع عن مبادئهم والذب عن انفسهم واعراضهم بصورة اساسية وان ما جرى من الغزو كان مقدمة للدفاع والاحتراز وتوسعة رقعة الإسلام.

تفسير قوله تعالى ﴿ وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَسْتَوْفِرْ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾
في الآية مسائل :

الأولى : تحذير وتنبية للمسلمين، ومفهوم الآية أكثر أهمية من منطوقها، فهي انذار للكافرين وبعث لليأس في نفوسهم من احتمال ترك المسلمين لعقيدتهم.

الثانية : تدل الآية بالدلالة الإلتزامية على ضرورة التمسك بمبادئ الإسلام واصوله وفروعه وعدم الرجوع الى منازل الكفر والجحود.

الثالثة : الآية في مفهومها توبيخ ووعيد للكافرين الذين اقاموا على الكفر.

الرابعة : حبط العمل فساداً، ويعني عدم ترتب الثواب عليه وان كان في الأصل يستحق الثواب وان عمله في هذه النشأة لن ينفعه في النشأة الآخرة.

الخامسة : في الآية اخبار عن حتمية الحساب والحاجة الى الأعمال الصالحة في الدنيا والتحلي بصفات العبودية.

السادسة : تدل الآية على افاضة القرآن على العبد بتعاهد الإيمان والثبات على الإسلام.

السابعة : تمثل الآية مرحلة من مراحل التكامل اليقيني بعدم الإلتفات الى الوراثة ومواطن الكفر والإرتداد.

الثامنة : جاءت الآية لتدارك النقص والضعف النوعي والوهن النفسي وطرده الغفلة.

التاسعة : الآية حرز من الغفلة وما ينتج عنها، وفيها طرد لوساوس الشيطان وشروبه.

العاشر : الآية دعوة للإعراض عن الكفار واخذ الحيطه والحذر منهم.

الحادية عشرة : بيان المنافع العظيمة للإيمان بذكر مساوئ واضرار تركه وهجرانه.

الثانية عشرة : تدل الآية في مفهومها على مبعوضية الإرتداد وعظيم خطره ولزوم الحذر منه.

الثالثة عشرة : الإيمان قسمان مستقر ومستودع، والآية لعلاج المستودع وجعله مستقراً ايضاً بمدرسة القرآن واتخاذها واقية.

الرابعة عشرة : جاءت الآية لبيان عظيم ثواب استدامة الإيمان أي ان الإيمان واجب ابتداءً وبقاءً ومنذ سن التكليف، فكما يثاب المرء على اختياره فان الثواب يتجدد ويتضاعف مع بقاءه على الإسلام واجتنابه

وجوه الإرتداد.

الخامسة عشرة : تنهى الآية عن الإرتداد وان حصل القتال والتعدي والظلم على المسلمين وفي التأريخ شواهد كثيرة على تحمل بعض الصحابة وجوهاً من العذاب والبطش، وتبين صبرهم وثباتهم على العقيدة والتوحيد ورفضهم الخروج عن الملة، وقد مات ياسر ابو عمار في التعذيب.

السادسة عشرة : هناك تباين وتناف موضوعي بين الإرتداد والتقية من الكفار ومهادنتهم في اللسان بمقدار الضرورة كما في عمار مع بقاء قلبه ثابتاً على الإيمان.

السابعة عشرة : الإرتداد ضلالة وخزي في الدارين.

الثامنة عشرة : اثار الإرتداد السلبية لا تنحصر في الآخرة بصورة فساد الأعمال وفقدان الأجر بالخسارة وحصول الإرباك في افعال المرتد اليومية وفقدانه للإستقرار والطمأنينة، ومن احكام المرتد في الدنيا ان زوجته تبين منه وليس له ميراث من مسلم وعليه اجماع علماء المسلمين، فلو مات ابو المرتد فانه لا يورث منه شيئاً، ولو مات هو يرثه ابناؤه.

التاسعة عشرة : حصول فساد الأعمال في الحياة الدنيا وفي الآخرة يدل على ان الإرتداد كبيرة ومعصية لا تغتفر.

بحث بلاغي

المعروف ان القرآن نزل بلغة قريش، وروي عن ابن عباس انه نزل بلغة الكعبين، كعب قريش وكعب خزاعة، قيل: وكيف ذاك؟ قال: لأن الدار واحدة.

والمراد كعب بن لؤي جد قريش، وكعب بن عمرو، جد خزاعة ولكن هذا لم يمنع من وجود كلمات في القرآن بلغات قبائل عربية اخرى فضلاً منه تعالى.

والمشهور قال بافضلية لغة قريش على سائر لغات العرب، لأنهم يسمعون اللغات من العرب في موسم الحج وعند اجتماعهم، فيختارون أحسنها، ونزول القرآن بلغة قريش أي أغلبه مع وجود بعض الكلمات نسبت إلى قبائل أخرى، ولعل أكثر الكلمات التي نزلت بغير لغة قريش إنما نزلت بلغة تميم، منها قراءة غير نافع وابن عامر ومن يرتد منكم عن دينه.

والأمر سهل لأن المدار على المكتوب في المصاحف وهو موافق للغة قريش في الجملة، وكما تأخذ قريش من كلام القبائل الأخرى في موسم الحج، فمن باب أولى أن تأخذ من القرآن بعض كلماتهم.

تفسير قوله تعالى ﴿ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾

وفي الآية مسائل :

الأولى : قاعدة كلية شاملة لكل مرتد وكافر.

الثانية : الآية لدفع وهم، فقد يظن بان المرتد قد تدركه الرحمة والمغفرة فجاءت هذه الآية بنفي وعدم اعتبار مثل هذا الظن.

الثالثة : تظهر الآية الملازمة بين الإرتداد والخلود في الجحيم.

الرابعة : الإرتداد وجه من وجوه الكفر ولعله من أشدها لأنه يأتي بعد التلبس بالإيمان وتذوق ما في العبادة والفرائض من النعم، خصوصاً وأنه بعد انتهاء الفريضة لا يلتفت إلى ما فيها من التكليف والمشقة لتبقى السعادة تعمره بالتوفيق لأداء الفريضة كما في قول النبي

صلى الله عليه وآله وسلم: للصائم فرحتان، فرحة عند الإفطار، وفرحة عند لقاء ربه.

الخامسة : سبب دخول المرتد النار مركب من حبط اعماله حال حصول الإرتداد وبقائه على الكفر والإرتداد.

السادسة : تنجز الآية عن تحقق الخلود والدوام في العقاب الاخروي للمجرمين او شطر منهم، لذا فإن الآية غاية الانذار والتخويف والوعيد.

.....

قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ الآية ٢١٨

الإعراب واللغة

إن الذين آمنوا : إن : حرف مشبه بالفعل يفيد التوكيد .
الذين : اسم موصول في محل نصب اسم (إن) .
آمنا : فعل ماض مبني على الضم لإتصاله بواو الجماعة .
الواو : فاعل ، وجملة (الذين آمنوا) لا محل لها من الإعراب لأنها صلة الموصول (الذين) والذين هاجروا : الواو حرف عطف .
الذين : اسم موصول معطوف على الاسم الأول في محل نصب ومع إتحاد لفظ (الذين) فإن النسبة بين المصداق هو العموم والخصوص المطلق ، فالذين هاجروا أخص .
هاجروا : فعل ماض مبني على الضم .
والواو فاعل ، وجملة (هاجروا) لا محل لها من الإعراب لأنها صلة الموصول (الذين) الثاني .
وجاهدوا في سبيل الله : الواو حرف عطف ، و (جاهدوا) مثل هاجروا من جهة الإعراب .
في سبيل الله : جار ومجرور متعلق بجاهدوا ، وهو مضاف ولفظ الجلالة مضاف إليه .
أولئك : أولاء : اسم إشارة مبني في محل رفع مبتدأ ، والكاف للخطاب .

يرجون : فعل مضارع مرفوع بثبوت النون لأنه من الافعال الخمسة ،
والواو : فاعل .

رحمة الله : مفعول به منصوب وعلامة نصبه الفتحة الظاهرة على
آخره ، ولفظ الجلالة مضاف إليه وجملة (يرجون رحمة الله) في محل رفع
خبر مبتدأ (أولئك) .

والله غفور رحيم : الواو حرف عطف .

غفور : خبر مرفوع وعلامة رفعه الضمة الظاهرة على آخره ، وجملة
(الله غفور) لا محل لها من الإعراب وهي جملة إستثنائية .

رحيم : خبر ثان مرفوع .

في سياق الآيات

ابتدأت آية البحث بالحرف المشبه بالفعل (إن) الذي يفيد التوكيد
والقطع بأن الإيمان طريق الفلاح وأن المؤمنين يرجون رحمة الله عز وجل
في الدنيا والآخرة ، وابتدأت الآية السابقة بصيغة الجملة الخبرية
(يسألونك) مع أن موضوعها هو الإنشاء إذ أن موضوع السؤال استفهام
ورجاء للجواب والمعرفة .

صلة هذه الآية بالآيات المجاورة وهو على شعبتين :

الشعبة الأولى : صلة هذه الآية بالآيات السابقة لها ، وهي على

وجوه:

الوجه الأول : صلة هذه الآية بالآية السابقة ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ

قَاتَل فِيهِ قُلٌّ قَاتَل فِيهِ كَيْبَرٌ وَصَدُّ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ
عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يَقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ

إِنْ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١﴾، وفيه مسائل :

المسألة الأولى : ابتدأت آية السياق بالجملة الخبرية من فعل وفاعل ومفعول به والتي تجمعها كلمة واحدة (يسألونك) أما آية البحث فابتدأت بالحرف المشبه بالفعل الذي يفيد والجامع بينهما من وجوه :

الأول : الخبر.

الثاني : التوكيد .

الثالث : صبغة القرآنية .

الرابع : موضوع الإيمان .

الخامس : الحكم بالثواب والجزاء الحسن للمؤمنين .

المسألة الثانية : بعد أن أخبرت آية السياق عن سؤال قوم للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم عن الشهر الحرام ابتدأت آية البحث بذكر المؤمنين لبيان قانون وهو أن السائلين للنبي هم المسلمون ليكون من معاني الجمع بين الآيتين وجوه :

الأول : يسأل المؤمنون عن أمور دينهم .

الثاني : يسعى المسلمون في التفقه في أمور الدين .

الثالث : تسليم المسلمين بأن النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم

﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ (٢)، فلا يخاف من

الذين كفروا وهجومهم إنما يخبر عن أسئلة المسلمين بخصوص الشهر الحرام والقتال عن الله عز وجل وهو سبحانه الذي حرم القتال في الشهر الحرام مطلقاً ، وهو الذي أنزل آية السياق للتقييد والإستثناء ومنع الحرج

(١) سورة البقرة ٢١٧.

(٢) سورة النجم ٣-٤.

عن المسلمين فلا يتركون الدفاع بسبب الشهر الحرام ، قال تعالى ﴿وَلَا تَقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾^(١).

الرابع : من مصاديق قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ الذي أبتدأت به آية البحث سؤال النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم عن أمور الدين والدنيا ، ومن اسئلة المؤمنين ما ورد في قوله تعالى ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِنَّهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَّفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾* في الدنيا والآخرة ويسألك عن اليامى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ^(٢) ، فمن أصل خمس عشرة مرة ورد فيها لفظ (يسألك) تضمنت الآيات أعلاه ثلاثة منها وقد وردت هاتان الآيتان بعد آية البحث التي تفصل بينهما وبين آية السياق ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾.

وورد فيها السؤال عن كل من:

الأول : الخمر .

الثاني : الميسر وهو القمار .

الثالث : الذي ينفقه المسلمون ليدل قوله تعالى ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ﴾ على تسليم المسلمين بوجوب النفقه وإقتران هذا الوجوب بالإيمان.

(١) سورة البقرة ١٩٥.

(٢) سورة البقرة ٢١٩-٢٢٠.

الرابع : سؤال المسلمين عن اليتامى وكيفية المعاملة معهم ، ولما نزل قوله تعالى ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ﴾^(١)، تخرج المسلمون من إختلاط أموال اليتامى الذين لهم الوصاية عليهم مع أموالهم ، وصاروا يعزلونها وبما لحقها اليتامى الضرر والتعطيل والتلف بسبب هذا العزل فشكوا الى النبي صلى الله عليه وآله وسلم الأمر فانزل الله ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾^(٢)، فقام المسلمون بخلط أموال اليتامى مع أموالهم مع قيد التقوى والأمانة .

المسألة الثالثة : لقد كان سبب نزول آية السياق سؤال المسلمين للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم عن الشهر الحرام والقتال فيه ، ووردت الآية باسم الجنس (الشهر الحرام) والمراد الأشهر الأربعة رجب ، وذو القعدة وذو الحجة ، ومحرم ، من كل سنة قمرية ، والى يوم القيامة . وهو من الإعجاز في بقاء القرآن غضاً طرياً ﴿مَا دَامَتُ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾^(٣).

أما آية البحث فأخبر الله عز وجل فيها عن حال المؤمنين والمهاجرين في سبيل الله ، لتكون الصلة بينهما من وجوه :

الأول : موضوعية الشهر الحرام بالنسبة للذين آمنوا في عباداتهم ومعاشاتهم .

الثاني : تهيئ المسلمين لغدر الذين كفروا في الشهر الحرام ، قال تعالى ﴿خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا﴾^(٤).

(١) سورة النساء .٢

(٢) سورة البقرة .٢٢٠

(٣) سورة هود .١٠٧

(٤) سورة النساء .٧١

الثالث : يسأل المهاجرون والأنصار رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن المسائل والأحكام وهذا السؤال من مصاديق بداية آية البحث (أن الذين آمنوا) لدلالة السؤال على سنخية الإيمان من وجوه :

أولاً : الإيمان برسالة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

ثانياً : التصديق بنزول القرآن من عند الله وفي التنزيل ﴿وَأَوْحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنَ لِأُنذِرْكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَتَيْكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُهُ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾^(١).

ثالثاً : الإيمان بأن الدفاع عن النبوة والتنزيل حق وواجب .

رابعاً : عدم الخشية من الذين كفروا وهجومهم المتكرر ، قال تعالى ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قَتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾^(٢).

المسألة الرابعة : لقد ذكرت آية البحث الذين هاجروا وابتدأت آية السياق بقوله تعالى ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾^(٣) لتأكيد حقيقة وهي أن الذين هاجروا من مكة وغيرها إلى المدينة والحبشة إنما هربوا بينهم وأبدانهم واجتنبوا القتال والغزو ، ولم يلجأوا إلى الإغتيال ونحوه ، لقد واجهوا عداء قريش بالإيمان والهجرة ، وفيه زجر للذين كفروا ومنع من الإصرار على العداء للإسلام ومحاربة النبوة والتنزيل ، لقد ذكوت آية البحث قلة كلماتها كلاً من :

الأول : الذين آمنوا .

(١) سورة الأنعام ١٩.

(٢) سورة آل عمران ١٦٩.

(٣) سورة البقرة ٢١٧.

الثاني : الذين هاجروا .

الثالث : الذين جاهدوا .

وبين كل اثنين منهم عموم خصوص مطلق فالذين هاجروا أضعاف الذين آمنوا ، والذين جاهدوا أخص من الذين هاجروا ، ويحتمل صدور السؤال عن الشهر الحرام من كل من :

الأول : عامة الذين آمنوا .

الثاني : الأنصار من الأوس والخزرج .

الثالث : المهاجرون .

الرابع : خصوص المجاهدين في سبيل الله الذين تذكرهم آية البحث . ولا تعارض بين هذه الوجوه ، إذ أن القتال في الشهر الحرام مسألة ابتلائية تخص المسلمين والمسلمات عموماً ، بل تشمل يهود المدينة والمنافقين ، إذ كان كفار قريش ينوون استباحة المدينة والعبث بها ، ولا ينجو حيثئذ حتى الذين لهم صلوات وتعاون مع الذين كفروا ، قال تعالى ﴿وَأَقْرَابُونَ لَا تَصْنَعُ الَّذِينَ الظَّالِمُونَ مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾^(١).

المسألة الخامسة : لقد أخبرت آية السياق عن الصد عن سبيل الله في الشهر الحرام ، من المتسالم عليه أن هذا الصد من الذين كفروا ، وجاءت آية البحث لتخبر عن صده ، وما يدفعه ويحول دون ترشح الضرر عنه إذ أخبرت عن وجود أمة مؤمنة بالله ورسوله ، ومهاجرين ومجاهدين في سبيل الله .

ومن الإعجاز في المقام أن دخول أي فرد الإسلام ذكراً أو أنثى صرفاً للقتال ومانعاً من غزو المشركين للمدينة ، وهو من أسرار توالي نزول آيات القرآن وأجتهاد النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في الدعوة إلى

الله والمنادة في المسجد الحرام وأسواق مكة وموسم الحج بكلمة التوحيد (قولوا لا إله إلا الله تفلحوا) .

وتلقيه الأذى في هذه الدعوة لقاعدة تقديم الأهم على المهم ولأن هذا الأذى أقل ضرراً من القتال والغزو ، قال تعالى ﴿لَنْ يَضُرُّكُمْ إِلَّا أذى﴾^(١).

المسألة السادسة : تقديم الجمع بين آية البحث وأول آية السياق على

وجوه :

الأول : يسألك الذين آمنوا عن الشهر الحرام .

الثاني : يسألك الذين سيؤمنون عن الشهر الحرام فقد ترى إنساناً في جمع الذين كفروا ويصر على القتال ومحاربة النبي وأصحابه ، فيدخل الإسلام فيأتي للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ليسأل الشهر الحرام يصح القتال فيه .

الثالث : يسألك الذين هاجروا عن الشهر الحرام هل فيه قتال ؟ لبيان أن هجرتهم في سبيل الله ، وخالصة لوجهه ، وهل يشترط قصد القرية في الهجرة أم يكفي السياحة ومغادرة الوطن ، الجواب هو الثاني ، وفي التنزيل بخصوص النبي لوط قال ﴿إِنِّي مهاجرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^(٢).

الرابع : يسألك الذين سيهاجرون عن الشهر الحرام هل فيه قتال ودفاع ، فتفضل الله عز وجل وأنزل آية السياق لتكون جواباً حاضراً لمن يسأل عن حرمة وقدسية الشهر الحرام بلزوم أخذ الحائطة فيه والإحتياط سبيل النجاة .

(١) سورة آل عمران ١١١ .

(٢) سورة العنكبوت ٢٦ .

الخامس : يسألك الذين جاهدوا في سبيل الله عن الدفاع في الشهر الحرام ، لأن المتوارث حرمة القتال فيه ، فهل نسخ الإسلام هذه الحرمة وأبطلها .

فجاءت آية السياق بتأكيد حرمة الأشهر الحرم بقوله تعالى ﴿سَأَلْنَاكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾ إذ أثبتت الآية صفة الحرام للشهر ثم أخبرت عن وقوع القتال فيه مما يدل على أن الذي يختاره هم غير المسلمين لتخبر الآية المسلمين عن أمور:

الأول : لا يجعل الذين كفروا للشهر الحرام حرمة .

الثاني : إصرار الذين كفروا على محاربة النبي صلى الله عليه وآله وسلم حتى في الشهر الحرام ، وهو من عمومات قوله تعالى ﴿لَا يُرْفُوزَ فِيهِ مُؤْمِنٌ إِلَّا وَالِدِمَّةً﴾^(١).

الثالث : وجوب الإمتناع عن الغفلة بخصوص الشهر الحرام والقتال فيه .

الرابع : فضل الله على المسلمين بتحذيرهم وإنذارهم من هجوم الذين كفروا في الشهر الحرام .

الخامس : تعدي الذين كفروا على الحرمات وإصابتهم بالجهالة بالتحدي لقواعد السلم المتوارثة عن الأنبياء .

السادس : جمع المشركين بين الصد عن سبيل الله والسعي للقتال في الشهر الحرام وعدم التقيد بحرمة المسجد الحرام .

وتقدير الجمع بين أول آية البحث وأول آية السياق على وجوه :

الأول : يا أيها الذين آمنوا اعلموا بأن في الشهر الحرام قتالاً .

الثاني : يا أيها الذين آمنوا أسألو عن الشهر الحرام .

الثالث : يا أيها الذين آمنوا أسألو النبي عن أمور دينكم .

المسألة السابعة : لقد تضمنت آية البحث الثناء على المسلمين ووصفتهم بالمؤمنين بينما جاءت آية السياق بدم الذين كفروا من قريش، وأخبرت عن إصرارهم على الكفر والجحود ، بقوله تعالى ﴿وَكُفْرِهِ﴾ أي أن مشركي قريش يصرون على الكفر بالله في الشهر الحرام ، ليكون من إعجاز الآية بيان قانون وهو لزوم إكرام الشهر الحرام بالتوبة والإنابة ، ولا يصح استقباله بالكفر والإقامة عليه مدة الأشهر الحرام ليكون من مقاصد الآية دعوة المشركين في كل يوم من أيام الشهر الحرام الى التوبة والكف عن مفاهيم الضلالة ، لتبين الآية الإثم العظيم الذي يقيم عليه الذين كفروا وكيف أن الله عز وجل جعل الشهر الحرام ابتداء واستدامة وانتهاء لأيامه تذكيراً بوجوب الإيمان والصلاح واجتناب القتال والغزو في الشهر الحرام.

المسألة الثامنة : لقد أخبرت آية البحث عن إيمان طائفة من الناس وهجرة شطر منهم إلى الحبشة وإلى المدينة ، وتضمنت آية البحث عن قيام المشركين بالصد عن سبيل الله لبيان قانون المؤمنين بالأجر والثواب العظيم لأنهم اختاروا الإيمان والهجرة في سبيل الله مع وجود أمة تصد عن سبيل الله ، ومن مصاديق الله الإيمان خاصة إيمان السابقين للناس من المهاجرين والأنصار ، قال تعالى ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾^(١).

وهل ذات الإيمان في بدايات الإسلام جهاد ، الجواب نعم لإفادة واو العطف في آية البحث والإتحاد والقصد من جهات :
الأولى : المراد من الذين آمنوا هم الذين هاجروا ومنهم المؤمنات

(١) سورة الواقعة ١٠-١١ .

اللاتي هاجرن إلى الحبشة وإلى المدينة ، قال تعالى ﴿مُهَاجِرَاتٍ فَاْمْتَحِنُوهُنَّ﴾^(١).

الثانية : الذين آمنوا هم الذين جاهدوا في سبيل الله .

الثالثة : إرادة المعنى الجامع وهو الإتحاد بالأشخاص مع تعدد الوصف ، فالذين آمنوا هم الذين هاجروا والذين جاهدوا في سبيل الله .

الرابعة : الذين آمنوا غير الذين هاجروا وغير الذين جاهدوا في سبيل الله كما بالنسبة للذي آمن وبقي في مكة .

الخامسة : الذين آمنوا ولم يهاجروا مثل الأنصار ، لأن المدينة بلدة مهاجر إليها .

وذات الإيمان هو جهاد وفي سبيل الله وهو هجرة من مستنقع الكفر إلى مقامات الهدى والرشاد ، إلا أن القدر المتيقن من المراد من الهجرة هو مغادرة الديار والأوطان .

المسألة التاسعة : ذكرت آية البحث رجاء المؤمنين رحمة الله ، وهل الشهر الحرام من رحمة الله ، الجواب نعم ، وهو رحمة بالناس جميعاً لما فيه من المسلم والتدبر في الآيات الكونية ، وحج بيت الله الحرام ، ثم بعث الله عز وجل النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم لجذب الناس لمنازل الإيمان وتعاهد إكرام الشهر الحرام ويرجو المؤمنون رحمة الله في الدنيا والآخرة ، ومن رحمة الله بلحاظ آية السياق أمور :

الأول : التوجه بالسؤال إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، فهذا السؤال إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم فهذا السؤال من رحمة الله ، وكذا الجواب عليه ليأتي الجواب على شعب :

الشعبة الأولى : تفضل الله عز وجل بالإيحاء إلى النبي محمد صلى الله

عليه وآله وسلم بالجواب.

الثانية : مجي الجواب بما هو أعم من موضوع السؤال .

الثالثة : نزول القرآن بالجواب كما في آية البحث .

الثاني : من رحمة الله دفع القتال في الشهر الحرام وغيره ، فان قلت

قد ورد قوله تعالى ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ ﴾^(١) وتعني الكتابة الغرض

واللزوم .

والجواب هذا صحيح ولكن الدعاء سور الموجبة الكلية ، وهو نافع

في كل باب ، ومن مصاديق قوله تعالى ﴿ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ

الْكِتَابِ ﴾^(٢) .

الثالث : صرف أذى قريش ومنعهم من صدّ المسلمين عن الإيمان

وعن أداء الفرائض والعبادات وعن الهجرة .

الرابع : فضح الذين كفروا .

الخامس : هداية الناس للإسلام .

السادس : توالي نزول آيات القرآن التي تفضح الذين كفروا لأن هذا

الفضح منع لهم من الصدّ عن سبيل الله .

السابع : تقريب أوان فتح مكة وإزاحة الذين كفروا عن ولايته .

الثامن : هدم الأصنام التي كان المشركون يتزلفون إليها .

التاسع : لقد ذكرت آية السياق إخراج الذين كفروا المؤمنين من مكة

قهراً بقوله تعالى ﴿ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ ﴾^(٣) ومن رحمة الله عودة المهاجرين

إلى مكة فاتحين ، وهو الذي تم بفضل الله في شهر رمضان من السنة

(١) سورة البقرة ٢١٦ .

(٢) سورة الرعد ٣٩ .

(٣) سورة البقرة ٢١٧ .

الثامنة للهجرة .

(عن ابن عباس، قال: نحر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم الحديبية سبعين بدنة فيها جمل لأبي جهل، فلما صدت عن البيت حنت كما تحن إلى أولادها .

{ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمَنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا }^(١).

التاسع : من رحمة الله التي يرجوها المؤمنون بلحاظ آية السياق الثبات على الدين والسلامة من الإرتداد والذي هو قبيح بذاته وفيه ضرر وإضرار .

العاشر : إرادة الأمن والنجاة من الفتنة التي يسعها إليها الذين كفروا في مكة والمدينة ، وبين الفتنة والقتال في الشهر الحرام عموم وخصوص مطلق ، فالفتنة أشد وأمر .

الحادي عشر : لقد أختار الذين كفروا الخسران في الدنيا والآخرة ، فجاءت آية البحث للإنذار من إتباعهم أو الإنقياد لهم وإن كانوا أصحاب الشأن والجاه والمال في مكة .

الثاني عشر : لقد أختتمت آية البحث بقوله تعالى ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(٢) بينما أختتمت آية السياق بالوعيد للذين اختاروا ويختارون الكفر بقوله تعالى ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾^(٣) ومن الإعجاز مجئ قوله

(١) تفسير ابن كثير ٣٥٥/٧ .

(٢) سورة البقرة ٢١٨ .

(٣) سورة البقرة ٢١٧ .

تعالى ﴿غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ بعد الوعيد بالعذاب الأليم للذين كفروا لإرادة بعثهم من التوبة والإنابة .

المسألة العاشرة : لقد أخبرت آية البحث عن رجاء الذين آمنوا لرحمة الله وفيه إنذار للذين كفروا بأنهم عاجزون عن الإضرار بالمؤمنين لذا قال تعالى ﴿لَنْ يَضُرُّكُمْ إِلَّا أذى﴾ (١) .

لقد أخرج الذين كفروا النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين والمسلمات من مكة كما في آية السياق ﴿وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ﴾ (٢) وجاءت آية البحث ببيان قانون وهو استدامة رجاء المؤمنين رحمة .

ليكون من معاني الهجرة أنها من رحمة الله ، وقد تقدم قبل آيتين قوله تعالى ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ (٣) ومن رحمة الله هزيمة الذين كفروا في القتال بعد اصرارهم عليه ، ومن الإعجاز في آية البحث أنها لم تقيد متعلق وموضوع وجهه رحمة الله في الآية ، ومنه رحمة الله بالمؤمنين ، ورحمة الله بأهل الكتاب ورحمة الله بالناس جميعاً .

الوجه الثاني : صلة آية البحث بالآية قبل السابقة ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٤) وفيه مسائل :

الأولى : ابتدأت آية السياق بصيغة الجملة الخبرية ولغة الخطاب الموجه

(١) سورة آل عمران ١١١ .

(٢) سورة البقرة ٢١٦ .

(٣) سورة آل عمران ١١١ .

(٤) سورة البقرة ٢١٦ .

إلى المسلمين والمسلمات ، وأستمرت بذات اللغة إلى آخرها ، وتقديرها على وجوه :

أولاً : يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القتال دفاعا .

ثانياً : يا أيها الذين آمنوا القتال كره لكم ، لبيان قانون وهو أن الله عز وجل يعلم ما في القلوب مجتمعة ومتفرقة ، وفي التنزيل ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا﴾^(١) .

وهل يمكن القول أن كره القتال عند طائفة من المسلمين أو الأكثر منهم فوردت الآية بصيغة العموم ، الجواب لا ، فالأصل هو العموم إلا مع الدليل على ورود التخصيص والتقييد .

ثالثاً : يا أيها الذين آمنوا عسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم .

رابعاً : يا أيها الذين آمنوا عسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم .

خامساً : يا أيها الذين آمنوا الله يعلم وانتم لا تعلمون .

المسألة الثانية : لقد لاقى المسلمون الأذى في مكة من كفار قريش وهاجروا إلى الحبشة والمدينة ، كما أخبرت آية البحث لتتضمن آية السياق قانوناً وهو أن الهجرة ليست نهاية الأذى بل سيأتي بعدها القتال بسبب غزو المشركين للمدينة ، ومن أجل ألا يقول المهاجرون لولا بقينا في مكة أو يقول الأنصار لو لم تتعهد بالذب عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وما فيه من القتال مع قريش .

وجاءت آيات البشارة بالنصر والغلبة ، قال تعالى ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ

وَيُلَوِّزُ الدُّبْرَ﴾^(٢) وكانت البشارات بالنبى محمد صلى الله عليه وآله وسلم تترى على ألسنة بعض علماء أهل الكتاب وعلى المتألهين من العرب .

(١) سورة الأحزاب ٥١ .

(٢) سورة القمر ٤٥ .

وعن محمد بن إسحاق، حدثني بعض أصحابنا من أهل العلم عن الحسن بن أبي الحسن البصري أنه قال: كان الجارود بن المعلى بن حنش بن معلى العبدى نصرانيا حسن المعرفة بتفسير الكتب وتأويلها، عالما بسير الفرس وأقاويلها، بصيرا بالفلسفة والطب، ظاهر الدهاء والادب، كامل الجمال ذا ثروة ومال، وإنه قدم على النبي صلى الله عليه وسلم وافدا في رجال من عبد القيس ذوى آراء وأسنان وفصاحة وبيان وحجج وبرهان، فلما قدم على النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقف بين يديه وأشار إليه وأنشأ يقول: يا نبي الهدى أتتك رجال ❖ قطعت فدفا وآلا فألا وطوت نحوك الصحاح تهوى ❖ لا تعد الكلال فيك كلالا كل بهماء قصر الطرف عنها ❖ أرقتها قلاصنا إرقالا وطوتها العتقا يجمع فيها، بكماة كأنجم تتلألأ تبتغى دفع بأس يوم عظيم ❖ هائل أوجع القلوب وهالا ومزادا لمحشر الخلق طرا ❖ وفراقا لمن تمادى ضلالا نحو نور من الاله وبرها ❖ ن وبر ونعمة أن تنالا خصك الله يا ابن أمانة الخ ❖ ير بها إذ أتت سجالا سجالا فاجعل الحظ منك يا حجة الله جزيلا لا حظ خلف أحوالا قال: فادناه النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقرب مجلسه وقال له: يا جارود لقد تأخر الموعد بك وبقومك.

فقال الجارود: فداك أبى وأمى، أما من تأخر عنك فقد فاته حظه وتلك أعظم حوبة وأغلظ عقوبة، وما كنت فيمن رآك أو سمع بك فعداك واتبع سواك وإنى الآن على دين قد علمت به، قد جئتك وها أنا تاركه لدينك، أفذلك مما يمحص الذنوب والمآثم والحبوب، ويرضى الرب عن المربوب؟ فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أنا ضامن لك ذلك، وأخلص الآن لله بالوحدانية ودع عنك دين النصرانية.

فقال الجارود: فداك أبى وأمى مد يدك فأنا أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أنك محمد عبده ورسوله.

قال: فأسلم وأسلم معه أناس من قومه.

فسر النبي صلى الله عليه وآله وسلم بإسلامهم، وأظهر من إكرامهم ما سروا به وابتهجوا به.

ثم أقبل عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: أفيكم من يعرف قس بن ساعدة الايادي؟

فقال الجارود: فداك أبى وأمى كلنا نعرفه، وإنى من بينهم لعالم بخبره واقف على أمره.

كان قس يا رسول الله سبطا من أسباط العرب، عمر ستمائة سنة تقفر منها خمسة أعمار في البراري والقفار، يضحج بالثسيح على مثال المسيح، لا يقره قرار ولا تكنه دار ولا يستمتع به جار، كان يلبس الامساح ويفوق السياح، ولا يفتر من رهبانته، يتحسى في سياحته بيض النعام ويأنس بالهوام، ويستمتع بالظلام، يبصر فيعتبر، ويفكر فيختبر. فصار لذلك واحدا تضرب بحكمته الامثال، وتكشف به الاهوال، أدرك رأس الحواريين سمعان.

وهو أول رجل تأله من العرب ووجد، وأقر وتعبد، وأيقن بالبعث والحساب، وحذر سوء المآب، وأمر بالعمل قبل الفوت، ووعظ بالموت، وسلم بالقضا، على السخط والرضا، وزار القبور، وذكر النشور، وندب بالاشعار، وفكر في الاقدار، وأنبا عن السماء والنماء، وذكر النجوم وكشف الماء، ووصف البحار، وعرف الآثار، وخطب راجبا، ووعظ دائبا، وحذر من الكرب ومن شدة الغضب، ورسل الرسائل، وذكر كل هائل، وأرغم في خطبه، وبين في كتبه، وخوف الدهر، وحذر الازر، وعظم الامر، وجنب الكفر، وشوق إلى الحنيفية، ودعا إلى اللاهوتية.

وهو القائل في يوم عكاظ: شرق وغرب، ويتم وحزب، وسلم وحرب، ويابس ورطب، وأجاج وعذب، وشموس وأقمار، ورياح وأمطار، وليل ونهار، وإناث وذكور، وبرار وبحور، وحب ونبات، وآباء وأمهات، وجمع وأشتات، وآيات في إثرها آيات، ونور وظلام، ويسر وإعدام، ورب وأصنام، لقد ضل الانام، نشو مولود، ووأد مفقود، وتربية محصود، وفقير وغنى، ومحسن ومسئ،

تبا لارباب الغفلة، ليصلحن العامل عمله، وليفقدن الآمل أمله، كلا بل هو إله واحد، ليس بمولود ولا والد، أعاد وأبدى، وأمات وأحيا، وخلق الذكر والانثى، رب الآخرة والاولى.

أما بعد: فيا معشر إياد، أين ثمود وعاد؟ وأين الآباء والاجداد؟ وأين العليل والعواد؟ كل له معاد، يقسم قس برب العباد، وساطح المهاد، لتحشرن على الانفراد، في يوم التناد، إذا نفخ في الصور، ونقر في الناقور، وأشرقت الارض، ووعظ الواعظ، فانتبذ القانط وأبصر اللاخط، فويل لمن صدف عن الحق الاشهر، والنور الازهر، والعرض الاكبر، في يوم الفصل، وميزان العدل، إذا حكم القدير، وشهد النذير. وبعد النصير، وظهر التقصير، ففريق في الجنة وفريق في السعير". وهو القائل:

هاج للقلب من جواه اذكار ... وليالٍ خلالهن نهار
ونجوم يحثها قمر اللي ... ل وشمس في كل يوم تدار
ضوؤها يطمس العيون وإرعا ... د شديد في الخافقين مطار
وغلام وأشمت ورضيع ... كلهم في التراب يوماً يزار
وقصور مشيدة حوت الحثي ... ر وأخرى خلت فهي قفار
وكثير مما تقصر عنه ... جوسة الناظر الذي لا يحار
والذي قد ذكرت دل على الل ... ه نفوساً لها هدى واعتبار

قال: فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: مهما نسيت فلست أنساه بسوق عكاظ، واقفا على جمل أحمر يخطب الناس: اجتمعوا فاسمعوا، وإذا سمعتم فعوا، وإذا وعيتم فانتفعوا، وقولوا وإذا قلتهم فاصدقوا، من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آت آت، مطر ونبات، وأحياء وأموات، ليل داج، وسماء ذات أبراج، ونجوم تزهى، وبحار تزخر، وضوء وضلام، وليل وأيام، وبر وآثام، إن في السماء خبرا، وإن في الأرض عبرا، يحار فيهن البصرا، مهاد موضوع، وسقف مرفوع، ونجوم تغور، وبحار لا تغور، ومنايا دوان، ودهر خوان، كحد النسطاس، ووزن القسطاس، أقسم قس قسما، لا كاذبا فيه ولا آثما، لئن كان في هذا الامر رضى، ليكونن سخط.

ثم قال: أيها الناس إن الله دينا هو أحب إليه من دينكم هذا الذى أنتم عليه، وهذا زمانه وأوانه.

ثم قال: مالى أرى الناس يذهبون فلا يرجعون، أرضوا بالمقام فأقاموا ؟ أم تركوا فناموا.

والتفت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إلى بعض أصحابه فقال: أيكم يروى شعره لنا ؟ فقال أبو بكر الصديق: فذاك أبى وأمى أنا شاهد له في ذلك اليوم حيث يقول: في الذاهين الاولي ❖ ن من القرون لنا بصائر لما رأيت موارد ❖ للموت ليس لها مصادر ورأيت قومي نحوها ❖ يمضى الاصاغر والاكابر لا يرجع الماضي إل ❖ ي ولا من الباقين غابر أيقنت أنى لا محا ❖ لة حيث صار القوم صائر قال: فقام إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم شيخ من عبد القيس عظيم الهامة، طويل القامة، بعيد ما بين المنكبين فقال: فذاك أبى وأمى، وأنا رأيت من قس عجبا.

فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ما الذى رأيت يا أخا

بنى عبد القيس ؟

فقال: خرجت في شيتي أربع بعيرا لى ند عنى أقفو أثره في تائف قفاف، ذات ضغاييس، وعرصات جشجات بين صدور جذعان، وغمير حوذان، ومهمه ظلمان، ورصيع أيهقان، فيينا أنا في تلك الفلوات أجول بسبسبها، وأرنق فددها، إذا أنا بهضبة في نشزاتها أراك كبات مخصوضلة وأغصانها متهدلة، كأن بريرها حب الفلفل وبواسق أقحوان، وإذا بعين خراة وروضة مدهامة ، وشجرة عارمة، وإذا أنا بقس بن ساعدة في أصل تلك الشجرة ويده قضيب، فدنوت منه وقلت له: أنعم صباحا. فقال: وأنت فنعم صباحك.

وقد وردت العين سباع كثيرة، فكان كلما ذهب سبع منها يشرب من العين قبل صاحبه ضربه قس بالقضيب الذى بيده. وقال: اصبر حتى يشرب الذى قبلك.

فدعرت من ذلك ذعرا شديدا، ونظر إلى فقال: لا تخف. وإذا بقبرين بينهما مسجد، فقلت: ما هذان القبران ؟ قال: قبرا أخوين كانا يعبدان الله عزوجل بهذا الموضع. فأنا مقيم بين قبريهما أ عبد الله بين قبريهما أ عبد الله حتى ألحق بهما. فقلت له: أفلا تلحق بقومك فتكون معهم في خيرهم وتباينهم على شرهم ؟ فقال لى: ثكلتك أمك ! أو ما علمت أن ولد إسماعيل تركوا دين أبيهم واتبعوا الاضداد وعظموا الانداد ؟ ! ثم أقبل على القبرين وأنشأ يقول:

خليلي هبا طالما قد قدتما ... أجدكما لا تقضيان كراكما
ألم تعلمنا أني بسمعان مفرد ... وما لي فيه من حبيب سواكما
أقيم على قبريكما لست بارحاً ... كطوال الليالي أو يجيب صدتاكما
كأنكما والموت أقرب غاية ... بجسمي في قبريكما قد أتاكما

فلو جعلت نفساً لتفسد وقاية... لجدت بنفسي أن تكون فداكما.
قال: فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: رحم الله قسا، أما
إنه سيبعث يوم القيامة أمة وحده.
وهذا الحديث غريب جدا من هذا الوجه وهو مرسل، إلا أن يكون
الحسن سمعه من الجارود.

والله أعلم.

وقد رواه البيهقي، والحافظ أبو القاسم ابن عساكر من وجه آخر من
حديث محمد ابن عيسى بن محمد بن سعيد القرشي الاخباري: حدثنا
أبي، حدثنا علي بن سليمان بن علي، عن علي بن عبد الله، وعن عبد
الله بن عباس رضی الله عنهما.

قال: قدم الجارود بن عبد الله فذكر مثله أو نحوه مطولا بزيادات كثيرة
في نظمه ونثره، وفيه ما ذكره عن الذي ضل بعيه فذهب في طلبه قال:
فبت في واد لا آمن فيه حتفى، ولا أركن إلى غير سيفى، أرقب الكواكب،
وأرمق الغيب، حتى إذا الليل عسعس، وكاد الصبح أن يتنفس، هتف
بى هاتف يقول: يا أيها الراقد في الليل الاجم ❖ قد بعث الله نبيا في الحرم
من هاشم أهل الوفاء والكرم ❖ يجلو دجيات الدياجى والبهم قال:
فأدرت طرفي فما رأيت له شخصا ولا سمعت له فحصا، قال فأنشأت

أقول: يا أيها الهاتف في داجى الظلم ❖ أهلا وسهلا بك من طيف ألم
بين هداك الله في لحن الكلم ❖ ماذا الذى تدعو إليه يغتتم ؟ قال: فإذا
أنا بنحنحة وقائل يقول: ظهر النور، وبطل الزور، وبعث الله محمدا
بالمور، صاحب النجيب الاحمر، والتاج والمغفر، والوجه الازهر،
والحاجب الاقمر، والطرف الاحور، صاحب قول شهادة أن لا إله إلا
الله، وذلك محمد المبعوث إلى الاسود والاييض أهل المدر والوير.

ثم أنشأ يقول: الحمد لله الذى ❖ لم يخلق الخلق عبث لم يخلنا يوما

سدى ❖ من بعد عيسى واكثرث أرسل فينا أحمدا ❖ خير نبي قد بعث صلى عليه الله ما ❖ حج له ركب وحث^(١).

المسألة الثالثة : تضمنت آية البحث الثناء على الذين هاجروا وجاهدوا بأن سعيهم وعملهم بقصد القرية إلى الله عز وجل ، ويمكن تقدير الآية بلحاظ آية السياق على وجوه :

أولاً : يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القتال في سبيل الله ، قال تعالى ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾^(٢) .
ثانياً : يا أيها الذين آمنوا القتال كره لكم مع أنه في سبيل الله ، لبيان حرمة القتال إذا لم يكن في سبيل الله ، وفيه دعوة لإجتنب الغزو والقتال إبتداءً .

ثالثاً : عسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم في سبيل الله .

رابعاً : عسى أن تكرهوا شيئاً في سبيل الله وهو خير لكم في سبيل الله .

خامساً : عسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم في عاقبة الأمور ، لذا أختتمت الآية بقوله تعالى ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٣).

لقد وقع القتال للمسلمين وجرت المعارك بينهم وبين الذين كفروا ليكون من معاني الخير في المقام وجوه :

الأول : الفترة الطويلة بين معركة وأخرى فلم تقع أول المعارك بين المسلمين والمشركين إلا بعد هجرة النبي محمد إلى المدينة بأكثر من ثمانية

(١) ابن كثير / السيرة النبوية ١/١٤٤.

(٢) سورة النساء ٧٦.

(٣) سورة البقرة ٢١٦.

عشر شهراً .

الثاني : سرعة إنتضاء المعركة ، فحالما تبدأ المعركة وتستمر لساعات حتى يهزم الذين كفروا أو ينسحبوا ويلحقهم الخزي في الدنيا والآخرة ، قال الله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا﴾ (١) .

الثالث : خروج النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه من المعركة منتصرين ، وهذا النصر من الشواهد على صدق نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم لأنه خلاف الحسابات من جهة التباين بين كثرة عدد أفراد جيش العدو وأسلحتهم ورواحلهم وقلة عدد المسلمين وضعف أسلحتهم ، ليكون من مصاديق قوله تعالى ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ (٢)(٣) .

الوجه الثالث : صلة هذه الآية بقوله تعالى ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ فَلِلَّهِ الدِّينُ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَأُولِي السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ (٤) وفيه مسائل :

المسألة الأولى : تقديم الجمع بين الآيتين إن الذين آمنوا يسألونك ماذا ينفقون (لبيان صدق إيمان المسلمين بأن توجهوا إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالسؤال عن الإنفاق بارادة قصد القرية إلى الله ، ولدفع الحرج والضرر .

الشعبة الثانية : صلة هذه الآية بالآيات المجاورة التالية ، وفيها وجوه :

(١) سورة الاحزاب ٥٧ .

(٢) سورة القمر ٤٥ .

(٣) أنظر الجزء السادس والسبعين بعد المائة من هذا السفر المبارك .

(٤) سورة البقرة ٢١٥ .

الوجه الأول : صلة آية البحث بالآية التالية وهو قوله تعالى ﴿يَسْأَلُونَكَ

عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِنَّهُمَا كَبِيرٌ مِّنْ نَّفَعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾^(١) وفيه مسائل :

المسألة الأولى : ورد لفظ ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ ست مرات في ثمان آيات من

مجموع خمس عشرة مرة ورد فيها هذا اللفظ في القرآن ويمكن تسمية الآيات (٢١٥-٢٢٢) ، وإذ جاء قوله تعالى ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ ماذا ينفقون متحداً في موضوعه ووارداً بخصوص الإنفاق ، ووردت آية السياق بالسؤال عن كل من :

الأول : الخمر .

الثاني : الميسر .

كما ذكرت آية السياق سؤالاً ثانياً موجهاً إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في السؤال عن سنخية الموضوع والمال الذي ينفق فأخبرت الآية بأن الذي ينفق هو الزائد عن النفقة الواجبة على الذات والعيال ، ولا يتصدق الإنسان بكل ما عنده ثم يسأل الناس أو يطلب الإقتراض .

وهو من معاني الجمع بين هذه الآية وقوله تعالى قبل أربع آيات

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِللَّذِينَ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾^(٢) .

(عن جابر بن عبد الله قال: أتى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رجلٌ ببيضة من ذهب أصابها في بعض المعادن، فقال: يا رسول الله، خذ هذه مني صدقة، فوالله ما أصبحت أملك غيرها! فأعرض عنه، فأتاه من

(١) سورة البقرة ٢١٩ .

(٢) سورة البقرة ٢١٥ .

ركنه الأيمن فقال له مثل ذلك، فأعرض عنه. ثم قال له مثل ذلك، فأعرض عنه. ثم قال له مثل ذلك، فقال: هاتها! مغضباً، فأخذها فحذفه بها حذفة لو أصابه شجّه أو عقره، ثم قال: "يجيء أحدكم بماله كله يتصدق به، ويجلس يتكف الناس!! إنما الصدقة عن ظهر غنى." (١).

المسألة الثانية : تضمنت آية البحث الثناء على الذين آمنوا واختاروا سبيل الهداية ، فجاءتهم الرحمة في الآية التي تعقبت آية البحث بالنهي عن شرب الخمر ولعب القمار ، وكان سؤال المسلمين عنهما بعث للسائلين من عند الله وكأنه سبحانه هو الذي قال للمسلمين اسألوا رسولكم عن الخمر والميسر كي أنزل فيها آية تنفع أجيال المسلمين وأهل الأرض إلى يوم القيامة .

المسألة الثالثة : من خصائص المؤمنين الذين هاجروا جهاد النفس والوقاية من أتباع الهوى ، فأخبرت الآية التالية بأن الخمر والميسر من الهوى والغواية لما فيها من الإثم والمعصية والضلالة .

لقد أختار المؤمنون اتباع النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم للنجاة من أوزار الإثم ، فجاءت آية السياق بالنهي عن أسبابه في الفعل الشخصي بارتكاب ما نهى الله عز وجل عنه ، ومن إعجاز آية السياق تعيين مقدار الإثم في الخمر والميسر بأنه كبير في ضرره والأثر الذي يترتب عليه .

المسألة الرابعة : ما أن أخبرت آية البحث عن إيمان المسلمين واختيارهم الهجرة في سبيل الله حتى تفضل سبحانه وأثنى عليهم مرة أخرى في آية السياق باقدامهم على سؤال النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم عن أمور دينهم وديناهم بقوله تعالى ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾

(١)

وذكرت آية السياق وجود منافع في الخمر والميسر في ثمنه وتجارته لذا ذكرت الآية ﴿مَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ وكان المراد الذين يصنعون ويبيعون الخمر من غير المسلمين إذ نهى النبي صلى الله عليه وآله وسلم عنهما .

(عن عبدالله بن عمر : أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لعن الخمر ، وعاصرها ، ومعتصرها ، وبائعها ، ومبتاعها ، وحاملها ، والمحمولة إليه ، وساقها ، وشاربها ، وأكل ثمنها .

وأخرج الحاكم وصححه والبيهقي عن ابن عباس . سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : أتاني جبريل فقال : يا محمد إن الله لعن الخمر ، وعاصرها ، ومعتصرها ، وشاربها ، وحاملها ، والمحمولة إليه ، وبائعها ، وساقها ، ومسقيها) (٢).

والمراد من المنافع حال الطرب واللذة قبل أن يحرمها وبعد التحريم صارت اللذة بشرب الخمر حزناً ومصدراً للكآبة لذات الشارب وغيره .

قال الأعشى في صفة الخمر :

(لَنَا مِنْ ضَحَاهَا خُبْتُ نَفْسٍ وَكَأَبَةٌ... وَذِكْرِي هُمُومٌ مَا تُغِبُّ أذَاتَهَا...
وَعِنْدَ الْعِشَاءِ طِيبُ نَفْسٍ وَلَذَّةٌ... وَمَالٌ كَثِيرٌ، عِزَّةٌ نَشَوَاتُهَا
وكما قال حسان:

فَنَشْرِبُهَا فَتَتْرُكُنَا مَلُوكًا... وَأَسْدًا، مَا يَنْهِنُنَا اللَّقَاءُ

وأما منافع الميسر ، فما يصيبون فيه من أنصباء الجزور. وذلك أنهم كانوا يياسرون على الجزور، وإذا أفلج الرجل منهم صاحبه نحره، ثم اقتسموا أعشاراً على عدد القداح ، وفي ذلك يقول أعشى بني ثعلبة:

(١) سورة البقرة ٢١٩.

(٢) الدر المنثور ٤٦٧/٣ .

وَجَزُورٍ أَيْسَارٍ دَعَوْتُ إِلَى النَّدَى... وَنِيَاطٍ مَقْفَرَةٍ أَخَافُ ضَلَالَهُ (١).

المسألة الخامسة : لم تذكر آية البحث الإنفاق إنما سألت الإيمان والهجرة والجهاد في سبيل الله لبيان حال الفقر والعوز التي كان عليها المسلمون في بداية البعثة والهجرة إلى المدينة ، ثم أخبرت الآية التالية عن سؤالهم عن الإنفاق في سبيل الله مما يدل على حال السعة والغنى التي صار عليها المسلمون ، وهل سؤال المسلمين عن الإنفاق سؤال في هذه الآية أو الآية (٢١٥) من الشكر لله عز وجل ، الجواب نعم ، ليتفضل الله تعالى ويحثهم على الإنفاق وبر الوالدين وتعاهد صلة الرحم لقوله تعالى ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلَّهِ الدِّينُ﴾ (٢).

المسألة السادسة : من وجوه تقدير الجمع بين آية البحث وآية السياق : يسألك الذين آمنوا ماذا ينفقون من أموالهم قل العفو) أي الزائد والفصل .

وجاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقال (يا رسول الله عندي خير ،

قال : أنفقه على نفسك قال : عندي آخر .

قال : انفقه على أهلِكَ قال : عندي آخر .

قال : أنفقه على ولدك قال : عندي آخر .

قال : أنفقه على والديك قال عندي آخر .

قال : أنفقه على قرابتك قال : عندي آخر قال : أنت أبصر .

وروى محمود بن سهل عن عامر بن عبد الله قال : أتى رسول الله رجل بيضة من ذهب (استلها) من بعض المعادن فقال : يا رسول الله خذها مني صدقة .

(١) تفسير الطبري ٣٢٦/٤ .

(٢) سورة البقرة ٢١٥ .

فوالله ما أمسيت أملك غيرها،

فأعرض عنه،

فأتاه من ركنه الأيمن فقال له مثل ذلك فأعرض عنه. فأتاه من ركنه

الأيسر فقال له مثل ذلك فأعرض عنه،

ثم قال له مثل ذلك فقال مغضباً : هاتها فأخذها منه وحذفه بها حذفه

لو أصابه لفضجه أو عقره،

ثم قال : هل يأتي أحدكم بما يملكه ليتصدق به ويجلس يكفّف

الناس،

أفضل الناس ما كان عن طهر غني،

وليبدأ أحدكم بمن يعول. (١).

وقيل أن قوله تعالى ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوُ﴾ (٢) منسوخة ،

نسختها آية الزكاة الواجبة ، قال تعالى ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ﴾

(٣) ويدل نظم الآية على استدامة الحمل بها ، وبين العفو المذكور فيها

وبين الصدقة الواجبة عموم وخصوص مطلق إذ أن العفو أعم وجاء عند

السؤال أما الزكاة فهي واجبة عن سؤال أو عدمه ، وليس فيها للعبد

إختيار ، قال تعالى ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ (٤) ومن معاني العموم بانفاق

العفو هو شمول الصدقة للحال الذي لم يصل إلى درجة النصاب مثل

نصاب الحنطة والشعير والتمر والزبيب وهو أوسق وكل وسقى ستون

صاع ونحو ثلاثة كيلو غرام ، ويكون المجموع نحو ثلاثمائة وخمسين كيلو

(١) الكشف والبيان للثعلبي ٤٤٦/١.

(٢) سورة البقرة ٢١٩.

(٣) سورة التوبة ٦٠.

(٤) سورة النور ٥٦.

غرام ، وقيل أقل من هذا العدد بلحاظ أن مقدار الصاع هو كيلوان وربع الكيلو .

الوجه الثاني : صلة آية البحث بقوله تعالى ﴿ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَتَوْشَاءَ اللَّهُ لَأُعْتَبِكُمْ إِنْ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾^(١) .

المسألة الأولى : ابتدأت آية البحث بحرف التأكيد (إن) بينما ابتدأت آية السياق بالجار والمجرور بقوله تعالى ﴿ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾ لبيان إتصالها بالآية السابقة لها ، وتقدير الجمع بينهما على وجوه :

الأول : لعلكم تتفكرون في الدنيا وزينتها وزوالها ، وكيف أنها مزرعة للأخرة .

الثاني : لعلكم تتفكرون في الآخرة وتستحضرون عالم الحساب في أذهانكم ، وتتذكرون في أهوال يوم القيامة ولزوم الإستعداد والتهيئ له .

الثالث : لعلكم تتفكرون في أمور الدنيا والآخرة مجتمعين .

المسألة الثانية : وفيه مسائل لما أخبرت آية البحث عن إيمان طائفة من الناس بالله ونبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم وهاجروا بينهم للسلامة والنجاة من سطوة كفار قريش ، نزلت آية البحث في نديهم إلى التدبر والتفكر في أسرار خلق الدنيا وصيرورة الناس ﴿ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ﴾^(٢)

(عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ)
أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ دَخَلَ عَلَيْهِ عُمَرُ وَهُوَ عَلَى حَصِيرٍ قَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِهِ فَقَالَ يَا نَبِيَّ اللَّهِ لَوْ اتَّخَذْتَ فَرَّاشًا أَوْثَرَ مِنْ هَذَا فَقَالَ مَا لِي وَلِلدُّنْيَا مَا مَثَلِي وَمَثَلُ الدُّنْيَا إِلَّا كَرَآكِبٍ سَارَ فِي يَوْمٍ صَائِفٍ

(١) سورة البقرة ٢٢٠ .

(٢) سورة النمل ٦٢ .

فَاسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا^(١) وعن عالم الآخرة والجزاء فيها بأثابة المؤمنين بالإقامة الدائمة في الجنة ، وإدخال الذين كفروا النار.

المسألة الثالثة : لما أخبرت آية البحث عن رجاء المؤمنين لرحمة الله ذكرت آية السياق الدنيا والآخرة ليكون من معاني تقديرها أولئك يرجون رحمة الله في الدنيا ويرجون رحمة الله في الآخرة ، لبيان قانون وهو أن المسلمين يؤمنون بالمعاد وإجماع المسلمين على أنه من أصول الدين . وجاءت آية السياق لتخبر عن الرجاء والفوز في عالم الآخرة باعانة اليتامى وإصلاحهم ومنعهم من الانحراف وأسباب الضلالة إذ أنها تضرهم وتضر أبناء عموم المسلمين .

فمن إعجاز الآية بعث المسلمين على إصلاح ذراريهم باصلاح اليتامى لأنهم أقران وأصحاب لهم وتجمعهم النحلة والمدرسة والسوق فأراد الله عز وجل أن يكون الجامع لهم الخلق الحميد ، وتعاهد الصلوات ، وإكثار الخطى إلى المساجد .

لذا جاء لفظ ﴿خير﴾ في آية السياق مطلقاً بقوله تعالى ﴿قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ

خَيْرٌ^(٢) ليكون من معانيه :

الأول : خير لليتامى .

الثاني : خير لكم .

الثالث : خير لأبنائكم .

الرابع : خير لكم في الدنيا .

الخامس : خير لكم في الآخرة ، وهو من مصاديق إبتداء آية السياق

(١) مسند أحمد ٦/١٤٠ .

(٢) سورة البقرة ٢٢٠ .

بالحار والمجرور ﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾^(١).

السادس : خير في السلوك والأخلاق .

السابع : خير باعائه الإيتام على العمل بأحكام الكتاب والسنة ، قال تعالى ﴿وَمَنْ يُطِغِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾^(٢) . وإذ تحث آية السياق على مخالطة المسلمين لليتامى فإن آية السياق تبشرهم بالفوز بصحبة ومخالطة الأنبياء والرسل في الجنة بلحاظ أن السعي لإصلاح اليتامى من علامات التقوى وجذب لليتامى لمنازل التقوى .

المسألة الرابعة : ورد لفظ ﴿الْيَتَامَى﴾ بصيغة الجمع خمس مرات في القرآن ولم يرد لفظ ﴿عَنِ الْيَتَامَى﴾ فيه إلا مرة واحدة في آية السياق ، ولم يأت لفظ ﴿سَأَلُونَكَ﴾ في هذه الآية أو أولها إنما ورد في وسطها إذ جاء متعقباً لقوله تعالى ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾* فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾^(٣) .

ومن الإعجاز فيه طرد الغفلة عن حال اليتامى ، ولمنع تركهم وشأنهم أو جعل المفسدين هم الذين يتولون أمورهم ويخالطونهم ، فمن التفكر في الدنيا إصلاح اليتامى والنفع الخاص والعام ، وقال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنِّ مِنْ أَرْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوٌّ لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعَفَوْا وَصَفَحُوا وَسَعَفُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(٤) .

(١) سورة البقرة ٢٢٠.

(٢) سورة النساء ٦٩.

(٣) سورة البقرة ٢١٩-٢٢٠.

(٤) سورة التغابن ١٤.

ليفيد الجمع بين الإيمان ورجاء رحمة الله في آية البحث وبين إصلاح اليتامى المذكور في آية السياق سلامة الأبناء والأزواج من عداوتهم لأبنائهم المؤمنين ، ونجاة المؤمنين من عداوة ابنائهم واليتامى لهم ، ومن الحذر في الآية أعلاه ما يكون بالواسطة باصلاح اليتامى ومنع نشر الفساد في الأرض ، فمن إعجاز آية السياق ذكرها للمفسدين ممن قد يخالطون اليتامى .

ولما احتجت الملائكة على جعل آدم ﴿فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾^(١) لأن طائفة من ذريته تفسد في الأرض وتسفك الدماء ، جاء الجواب من عند الله ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٢) ومن علم الله عز وجل حال المفسد ومنعه من مخالطة اليتامى بآية البحث ، والتي تتضمن دعوة المؤمنين لإحتضان اليتامى ورعايتهم وحفظهم في أنفسهم ودينهم وأموالهم ، فهم وديعة عند المؤمنين .

ومن علم الله ما تتضمنه آية البحث من رجاء المسلمين الثواب باعانة اليتامى وضبط قواعد الولاية والوصية وكفالتهم (عن سهل بن سعد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : أنا وكافل اليتيم في الجنة كهاتين . وأشار بالسبابة والوسطى .

وأخرج أحمد عن أبي أمامة . أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : من مسح رأس يتيم لم يمسه إلا الله كان له بكل شعرة مرت عليها يده حسنات ، ومن أحسن إلى يتيمة أو يتيم عنده كنت أنا وهو في الجنة كهاتين . وقرن بين إصبعيه السبابة والوسطى .

وأخرج ابن سعد وأحمد عن عمرو بن مالك القشيري . سمعت

(١) سورة البقرة ٣٠ .

(٢) سورة البقرة ٣٠ .

رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : من أعتق رقبة مسلمة فهي فداؤه من النار مكان كل عظم محرره بعظم من عظامه ، ومن أدرك أحد والديه ثم لم يغفر له فأبعده الله ، ومن ضم يتيماً من أبوين مسلمين إلى طعامه وشرابه حتى يغنيه الله وجبت له الجنة .

وأخرج الحكيم الترمذي عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : من أحسن إلى يتيم أو يتيمة كنت أنا وهو في الجنة كهاتين . وقرن بين أصبعيه .

وأخرج الحكيم والترمذي عن أم سعد بنت مرة الفهرية عن أبيها قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : أنا وكافل اليتيم له أو لغيره إذا اتقى الله في الجنة كهاتين ، أو كهذه من هذه^(١) .

إعجاز الآية

لا يكون مع الإيمان والهجرة والجهاد الا رجاء الرحمة الإلهية، لموضوعيتها ولزوم السعي الخيث والاجتهاد المتصل لئيلها، ولأنها الشهادة والوثيقة، وكتاب الأمان في الدارين، وفي الآية بيان للشوق والمحبة والعشق والانجذاب الى المحبوب وشاهد على استحضر النية وقصد القربة في القتال وجعله خالصاً لوجهه تعالى بعيداً عن الرياء والمصالح الخاصة.

إبتدأت آية بالحرف المشبه بالفعل (إن) الذي يفيد البيان والتأكيد للدلالة على أن مضامين آية البحث قانون فيه ثناء على المؤمنين ، وترغيب بالهجرة والنجاة من كفار قريش لتكون هذه الهجرة مقدمة لفتح مكة وإزاحة الأصنام من جوف الكعبة وأركان البيت .

وهل يصح تقدير الآية : ان الذين آمنوا في سبيل الله ، الجواب نعم ، إذ أن الإيمان مع سطوة كفار قريش صبر وجهاد ، وفيه قصد القربة ،

وطلب رضوان الله.

وتقدير آية البحث على وجوه :

الأول : ان الذين آمنوا يرجون رحمة الله ، إذ أن الله عز وجل يرضى بالقليل ، ويعطي عليه الكثير .

الثاني : ان الذين هاجروا يرجون رحمة الله .

وقد وصل المهاجرون الى المدينة فقراء ولم تمر الأيام والشهور حتى أصبحوا أصحاب أملاك وأموال ، ورجاؤهم رحمة الله في الثواب أعظم ، إذ أن الدفاع والجهاد بقوله تعالى ﴿وَجَاهِدُوا﴾ سبب لإحتمال القتل والشهادة إذ قتل من المسلمين أربعة عشر في معركة بدر ، وقتل سبعون في معركة أحد إلى جانب القتل في سرايا والمعارك الأخرى ، قال تعالى ﴿وَلَا

تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾^(١).

والقرآن يفسر بعضه بعضاً ، فمن الشواهد على إرادة المهاجرين الجنة في رجائهم لرحمة الله قوله تعالى بخصوص يوم القيامة ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ابْتِغَتْ وُجُوهُهُمُ فَنِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾^(٢).

ومن إعجاز الآية إختتامها بقوله تعالى ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ بعث الأمل في قلوب المسلمين بالفوز بالنعيم الدائم ، ودعوة الناس للتوبة والإنابة ، وهو من خصائص القرآن بعمومات الآية القرآنية وأنها تتوجه الى الخاص والعام.

ويمكن تسمية آية البحث آية (يرجون رحمة الله) ولم يرد لفظ (يرجون رحمة الله) في القرآن إلا في آية البحث.

(١) سورة البقرة ١٥٤.

(٢) سورة آل عمران ١٠٧.

الآية سلاح

تبعث آية البحث المسلمين إلى اللجوء إلى القرآن والسنة ، وإذ قام الصحابة بسؤال النبي صلى الله عليه وآله وسلم فإن المسلمين والمسلمات مدعوون للجوء إلى القرآن وما فيه من الأسئلة وأجوبة النبي صلى الله عليه وآله وسلم عليها .

وإلى الأحكام الواردة فيه .

وتبين الآية خصوصية للشهر الحرام وتدعو المسلمين لإكرامه والإمتناع عن القتال فيه إلا أن يكون دفاعاً واضطراً ، وليس هجوماً وغزواً ، ومن خصائص آية البحث زجر الذين كفروا عن الهجوم على المسلمين ومباغتتهم في الشهر الحرام ، إذ تبين استعداد المسلمين للدفاع والقتال .

كما تمنع الآية من الخلاف والشقاق بين المسلمين بخصوص الدفاع في الشهر الحرام إذ أن المشركين يصدون المسلمين عن البيت الحرام ويمنعون الناس من دخول الإسلام ويعذبون المسلمين الذين بقوا في مكة ، وحالت أسباب دون هجرتهم إلى المدينة لذا قارن الآية بقانون (وَأَلْفَتَهُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ)

تحت الآية على التقيد باحكام الفرائض والعبادات، وتجعل المهاجرين راضين على اقدامهم على ترك الأوطان، وتحمل مشاق مفارقة الأحبة وترك الأموال، وهي دعوة للجهاد في سبيل الله لعظيم ثوابه في الدارين .

لقد بعث الله عز وجل النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم في اسمى بقعة في الأرض حيث بيته الحرام ، قال تعالى ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾^(١)، وفيه تأكيد وتجديد لقدسية

البلد ودعوة لأهلها للتصديق بنبوته خاصة وأنه جاء معه بالمعجزة العقلية وهو القرآن والمعجزة الحسية المتعددة.

وقال بعض العلماء أن معجزات النبي صلى الله عليه وآله وسلم تزيد على ألف ومائتين معجزة ، ومن معجزاته صلى الله عليه وآله وسلم الإسراء ببيته وروحه قال تعالى ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنَ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾^(١)، ومنها جريان الماء بين يدي رسول الله ، واشباع العدد الكثير بالطعام القليل.

ومما تتصف به نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم أن من معجزاته الحسية ما توقف في التنزيل والمعجزة العقلية كما في معجزة انشقاق القمر ، وعن جبير بن مطعم في قوله: انشق القمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فصار فرقتين: فرقة على هذا الجبل، وفرقة على هذا الجبل، فقالوا: سحرنا محمد.

فقالوا: إن كان سحرنا فإنه لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم^(٢). وعن ابن عباس قال : اجتمع المشركون على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم منهم الوليد بن المغيرة وأبو جهل بن هشام والعاصي بن وائل والعاصي بن هشام والأسود بن عبد يغوث والأسود بن المطلب وزمعة بن الأسود والنضر بن الحرث ، فقالوا للنبي صلى الله عليه وآله وسلم : إن كنت صادقاً فشق لنا القمر فرقتين نصفاً على أبي قبيس ونصفاً على قبيعان ، فقال لهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم : إن فعلت تؤمنوا؟ قالوا : نعم ، وكانت ليلة بدر فسأل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

(١) سورة الاسراء .١

(٢) تفسير ابن كثير ٤٧٢/٧.

ربه أن يعطيه ما سألوا فأمسى القمر قد مثل نصفاً على أبي قبيس ونصفاً على قبيعان ، ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ينادي يا أبا سلمة ، بن عبد الأسد والأرقم بن أبي الأرقم اشهدوا^(١).

وتبين آية البحث الغايات الحميدة لدخول الاسلام والهجرة والصبر في الدفاع برجاء رحمة الله ، وتمثل الآية وجوهاً :

الأول : إرادة رحمة الله في الدنيا بالمال والأولاد والسلامة وعز ورفعة الإسلام .

الثاني : رجاء رحمة الله في الآخرة .

الثالث : المقصود رحمة الله في الدنيا وفي الآخرة.

والصحيح هو الأخير ، لذا اختتمت الآية بقوله تعالى ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ

رَحِيمٌ﴾ ليعيش المسلمون في كنف رحمة الله في الدنيا ، ويفوزون في الآخرة بالعمو والمغفرة والرحمة الواسعة.

وهل هذا الرجاء الذي تذكره آية البحث من مصاديق المسارعة الذي

تبدأ به الآية ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾^(٢) ، وهل هو من التقوى الذي اختتمت به الآية أعلاه ،

الجواب نعم ، فان قبل الرجاء كيفية نفسانية والمراد من المسارعة السعي والعمل ، والجواب الرجاء أعم فهو عزم ونية وفعل وقصد .

لقد جعل الله عز وجل آية البحث سلاحاً وواقية وحرزاً من اتباع خطوات الشيطان ، ومن معانيها شكر الله عز وجل للمؤمنين والثناء عليهم.

(١) الدر المنثور ٣٣٩/٩ .

(٢) سورة آل عمران ١٣٣ .

أسباب النزول

الآية نزلت في عبد الله بن جحش واصحابه حينما قاتلوا في رجب، وقتل واقد السهمي ابن الحضرمي، وان عبد الله بن جحش قال: يا رسول الله هب انه لا عقاب فيما فعلنا، فهل من فعل نطمع منه اجراً وثواباً فنزلت هذه الآية وكان عبد الله مؤمناً مهاجراً.

وفي الآية امضاء لجهاد المسلمين، □ ومحاربتهم للكفر والضلالة، وقد ظن جماعة منهم ان لاجر لهم وان سلموا من الإثم بسبب قتل ابن الحضرمي، فنزلت الآية بشارة ووعداً كريماً وقد ذكرت هذه القصة سبباً لنزول الآية السابقة، ومن المستبعد ان تكون سبباً لنزول هذه الآية ايضاً الا ان يكون موضوع الآيتين واحداً.

ولعل القول بأن الآية تخص في أسباب نزولها سرية عبد الله بن جحش هو نظم الآيات إذ وردت الآية السابقة بعد السؤال عن قتل السرية لعمر بن الحضرمي، قال تعالى ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يَقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾^(١)، ولأن أفراد السرية كلهم من المهاجرين ليس فيهم أنصاري واحد.

والمدار على عموم اللفظ، وليس سبب النزول، ولا يختص رجاء رحمة الله بالذين هاجروا وجاهدوا، إنما هو ملازم للإيمان والإقرار بالربوبية المطلقة لله عز وجل، ومن وجوه تقدير آية البحث ﴿إِنْ

الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ
وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١﴾ وهل يرجو أهل الكبائر رحمة الله الجواب نعم.

وأخرج الطبراني عن حذيفة بن اليمان قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والذي نفسي بيده ليدخلن الجنة الفاجر في دينه ، الأحمق في معيشته ، والذي نفسي بيده ليدخلن الجنة الذي قد محشته النار بذنبه ، والذي نفسي بيده ليغفرن الله يوم القيامة مغفرة يتناول لها إبليس رجاء أن تصيبه^(١).

وأخرج ابن أبي شيبة وابن ماجه عن أبي سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : أن الله خلق يوم خلق السموات والأرض مائة رحمة ، فجعل في الأرض منها رحمة فيها تعطف الوالدة على ولدها ، والبهائم بعضها على بعض ، وآخر تسعاً وتسعين إلى يوم القيامة ، فإذا كان يوم القيامة أكملها بهذه الرحمة مائة رحمة^(٢).

مفهوم الآية

بعد الحث على الجهاد في سبيله تعالى في الأشهر الحرم واخذ الحائطة دفاعاً عن الإسلام، جاءت هذه الآية لتبين عظيم ثواب الإيمان والهجرة في سبيل الله، وهو من ذكر العام ثم الخاص، ولأن الهجرة فضل وباب فتحه الله لخاصة اوليائه، وليس في مقدور كل مسلم ان ينالها ويفوز بصفة مهاجر ايام البعثة النبوية خصوصاً، وانه عند فتح مكة جاء من يبائع على الهجرة، فقال الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم: "ذهب اهل

(١) الدر المنثور ٤/٣٣٨.

(٢) الدر المنثور ٤/٣٧.

الهجرة بما فيها، لا هجرة بعد فتح مكة، ولكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا^(١).

ولفظ الهجرة مأخوذ من هجره يهجره هجراً وهجراناً أي صرمه واعرض منه، والهجرة هي الخروج من أرض إلى أرض، وأصلها عند العرب خروج البدوي من باديته إلى المدينة، وهي في الإصطلاح مغادرة الديار والمساكن والذهاب مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى المدينة المنورة لإقامة حكم الإسلام كما تشمل هجرة نفر من المسلمين إلى الطائف والحبشة ومن بقي منهم رجع إلى المدينة مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم ويمكن تقسيم الهجرة إلى أربعة أقسام:

أولاً: الهجرة إلى المدينة المنورة مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سواء كان خروج المهاجرين من مكة أو مما حولها أو من مناطق أخرى أو من البدو.

ثانياً: الهجرة بعد فتح مكة كهجرة أهل القرى والإعراب إلى المدينة بعد فتح مكة، وقيامهم بالدفاع مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم، أو في سرايا الفتح.

ثالثاً: إطلاق لفظ الهجرة يشمل كل من هاجر في سبيل الله، وترك وطنه ومسكنه ليغترب في بلاد أخرى حفاظاً على سلامة دينه وتعظيماً لشعائر الله.

رابعاً: الهجرة من المعاصي والسيئات إلى منازل الإيمان والصلاح والهداية (وفي لسان العرب: وهجر فلان الشرك هجراً وهجراناً وهجرة حسنة)^(٢).

(١) كنز العمال ٦٥٤/١٦.

(٢) لسان العرب ٢٥١/٥.

والأقوى ان المراد من الآية الكريمة هو الوجه الثالث لإطلاقات اللفظ القرآني ولعدم ثبوت تخصيص السنة لهذه الآية لأن ما ورد من حديث عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم بانقطاع الهجرة بعد فتح مكة معارض مع ما ورد في الخبر عنه صلى الله عليه وآله وسلم: لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة... الحديث).

نعم هناك فارق في الدرجة والرتبة بلحاظ الحال، فالمهاجرون قبل فتح مكة لهم درجة لا يرقى اليها احد، وعنوان اصطلاحى خاص مترشح عن الجهاد في سبيل الله وحسن الإختيار والمبادرة الى الإسلام، لذا فمن المسلمات عند المسلمين وفي كل زمان اختصاص اصطلاح المهاجرين بهم في مقابل الأنصار الذين نصرروا النبي صلى الله عليه وآله وسلم من اهل يثرب، ومن السنة النبوية الوثائقية قيامه صلى الله عليه وآله وسلم بالمواخاة بين المهاجرين والأنصار، فكل مهاجر اختار له اخاً من الأنصار.

بل لا تصل النوبة الى التعارض والتساوق فيمكن الجمع بينهما وان المراد من الحديث الأول: لا هجرة بعد فتح مكة، هو الهجرة مع النبي ايام التنزيل والجهاد في سبيله تعالى، والهجرة بالعنوان المخصوص أي ان المهاجرين الأوائل مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم فازوا بالسبق ونيل مرتبة لم يبلغها احد من المسلمين حتى يوم القيامة الا وهي الهجرة في سبيل الله بصحبة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ولا يزال الإسلام فتياً وقوى الشرك والكفر تحاربه بشدة، وبهذا يكون للهجرة في الإصطلاح معنيان خاص وعام، والعام متعلق بالمهاجرين الأوائل والخاص يشمل كل مهاجر في سبيل الله سواء كان للقتال والجهاد في سبيله الله تعالى او للحفاظ على سلامة دينه كما يحصل في هذا الزمان احياناً وكما قال الله

تعالى في هجرة لوط ﴿فَأَمِّنْ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾^(١) اما متعلق الاية فهو المعنى الأعم والشامل لهما معاً لإصالة الإطلاق ولعموم الثواب وعظيم فضله تعالى.

ومع اختصاص المهاجرين بحصة من الفضل فان الله عزوجل انعم على المسلمين واطلق لفظ الهجرة على كل من هاجر في سبيله تعالى لأنه سبحانه فتح هذا الباب من الثواب لخاصة اوليائه سواء قبل الإسلام او بعده، وكان المهاجرون مع النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم هم القدوة والأسوة لكل مسلم وفي هجرتهم درس وموعظة وارشاد لإختيار الهجرة عند التعرض للأذى والحيف بسبب الإيمان، وفي الآية حث على الهجرة مما يعني بالدلالة الإلتزامية وعده سبحانه باكرام المهاجر وتيسير اموره وفعلاً فان الشواهد التاريخية تشهد منذ بدء الإسلام والى اليوم على انفتاح ابواب من الخير على المهاجر لتكون الهجرة مقدمة لثيل مراتب السمو والرفعة.

وما في الآية من الخصال قد تجتمع في شخص واحد فيكون مؤمناً مهاجراً مجاهداً في سبيله تعالى وقد تجتمع منها خصلتان وقد يفوز المسلم بخصلة واحدة، فبين الإيمان والهجرة عموم وخصوص مطلق، فكل مهاجر هو مؤمن وليس العكس، وذات النسبة بين الإيمان والجهاد في سبيله تعالى فكل مجاهد في سبيل الله هو مؤمن وليس العكس، ولا عبرة بالفرد النادر، اما النسبة بين الهجرة والجهاد فهي العموم والخصوص من وجه، فمادة الإلتقاء الإيمان والسعي والعمل في سبيله تعالى، واما مادة الإفتراق ففي الأول الهجرة في سبيله تعالى وفي الثاني الجهاد في سبيله تعالى الا على المعنى الأعم للجهاد وهو كل عمل في سبيله تعالى فتكون النسبة عموماً وخصوصاً مطلقاً باعتبار ان كل مهاجر مجاهد في سبيله

(١) سورة العنكبوت ٢٦.

تعالى وتحت الآية على ارادة قصد القربة وصدق النية وجعل الإيمان والهجرة والجهاد اموراً خالصة لوجه الله عز وجل ورجاء لغفوه ونيل ثوابه من غير رياء او طمع في الدنيا وزخرفها.

والرجاء لا ينحصر بالآخرة وما اعد الله فيها من الثواب للمؤمنين والدرجات العلى للمهاجرين والمجاهدين في سبيله تعالى بل انه يشمل الحياة الدنيا ومن وجوه الرجاء فيها الثبات على الإيمان وانتصار الإسلام وعلو كلمة الحق وسيادة احكام الشريعة ونبذ الناس للكفر، بالإضافة الى الحاجات والرغائب الشخصية في العز والأمان والسكينة واداء الوظائف العبادية وجمع الشمل والعودة الى الأوطان بالظفر والفتح ومعالم العز وصلاح الناس وانتشار الإسلام، ثم جاءت خاتمة الآية لتكون بشارة لهم وسكينة واماناً في مضاعفة حسناتهم والتجاوز عن سيئاتهم.

الصلة بين أول وآخر الآية

إبتدأت الآية بالإخبار والتأكيد بالحرف المشبه بالفعل (إن) والخبر في الإصطلاح يحمل معنى الصدق أو الكذب ولكنه في القرآن صدق وحق وعلى نحو القطع ويشمل :

الأول : أخبار الأمم السابقة قال تعالى ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا

كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾^(١).

الثاني : قصص الأنبياء ، قال تعالى ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لَأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ

نَارًا سَاءَتِ كُفْمُهَا بِخَبْرٍ﴾^(٢).

الثالث : أسباب نزول الآيات والأحداث والوقائع التي صاحبت بعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وترشحت عنها.

(١) سورة النمل ٦٩.

(٢) سورة النمل ٧.

الرابع : حال المؤمنين والنعم التي ترى عليهم بالإيمان والصلاح ، قال تعالى ﴿وَرِيدٌ أَنْ نَنْسَ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُوا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَجَعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾^(١).

الخامس : المغيبات التي لا يعلمها الا الله .

السادس : أخبار عالم الآخرة ، والحساب والجزاء يوم القيامة ، وذكرت الآية ثلاثة أصناف أو صفات :

الأول : الذين آمنوا .

الثاني : الذي هاجروا .

الثالث : المهاجرون في سبيل الله .

مع التداخل بين هذه الأصناف فقد يكون ذات المؤمن مهاجراً ومجاهداً .

ومن إعجاز الآية قيدت الآية الهجرة والجهاد بأن يكون في سبيل الله عز وجل .

وصحيح أن (في سبيل الله) غاية إلا أنه يكون بلغة ووسيلة ، وهو واقية من التعدي والظلم ، فمن يهاجر في سبيل الله يمتنع عن ارتكاب المعاصي ، خاصة وأن الأنصار وأهل المدينة يتطلعون الى حسن سمت

المهاجرين قال تعالى ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قُلُوبِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾^(٢)، وقد نزل الأمر من عند الله لإمتحان

المهاجرات ، وبيان قصدهن من الهجرة ، قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ

(١) سورة القصص ٥.

(٢) سورة الحشر ٩.

الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعُنَّكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ قَبَائِحَهُنَّ وَأَسْتَغْفِرْنَ لَهُنَّ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١﴾ ،
 وذكرت آية البحث رجاء المؤمنين رحمة الله ، فمع بذلهم الوسع في سبيله ،
 والتعرض للضرر والقتل فانهم لا يمتنعون بجهادهم إنما يرجون فضل الله ،
 وفي التنزيل ﴿لَا تَتُوعَلَىٰ إِسْلَامِكُمْ بِاللَّهِ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ
 إِنَّ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿٢﴾ .

لقد أختتمت الآية بثلاثة أسماء من أسماء الله الحسنى وهي :

الأول : لفظ الجلالة .

الثاني : غفور .

الثالث : رحيم .

ليبان نزول الرحمة والبركة على المؤمنين ، وفوزهم بالشواب في
 الآخرة وتقدير الآية على وجوه :

الأول : إن الله غفور للذين آمنوا رحيم بهم .

الثاني : إن الله غفور للذين هاجروا في طلب مرضاة الله ، رحيم

بهم .

الثالث : إن الله غفور للذين جاهدوا في سبيل الله رحيم بهم .

وتحتمل رحمة الله من جهة متعلقها وموضوعها وزمانها وعالمها

وجوها :

(١) سورة الممتحنة ١٢ .

(٢) سورة الحجرات ١٧ .

الأول : إن الله رحيم بالمؤمنين بهدايتهم إلى سواء السبيل ، وفعل الصالحات لذا يتلو كل مسلم ومسلمة في الصلاة وعلى نحو الوجوب العيني ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾^(١).

الثاني : تفضل الله بالرحمة للمهاجرين في طريق الهجرة والإقامة في الجهة التي هاجروا إليها ، لذا فإن ذكر القرآن للأنصار بصفة الإيواء بقوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ آوَأُوا﴾^(٢)، يبان لفضله تعالى على المهاجرين في إيجاد أخوة لهم بالإيمان يؤونهم ، ويوفرون لهم الأمان وما يدفع عنهم ظلم وجور ووعيد كفار قريش ، إذ خشى رجال قريش غزوا المدينة من أجل المهاجرين لأن أهلها كانوا مستعدين للدفاع عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وعنهم ، وهو من شرائط بيعة العقبة وفي قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنَبُوْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَآجِرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾^(٣).

وقيل (نزلت في بلال وصهيب وخباب وعمار وعابس وجبير وأبي جندل بن سهيل ، أخذهم المشركون بمكة فعذبوهم)^(٤).
ولكن الآية أعم وهي قانون في جزاء وثواب الصحابة الذين لاقوا الأذى عن قومهم وحملوهم على الهجرة .

الثالث : لما توجه لوم الصحابة من المهاجرين والأنصار إلى عبد الله بن جحش وأصحابه في السرية التي بعثها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى نخلة لقيامهم بقتل عمرو بن الحضرمي مع أن السرية للإستطلاع

(١) سورة الفاتحة ٦.

(٢) سورة الأنفال ٧٢.

(٣) سورة النحل ٤١.

(٤) الكشف والبيان ٣٩٢/٧.

دخلهم الهم والحزن ، ففضل الله عز وجل بآية البحث للبشارة والترغيب بالإستغفار .

وعن الحسن البصري : أن أصحاب السرية قالوا : يا رسول الله هل (نؤثم) على رجبنا وهل نطمع أن يكون سفرنا هذا غزواً^(١) .

وحكي (عن فضالة بن دوس : أميراً على الأرباع ، فخرج بجنازتي رجلين : أحدهما قتيل والآخر متوفى ، فرأى ميل الناس مع جنازة القتيل إلى حفرة فقال : أراكم أيها الناس تميلون مع القتيل وتفضلونه على أخيه المتوفى فوالذي نفسي بيده ما أبالي من أى حفرتها بعثت ،

إِقْرُوا قَوْلَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ {وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ} (٢) .

من غايات الآية

في الآية مسائل :

الأولى : إكرام الله عز وجل للمؤمنين وذكر حسن نواياهم في القرآن ، وبيان سلامتهم من النفاق والرياء .

الثانية : منع الخصومة والخلاف بين المسلمين ، إذ أن الجامع معهم الإيمان وقصد سبيل الله .

الثالثة : دعوة الناس للإيمان وحث المسلمين الأوائل على الهجرة والإخبار من الثواب العظيم فيها ما دامت في سبيل الله .

الرابعة : الحث على فعل الصالحات ، لأنها من الجهاد في سبيل الله أو ملحقة ه ، و(عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : الساعي على الأرملة والمسكين ، كالمجاهد في سبيل الله^(٣) .

(١) الكشف والبيان ٤٣١/١ .

(٢) الكشف والبيان ٢١٧/٩ .

(٣) الطبراني / المعجم الأوسط ٣١٠/١ .

الخامسة : بيان موضوعية قصد القربة الى الله ، ومتى ما كان القصد في القول والفعل رضوان الله ، ورجاء رحمته وشفوه فان الصلاح يكون هو صبغة هذا القول والفعل ، وتترشح عنه المنافع الخاصة والعامة والآنية والآجلة.

التفسير

تفسير قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾

في الآية مسائل :

الأولى : إكرام قرآني للذين اختاروا الإيمان بالتوحيد ورسالة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

الثانية : إعلان الشهادتين مرحلة ابتدائية من مراحل الإيمان وتعتبر انعطافاً وارتقاء لمراتب متعددة في سلم الإيمان دفعة واحدة.

الثالثة : مجرد الإيمان بالرسالة والإقرار بالبعثة النبوية واختيار الإسلام هوية عقائدية سبب لرجاء الرحمة الإلهية، وخطوة مباركة نحو منازل السعادة.

الرابعة : الإيمان له معنى لغوي ومعنى اصطلاحى وهو اعتقاد بالقلب وتسليم واقرار مقترن باداء العبادات بانقياد، والمراد في الآية المعنى اللغوي وهو الإسلام والتسليم باللسان، والإلتزام الظاهري باحكام الإسلام.

الخامسة : تبين الآية اهم وجوه الإخلاص في العبادة.

السادسة : ذكرت الآية ثلاثة من افراد ومصاديق الإيمان واهمها ولكنها ليست على سبيل الحصر ، نعم تنفرع عنها وجوه ووجودات من مصاديق الإيمان ، فالهجرة تتضمن الإنفاق الإيجابي والسلبي ، ومن السلبي ترك الأموال وتحمل وطأة الغربة.

السابعة : قد لا يحتاج المؤمن الى الهجرة في سبيل الله، وعدم الهجرة

لا يخل بإيمانه وسعيه واهليته لإستحقاق الجنة فالجهاد في سبيل الله باب للفوز بالشهادة.

الثامنة : هل تفيد (واو العطف) الجمع ام يجوز التعدد واستقلال كل موضوع، أي هل يشترط لرجاء رحمته تعالى:

أولاً : الإيمان مع الهجرة والجهاد في سبيله تعالى.

ثانياً : الإيمان وحده ام الهجرة والجهاد.

ثالثاً : الإيمان او الهجرة او الجهاد في سبيل الله.

الأقوى هو الثاني أي ان كلاً من الذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله والمؤمنين مطلقاً يرجون رحمته تعالى فمن كان مؤمناً تشمله احكام الآية وان لم يهاجر ويجاهد في سبيل الله وكذلك من يكون مؤمناً مهاجراً وان لم يجاهد في سبيل الله تشمله الآية، فالمدح في هذه الآية انحلالي يشمل كل من بلغ مرتبة من المراتب الثلاثة، نعم من اجتمعت عنده هذه الخصال فان ثوابه أعظم ، كما ترى المائز في درجة الثواب مع اتحاد الماهية عند تباين الحال والزمان في قوله تعالى ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتِلْ أُولَئِكَ أَكْبَرُ مِنْ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَاتِلُوا وَكُلًّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾^(١)، فان قلت ان الهجرة والجهاد في سبيل الله فرع الإيمان وانه من عطف الخاص على العام قلت ان الإيمان له مراتب مشككة ويشمل العقيدة والأفعال العبادية والجهادية وكل منهما يستحق الظن بدخول الجنة، ومن المؤمنين من لا يهاجر ولا يحمل نفسه على مشاق الجهاد واهواله دون ان يفقد الرجاء والفوز بواسع رحمته تعالى.

(١) سورة الحديد ١٠

قوله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾

وفي الآية مسائل :

الأولى : الهجر ضد الوصل، والهجرة في الإصطلاح ترك الوطن، والإعراض عنه، وعن المال، والأهل من اجل صحبة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم وبغية سلامة الدين والنفس المتلبسة بالإيمان.

الثانية : الآية تشريف واکرام للمهاجرين والمجاهدين في سبيل الله، وفيها حث على الجهاد.

الثالثة : في الآية اخبار عن اهمية الهجرة والجهاد في سبيل الله، وما لهما من عظيم الثواب.

الرابعة : تدل الآية بالدلالة الالتزامية على عظيم ثواب الهجرة في سبيل الله.

الخامسة : في الآية بيان للصبغة الجهادية للهجرة في سبيل الله تعالى، والواو الواردة في الآية على نحو التكرار بين الإيمان والهجرة والجهاد تفيد العطف والمغايرة والتعدد ولو على نحو ترتبي وطولي.

السادسة : الآية ترغيب بالهجرة والجهاد وحث عليهما، ودعوة الى اكرام المهاجرين والمجاهدين ومنع من مؤاخذه المؤمن على اختياره الهجرة.

السابعة : استحضار القواعد الكلية التي تفيد عدم انحصار معنى الآيات بأيام النزول واسبابه، فأن الهجرة المذكورة في الآية أعم من ان ينحصر موضوعها بالمهاجرين من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فالآية باقية وتنبض بالحياة الى يوم القيامة بمعنى بقاء المدح والثواب وعظيم الأجر لمن يهاجر في سبيل الله.

الثامنة : الهجرة أعم من ان تكون للقتال والحرب، فيكفي مسمى الهجرة والخوف على سلامة الدين والعرض والمال حال التلبس

ياإيمان.

التاسعة : هل تنحصر الهجرة بالهجرة الى دار الاسلام والإيمان أم انها أعم؟ الأقوى هو الثاني.

العاشرة : قد تكون الهجرة على نحو القضية الشخصية سواء بالفرار من القوم الظالمين او اللجوء الى مكان آمن وحرز وسبيل نجاة فالملاك هو اختيار هجرة الأوطان بقصد القرية وسلامة الدين ونجاة النفس.

الحادية عشرة : اقتران الهجرة بالإيمان والاسلام يعني الترتيب الطولي والقوس الصعودي وترجي الإيمان بسلوك ايماني يتمثل بالهجرة، واقتران الهجرة بالجهاد له دلالات عديدة منها توظيف الهجرة لصيغ الجهاد، وان كانت الهجرة وحدها تنفع في تثوير الإيمان وتنامي قوة الاسلام.

الثانية عشرة : لا تريد الآية للمؤمنين الوقوف عند منازل الهجرة وحدها بل تريد من الهجرة ان تكون وسيلة ومناسبة لتثبيت دعائم الدين في الارض وان كانت لا تبطل أجر الهجرة وحدها.

الثالثة عشرة : المدح والثناء الوارد في الآية بسيط ومركب، فالأول مدح الإيمان وحده، ومن المركب:

أولاً : مدح الإيمان والهجرة

ثانياً : الإيمان والجهاد في سبيل الله من غير هجرة.

ثالثاً : مدح الإيمان والهجرة والجهاد في سبيل الله، وهذا الوجه هو أفضل الوجوه وأتمها.

الأول : تتضمن الآية تقسيماً استقرائياً عقلياً لمراتب الإيمان ودرجات الاخلاص والصلاح وتتضمن بالدلالة التضمنية ذم الذي لا يختار سبيل الإيمان والهداية.

الثاني : تضع الآية القواعد الأساسية الثابتة والموازن الخاصة باكرام المؤمنين ومعرفة منازل الرجال من خلال مراتب الإيمان والهجرة والجهاد

في سبيل الله.

الثالث : الهجرة لها معاني متعددة وتصدق ولو مجازاً على أمور كثيرة منها الانقطاع عن الذنوب والتوجه الى العباداة والابتعاد عن الناس، ولكن القدر المتيقن من الآية هو مغادرة الوطن والأهل في سبيل الله.

الرابع : تبين الآية بالدلالة الالتزامية ما في الهجرة من المشقة والعناء ومفارقة الأحبة وترك المنازل والانتقال عن العشيرة، والمغادرة الى عالم مجهول او شبه مجهول، واختيار الدخول في اروقة حياة ومستقبل بهم المعالم كل ذلك شوقاً الى المحبوب.

الخامس : في الآية دعوة للصبر واجتناب الجزع، ومتى ما ادرك المؤمن انه في عين الله تعالى وان فعله الجهادي مقرون بالثواب فانه يحس بالغبطة ويكون مستعداً لتحمل الأذى في جنب الله.

السادس : قيدت الآية الجهاد بان يكون في سبيل الله، وفيه تأديب للمسلمين بان لا يكون الجهاد لاغراض شخصية ومصالح دنيوية.

السابع : هل يعتبر قوله تعالى ﴿ وَجَاهِدُوا ﴾ معطوفاً على ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾، أم انه معطوف على ﴿ هَاجَرُوا ﴾، بمعنى ان الهجرة تكون مطلوبة بذاتها من غير تقييد، او ان القيد والوصف ﴿ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ شامل للهجرة ايضاً، الجواب: هو الأخير، فالآية تنهى عن الهجرة لمصالح آنية او من أجل امرأة او للانتفاع من بزوغ شمس الاسلام للذات كالجاه والمنصب.

وفي الآية مسائل :

الأولى : تبعث الآية الخوف والفرع في نفوس الكفار والمنافقين.

الثانية : تفتح الآية الباب للهجرة والجهاد مما يتعذر على الاعداء غلقه، أي ان الآية بدالاتها الالتزامية تبعث اليأس والقنوط في قلوب

الكافرين.

الثالثة : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في أعلى مراتبه من افراد الجهاد في سبيله تعالى.

الرابعة : تعتبر الآية مع اعجازها مدرسة ايمانية متكاملة تضيئ طرق الحياة، وتبين سبل الوصول الى النعيم الدائم في الآخرة.

الخامسة : جاءت الآية بصيغة الجمع في مصاديقها كافة مما يدل على التعدد والكثرة في الاقدام على الهجرة و جهاد المسلمين في سبيل الله.

السادسة : واو العطف المتكررة في الآية تفيد اشتراط الجمع بين خصال الإيمان والهجرة والجهاد وبحسب الحال والشأن والإمكان، وكل فرد منها يترتب عليه الأجر والثواب.

السابعة : خصال الإيمان في الآية تلتقي عرضاً وطولاً مع اختصاص كل منها بدرجته وثوابه فلا يتعلق ثواب احدها على الأخرى وان كانت واجبة، بمعنى لو كان الجهاد فرض عين على المؤمن او المؤمن المهاجر ولكنه لم يبادر الى الجهاد انه لا يخل بالثواب الذي يناله بالإيمان والهجرة.

الثامنة : وفي موثقة سماعة ان عباد البصري قال لعلي بن الحسين عليه السلام في طريق مكة: تركت الجهاد وصعوبته، واقبلت على الحج ولينه ان الله عز وجل يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾^(١)، فقال علي بن الحسين عليه السلام: اذا رأينا هؤلاء الذين هذه صفتهم فالجهاد معهم افضل من الحج، أي ان الإمام عليه السلام لم يترك الجهاد ولكنه يعمل بالميسور والممكن من

(١) سورة التوبة ١١١.

وجوهه، ولم يفعل الإمام او يتأثر من الإشكال والإعتراض بل جعله مناسبة للبيان ومدرسة في التفقه في الدين وتوكيداً لأهمية الجهاد وعدم التخلي عنه وان تركه مؤقت وبسبب عدم اجتماع شرائطه وليس اعراضاً عنه، ثم ان الحج والمواظبة عليه يعتبر جهاداً للنفس وهو من اهم صيغ الجهاد.

التاسعة : الهجرة ايضاً جهاد في سبيل الله عز وجل مما يفيد الثواب المركب للمهاجر الذي يجاهد في سبيله، ولكن الآية جاءت لتشمل من يجاهد في سبيله تعالى من غير هجرة.

التخفيف بالهجرة

الهجرة باب فتحه الله للمؤمنين وسبيل لحفظهم وسلامتهم، ووسيلة لنشر احكام الدين لا أقل تعاهد اتيان الفرائض والمحافظة عليها ضمن الجماعة والافراد او عند الشخص ذاته، لذا فإن الهجرة في سبيل الله باقية ما دام للكفر تأثير وسلطان.

وورد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: لا هجرة بعد الفتح (١)، وهو معارض بما ورد عنه صلى الله عليه وآله وسلم: "لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة، ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها" (٢).

كما يمكن تأويله بخصوص الهجرة الى المدينة، او حمله على بعض مراتب الهجرة، والأول هو الاقوى وان الاسلام احتاج الى بقاء المؤمنين في بلدانهم بعد فتح مكة لتثبيت الاحكام واعلاء كلمة التوحيد ووقف الهجرة الدفعية الى المدينة التي لم تنتهياً اسباب الاستيعاب لها، في وقت يمكن ان يقوم المسلم في بلده وقبيلته بجهود عظيمة لخدمة الاسلام. لذا فإن الهجرة تنطبق عليها احكام الوجوب او الندب او الاباحة،

(١) الكشف والبيان للثعلبي ٧٧/٦.

(٢) كنز العمال ٦٥٤/١٦ حديث: ٤٦٢٤٩.

فمن موارد وجوبها ترك الإقامة في بلاد الكفر مع عدم التمكن من اداء الفرائض واجتناب المعاصي، وتدل عليه آيات منها قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا * إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانَ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا * فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَغْفُوَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾^(١)، بالاضافة الى النصوص والسيرة والاجماع ووجوب مقدمة الواجب.

وقد لا يصل الأمر الى وجوبها وتكون مستحبة كما لو تمكن في بلاد الكفر او الجور والظلم من أداء مناسك دينه وفرائضه، وقد تكون مباحة كما في حال انعدام مرجحات الهجرة وعدم التعارض بين البقاء في المصر او القرية وأداء الفرائض.

ولكن قد يختار المؤمن البقاء واللبث في مكة وعدم الهجرة مع وجود المرجحات في الهجرة، فاذا كان هذا البقاء في سبيل الله ومع التمكن من اظهار وأداء شعائر الاسلام او لوجود مرجحات اخرى في البقاء فإن ثوابه عظيم لأن الله واسع كريم، كما ان هذا الفرد لا يخرج من مضمون هذه الآية لا بالتخصيص ولا بالتخصيص، بل يشمل الإيمان كما يشمل مفهوم الجهاد في سبيله تعالى اي يكون من الذين آمنوا ومن الذين جاهدوا لتثبيت كلمة التوحيد..

(١) سورة النساء ٩٧-٩٩.

تفسير قوله تعالى ﴿أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ﴾

وفي الآية مسائل :

الأولى : ﴿أُولَئِكَ﴾ اسم اشارة للبعيد جاء للاكرام والتفخيم والثناء عليهم يتلقونه من العناء في سبيله تعالى.

الثانية : الآية حث للمؤمنين على الهجرة والجهاد في سبيله تعالى.

الثالثة : تفتح الآية الآفاق أمام المؤمنين وتدلهم على سبل النجاة المقرونة بالثواب والأجر، فقد يتردد الإنسان في الإقدام على الهجرة او على صيغ الجهاد، فتأتي هذه الآية لتحثه على الجهاد وتبشره بالسكينة والنجاة والفوز.

الرابعة : تثبت الآية الاختيار للمؤمنين في الهجرة والجهاد، وفيه مدح لهم.

الخامسة : رجاء رحمته تعالى ليس قيداً بل وصفاً عاماً يتغشى جميع المؤمنين الذين اتخذوا مسالك الإيمان والهداية والسعي لرضاته تعالى.

السادسة : رحمته تعالى أعم من أن تنحصر بالدنيا وحدها او بالآخرة دون الدنيا، لذا ورد في صفة (الرحيم) ان المؤمن ينتفع منها في الدنيا والآخرة دون الكافر، ويشترك المؤمن والكافر من الانتفاع من صفة (الرحمن) في الدنيا دون الآخرة.

السابعة : الآية بشارة توالي النعم في الدنيا والآخرة وتدل بالدلالة الالتزامية على الحث على الهجرة والجهاد في سبيله، كما تتضمن التشويق والترغيب بالهجرة والجهاد في سبيله تعالى.

الثامنة : تدل الآية بالدلالة الالتزامية على ياس الكافرين والجاحدين من رحمته تعالى، وانهم يحاربون الاسلام من غير أمل بالآخرة.

التاسعة : من رحمته تعالى النصر وغلبة الاسلام الأمر الذي تجلّى بهجرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين الى المدينة المنورة

وظهرت مصاديقه الكريمة في الامصار واطراف الارض بين الحين والآخر.

العاشرة: الآية احتياط وحرز للمسلمين في حال الشدة وتفاقم اسباب البلاء وتلقيهم الاذى وتعرضهم للبطش والظلم.

الحادية عشرة: من رحمته تعالى ان يخلف على المهاجرين ويرجع اليهم اموالهم ويجعل ذرايرهم واسرهم تلتحق بهم او أن يعودوا الى بلادهم غانمين في سلامة من دينهم كما حصل في فتح مكة، فأن فتحها موعظة وعبرة ودرس ايماني وشاهد تاريخي وعون للمؤمنين يبعث الأمل في نفوسهم بالعودة الى ديارهم مع الفتح والنصر كما يحدث بين الحين والآخر والى زماننا هذا، ومن فاته الفتح فان رحمته تعالى تدركه في الآخرة بحسن المثوبة وتعاهد الذرية.

الثانية عشرة: الآية تعليم وتأديب وتلقين للمسلمين سواء من هاجر وجاهد منهم أم من لم يهاجر ويجاهد بأن يرجون ويتطلعون الى رحمته وعفوه تعالى، كما انها تساهم بتصحيح النوايا وتقديم قصد القرية في كل فعل عبادي.

الثالثة عشرة: من رحمته تعالى المغفرة والعفو ومحو الذنوب فمن يهاجر ويجاهد تدركه المغفرة.

الرابعة عشرة: في الآية بيان لكيفية نيل رحمته تعالى في الدنيا والآخرة، واخبار عن وجوه السعي لادراكها وان كان ذكرها على نحو الرجاء والتمني، ولكن الاخبار عنها في القرآن وخاتمة الآية حث على السؤال والتضرع والرجاء والتوجه بالحاجة الى الله، وان المراد هو اللازم وليس الملزوم وحده، فمع حسن الفعل والرجاء تكون الاستجابة والله عند حسن ظن عبده المؤمن.

الخامسة عشرة: تدل الآية في مفهومها على تحذير المسلمين الصابرين

والمجاهدين من ديبب اليأس في نفوسهم، وتخرجهم بايمانهم من مصاديق اليأس والقنوط في قوله تعالى ﴿ وَلَا تَيْسُوا مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمَ الْكَافِرُونَ ﴾ .

ذكرت الآية رجاء رحمة الله ، وهو متعدد في موضوعه من وجوه:

الأول : يرجون رحمة الله بايمانهم واختيارهم الهدى.

الثاني : يرجون رحمة الله للذات والجماعة والأمة ، لذا ففي قوله

﴿ اِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾^(١) ، وردت الآية بصيغة الجمع حتى لو كان الناطق

بها واحد من المسلمين ليعم النفع والثواب بقراءته على الأمة.

الثالث : يرجون رحمة الله بالهجرة في سبيل الله ، وهو على جهات:

الأولى : يرجون رحمة الله بالأعراض عن البلد ، ومحال الصبا

والنشأة.

الثانية : يرجون رحمة الله في ترك الأموال والأموال .

الثالثة : يرجون رحمة الله في مفارقة الأهل والأحبة.

الرابعة : يرجون رحمة الله بالسلامة في طريق الهجرة .

الخامسة : يرجون رحمة الله بالنجاة في دينهم .

السادسة : يرجون رحمة الله في النجاة من القوم الكافرين ، وفي

موسى عليه السلام ورد قوله تعالى ﴿ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ

الظَّالِمِينَ ﴾^(٢) ، وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي قال : ذهب

القبطي فافشى عليه : أن موسى هو الذي قتل الرجل فطلبه فرعون وقال :

خذوه فإنه الذي قتل صاحبنا وقال الذين يطلبونه : اطلبوه في ثنيات

الطريق ، فإن موسى غلام لا يهتدي للطريق .

(١) سورة الفاتحة ٦ .

(٢) سورة القصص ٢٥ .

وأخذ موسى عليه السلام في ثنيات الطريق ، وقد جاءه الرجل فأخبره { إن الملائماترون بك ليقتلوك فاخرج ، فخرج منها خائفاً يترقب قال رب نجني من القوم الظالمين } فلما أخذ في ثنيات الطريق جاءه ملك على فرس بيده عنزة ، فلما رآه موسى عليه السلام سجد له من الفرق . فقال : لا تسجد لي ، ولكن اتبعني ، فتبعه وهداه نحو مدين .

فانطلق الملك حتى انتهى به إلى المدين ، فلما أتى الشيخ ، وقص عليه القصص { قال لا تحف نجوت من القوم الظالمين }^(١) ، فأمر احدي ابنتيه أن أن تأتيه بعصا . وكانت تلك العصا عصا استودعه إياها ملك في صورة رجل فدفعها إليه ، فدخلت الجارية فأخذت العصا فأتته بها ، فلما رآها الشيخ قال لابنته : ائتيه بغيرها . فألقتها وأخذت تريد غيرها ، فلا يقع في يدها إلا هي ، وجعل يرددها وكل ذلك لا يخرج في يدها غيرها ، فلما رأى ذلك عهد إليه فأخرجها معه فرعى بها ، ثم إن الشيخ ندم وقال : كانت وديعة فخرج يتلقى موسى عليه السلام فلما رآه قال : أعطني العصا .

فقال موسى عليه السلام : هي عصاي!

فأبى أن يعطيه ، فاختصما ، فرضيا أن يجعل بينهما أول رجل يلقاها .

فاتاهما ملك يمشي ، ففضى بينهما فقال : ضعوها في الأرض فمن حملها فهي له .

فعالجها الشيخ فلم يطقها ، وأخذها موسى عليه السلام بيده فرفعها ، فتركها له الشيخ ، فرعى له عشر سنين^(٢) .

لتكون نجاته موسى عليه السلام وإخبار القرآن عنها بشارة نجاته النبي

(١) سورة القصص ٢٥ .

(٢) الدر المنثور ٤٨١/٧ .

محمد صلى الله عليه وآله وسلم من المشركين في مكة وفي طريق الهجرة .

السابعة : يرجون رحمة الله في قصد القرية إلى الله .

الثامنة : يرجون رحمة الله في جهادهم في سبيل الله والذي يدل

بالدلالة التضمنية على ثباتهم على الإيمان ، قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا

إِن تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يُرَدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾^(١).

الرابع : يرجون رحمة الله في الصبر والجهاد في سبيل الله .

الخامس : يرجون رحمة الله لأنه سبحانه هو الرحيم كما أخبرت آية

البحث .

السادس : يرجون رحمة الله لأنه تعالى هو الغفور ، إذ أن اختتام

الآية بقوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ بعث الغبطة في نفوس المسلمين

والمسلمات لايمانهم قال تعالى ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا

يَجْمَعُونَ﴾^(٢) ، وإزاحة الموانع النفسية عن إختيار الهجرة ، وفيه دعوة

للمسلمين للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع الحث على الإستغفار .

تفسير قوله تعالى ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

وفي الآية مسائل :

الأولى : الآية قاعدة كلية تبين عظيم عفوه سبحانه وسعة رحمته .

الثانية : جاءت الآية على نحو الاطلاق مما يدل على عدم حصر

رحمته ومغفرته بأفراد هذه الآية الكريمة والعاملين بمضامينها .

الثالثة : الآية في دلالتها المطابقة ترغيب ووعد كريم ، وفي دلالتها

التضمنية بشارة عن تحقيق رجاء المهاجرين والمجاهدين ، وفي دلالتها

(١) سورة آل عمران ١٤٩ .

(٢) سورة يونس ٥٨ .

الالتزامية وعيد للكافرين وبيان عن حرمانهم من عفوه ورحمته تعالى سواء لأنهم تركوا انتهاج السبل المؤدية الى رحمته سبحانه او لأنهم اضطروا المسلمين الى تحمل مشاق الهجرة والجهاد.

الرابعة : تلقي الآية السكينة في قلوب المؤمنين وتخبرهم عن عدم تضييع اعمالهم وجهادهم.

الخامسة : ان المؤمن يرجو محو ذنوبه بهجرته وجهاده، وهذه المغفرة مطلقة وشاملة للذنوب التي سبقت الهجرة والجهاد، او التي صاحبها، او التي تأخرت عنها لأصالة الاطلاق وعدم ظهور مقيد لفضله تعالى، ولأنه سبحانه يعطي بالأوفى والأتم.

السادسة : من الذنوب ما هي كبيرة وقد تأتي بعد الهجرة والتلبس بالجهاد في سبيله، ولا دليل على شمولها بالعمو والمغفرة في منطوق الآية ولكن حصوله من فضله تعالى وهو نوع اعجاز في الآية اذ ان صدرها بين رجاء المؤمنين العاملين لنيل رحمته من دون توكيد شمول المغفرة للذنوب الا من خلال مفهوم وعموم هذه الآية.

السابعة : لقد رجاى المؤمنون المجاهدون رحمته تعالى فاخبر سبحانه بلطفه وكرمه عن عظيم رحمته وكذا مغفرته وعفوه فقوله تعالى ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ وان كان جملة خبرية الا انه يفيد الانشاء والقضاء والثبوت.

الثامنة : قدمت الآية صفة الغفور على الرحيم وفيه لطف وفضل منه تعالى، فالؤمنون تطلعوا الى رحمته ولكنه سبحانه بشرهم بالمغفرة والرحمة، وكأن المغفرة طريق وسبب لنزول رحمته تعالى.

التاسعة : ان الرحمة تنزل منه تعالى لأنها من صفاته انه الرحيم وهو العفو عن الذنوب، فالؤمن والمهاجر والمجاهد تدركه الرحمة لأن الله تعالى هو الرحيم وينالها لسعيه وعمله الدؤوب للقرب من رحمته ونيل فضله تعالى.

قوله تعالى ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ الآية ٢١٩

القراءة

وهي آية في الكوفي فيما جمعت في غيره من المصاحف كالملكي والمدني والشامي مع الآية اللاحقة لها، وقرأ أهل الكوفة غير عاصم (إثم كثير) والباقتون بالباء (كبير) والمرسوم في المصاحف على قراءة عاصم بن بهدلة الكوفي التابعي المتوفي سنة ١٢٧ هجرية عن أبي عبد الرحمن عبد الله بن حبيب السلمي عن الإمام علي، وقرأ أبو عمرو وحده (قل العفو) بالرفع، والباقتون بالنصب.

وحجة من قرأ بالباء (إثم كبير) أن الباء أولى لأن الكبير مثل العظم ومقابله الصغر والكبير العظيم، واطلقوا الكبيرة والكبائر على الذنوب والفواحش كما ورد في القرآن قوله تعالى ﴿ كَبَائِرَ الْإِثْمِ ﴾^(١) ﴿ كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ ﴾^(٢).

وهو قياس مع الفارق، لأن كبائر هنا جاءت متعلقة بأفراد معلومة الماهية وفي مقابل صغائر الإثم، أما في الإثم فإنه قضية شخصية يحتمل الأمرين إذا لم يرد دليل مخصص وهو هنا رسمه في المصحف وأخبار قراءته.

أما القائل بالثاء أي (كثير) فقد استدل بمحاولة الشيطان إيقاع العداوة

(١) سورة الشورى ٣٧.

(٢) سورة النساء ٣١.

والبغضاء في الخمر والميسر، ولأنه لعن في الخمر عشرة لما سيأتي مما يدل على الكثرة.

وتعليل القراءة بهذه الكيفية امر لا يخلو من تكلف، فالقراءة توقيفية وتتعلق بالتنزيل، فالحرف الذي يثبت نزوله يجري على ضوئه التحقيق والتعليل والاستدلال، وعند التردد وتعدد الأقوال فالأصل هو المرسوم في المصاحف، ولم يترك القرآن للعلماء والمفسرين حرية اختيار الحرف وترجيحه والإجتهد في نصرة الرأي، والإجماع على سلامة القرآن من التحريف وخلوه من النقص، ففيه غنى عن الاستحسان ولا تصل النوبة في قراءته الى دوران الأمر بين التعيين والتخيير.

نعم لا بأس بتعليل قراءة (اثم كبير) اذا كان الغرض منه تثبيت القراءة المرسومة في المصاحف ومما يدل عليه قوله تعالى ﴿وَأُنْمَهُمَا أَكْبَرُ﴾ فلم تقل الآية انه اكثر بل جعلت المائز والمقارنة بلحاظ الكبر والصغر.

وصحيح ان القرآن لم يكتب ابتداء بالتقطيع وانما وضعت النقاط على الحروف فيما بعد، ولكن وضع النقاط لا يعني عملية مستحدثة يكون للإجتهد او للتغيير فيها اعتبار وموضوعية، انما هي بيان وتوضيح لما تعارف المسلمون على كتابته، ولو كان عدم التقطيع والإعجام يؤدي الى الاختلاف وتعدد القراءات لما ترك منذ ايام التنزيل الأولى على فرض صدق الرواية القائلة بان ابي الأسود الدؤولي هو الذي وضع النقاط على الحروف، والظاهر ان عدداً من التابعين والقراء قاموا بها ايضاً لظهور الحاجة الإستغرافية لها في الأمصار، ومع هذا فان مواطن الاختلاف في نقاط القرآن ليست كثيرة ولا متباينة.

والظاهر ان الكثرة اعم من الكبر، لأن الكثرة تفيد التعدد بغض النظر عن الصغر والكبر فتدخل فيها افراد ووجودات كبيرة وصغيرة بحسب الموضوع والحكم والقرائن والإمارات، اما الكبير فهو يدل على فرد واحد

ولكنه يتصف بالضخامة والكبر، فارادت الآية ان تبين هول وعظم الأضرار التي يسببها الخمر والميسر بلحاظ ضخامة الإثم وليس كثرتة، وفيه بشارة على تدارك اضرار الخمر والميسر وعدم اتساعها ومن اسباب ووسائل التدارك هذه الآية المباركة وما فيها من المضامين الأخلاقية والعقائدية والاجتماعية.

الإعراب

يسألونك : يسألون : فعل مضارع مرفوع وعلامة رفعه ثبوت النون لأنه من الأفعال الخمسة .

الواو : فاعل ، الكاف : ضمير مفعول به .

عن الخمر ، عن : حرف جر ، الخمر : اسم مجرور ، وعلامة جره الكسرة الظاهرة تحت آخره .

والميسر : الواو : حرف عطف ، الميسر : اسم معطوف على الخمر مجرور منه .

قل : فعل أمر مبني على السكون والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت ، وهو من البديع في اللغة العربية أن يعود الفاعل إلى المأمور بالفعل وليس إلى جهة الصدور ، إذ صدر الأمر من عند الله عز وجل (قل) ومع هذا لم يذكر لفظ الجلالة كفاعل لأن الأمر يتعلق بمقول القول ، نعم يرد في علم النحو (جملة مقول القول) والمراد الجملة الواقعة بعد فعل القول ، كما في (قال اني تبت الآن).

وجملة (قال) إنه يقول إنها بقرة ، فجملة (أنه يقول) في محل نصب قول القول للفعل (قال) وكذا قول (إنها بقرة) فهو في محل نصب مقول القول للفعل (يقول) .

فيهما في (حرف جر) ،هما : ضمير متصل في محل جر متعلق بمحذوف خبر مقدمه .

إثم : مبتدأ مؤخر مرفوع ، وعلامة رفعه الضمة الظاهرة على آخره ، كبير : صفة لإثم، مرفوع مثله ، وعلامة رفعه الضمة الظاهرة على آخره .

ومنافع : الواو حرف عطف ، منافع : اسم معطوف على إثم ، مرفوع مثله .

للناس : جار ومجرور متعلق بمحذوف صفة لمنافع.

وإثمهما : إثم : مبتدأ مرفوع وعلامة رفعه الضمة الظاهرة على آخره وهو مضاف ، و(هما) ضمير متصل مضاف إليه ،

أكبر : خبر مرفوع ، وعلامة رفعه الضمة الظاهرة على آخره ، من نفعهما : من حرف جر ، نفع : اسم مجرور بالكسرة تحت آخره ، وهو مضاف ، والضمير (هما) مضاف إليه .

ويسألونك : الواو : حرف عطف ، يسألونك تقدم اعرابها ، وتتصف هذه الآية بتكرار لفظ (يسألونك) فيها.

ماذا ينفقون : ماذا : اسم استفهام مبني في محل نصب مفعول به مقدم .

ينفقون : فعل مضارع مرفوع ، وعلامة رفعه ثبوت النون لأنه من الأفعال الخمسة .

قل العفو : قل : أمر مبني على السكون .

العفو : مفعول به لفعل أمر محذوف تقديره : انفقوا ، الكاف : حرف جر ، إذا اسم اشارة في محل جر اللام من(ذلك) للبعد ، والكاف للخطاب .

يبين الله : يبين : فعل مضارع مرفوع ، وعلامة رفعه الضمة الظاهرة على آخره ، ولفظ الجلالة : فاعل وعلامة رفعه الضمة الظاهرة .

لكم : اللام : حرف جر ، والضمير (كم) في محل جر متعلق

ب(يبين).

الآيات : مفعول به منصوب وعلامة نصبه الكسرة تحت آخره .
 لعلكم تتفكرون : لعل : حرف مشبه بالفعل يفيد الترجي ،
 والضمير (كم) في محل نصب اسم (لعل).
 تتفكرون : فعل مضارع مرفوع ، وعلامة رفعه ثبوت الواو لأنه من
 الأفعال الخمسة ، واو الجماعة فاعل .
 وجملة يسألونك عن الخمر لا محل لها استثنائية .
 وجملة (فيهما اثم) في محل نصب مقول القول .
 وجملة (إثمهما أكبر) في محل نصب حال .
 وجملة (يسألونك ماذا ينفقون) لا محل لها معطوفة على جملة
 يسألونك الأولى.

و(الميسر) مصدر ميمي كالموعد ، وهو نوع من أنواع القمار كان
 الناس في الجاهلية يلعبونه سمي به لأن الغالب فيه يأخذ المال من
 المغلوب يبسر ومن غير عوض ، كما يعني أن صاحب المال يفقد ماله
 في القمار يبسر ، وهو حرام شرعاً وعقلاً ، قال تعالى ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ
 بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾.

اللغة

الخمر: مادة الإسكار لأنها تخامر العقل وتخالطه وتغويه، وهو حرام
 كتاباً وسنة واجماعاً، والأقوى انه نجس وهو المشهور، ويلحق به في
 النجاسة كل مسكر مائع.

وفي الحديث: "كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يسجد على
 الخمرة"^(١)، وهي السجادة الصغيرة من الحصير، سميت بذلك لأنها تستر

(١) سنن النسائي ٥٧/٢.

الوجه عن الأرض.

والميسر: القمار اشتق من اليسر وهو وجوب الشيء لصاحبه، يقال يسر ييسر: اذا جاء بقدحه للقمار، والميسر عنوان عام للقمار واللعب به، وفي الخبر عن علي عليه السلام: الشطرنج ميسر - بكسر السين - العجم. وقيل اخذ من اليسر وهو السهولة، لأنهم كانوا يشتركون في الجزور أي الناقة المعدة للذبح ليسهل امرها ولكن على نحو المقامرة. ونسب الطبرسي الى القيل انه (اخذ من التجزئة لأن كل شيء جزأته فقد يسرته) (١)، وهو بعيد لإفادته الإشتقاق بالواسطة. والعمو التجاوز عن الذنب وترك العقاب وترتيب الأثر، واصله المحو والطمس، وقيل مأخوذ من الترك، ومن اسماء الله تعالى "العمو" قال سبحانه ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ﴾ (٢).

في سياق الآيات

بعد الآيات التي تتعلق بالصبر جاءت هذه الآية لتتناول مسألة فقهية وتعرض لأحكام الخمر والميسر، والظاهر ان هناك ملازمة بين التنزه عن الخمر والميسر وبين الثبات على الإيمان والإستعداد والأهلية للدفاع.

لقد تضمنت الآية السابقة الثناء على كل من :

الأول : الذين آمنوا بالله ورسوله.

الثاني : الذين هاجروا من ديارهم بدينهم سواء الذين هاجروا الى الحبشة أو المدينة المنورة ، وجاءت معجزتهم من مكة أو من القبائل والقرى المحيطة بها ، وهو من أسرار تسمية مكة أم القرى قال تعالى

(١) مجمع البيان ٣١٥/١.

(٢) سورة المجادلة ٢.

﴿وَتُنذِرُ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾^(١)، ليكون هذا الإنذار مقدمة ونوع طريق للهجرة ميلان الدين.

وهذه الهجرة شاهد تاريخي على أن النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم لا يريد القتال ولا يسعى إلى الغزو، إنما جاء بالصلاح والإصلاح، قال تعالى ﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾^(٢).

الثالث: الذين جاهدوا بالصبر والإنفاق في طاعة الله، ودفع الغزاة المشركين عن شخص النبي صلى الله عليه وآله وسلم والمدينة كما في معركة بدر وأحد والخندق.

الرابع: الذي جاهدوا في سبيل بالدفاع عن بيضة الإسلام، ولا يختص الجهاد المذكور في آية السياق بخوض معركة بدر وأحد والخندق وحنين ومنه الصبر على الأذى وتسمى المعارك أعلاه بالغزوات وكان النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم هو الذي قاتل فيها المشركين إذ يقال:

الأولى: غزوة بدر، مع أن موضع المعركة وهو بدر يبعد عن مكة ضعف المسافة عن المدينة وأحد فيها أبو جهل وأصحابه على القتال، فقتلوا وسحبوا إلى القليب، قال تعالى ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾^(٣)، وقد اسميناها كتيبة بدر، وخرج لها النبي صلى الله عليه وآله وسلم وليس معه سيف.

الثانية: غزوة أحد، مع أن المشركين هم الذين خططوا للمعركة واستعدوا لها وعملوا على اعداد الجيوش مدة سنة كاملة بين موت

(١) سورة الأنعام ٩٢.

(٢) سورة ص ٤.

(٣) سورة آل عمران ١٢٣.

عودتهم منهزمين من معركة بدر في أواخر شهر رمضان من السنة الثانية للهجرة ، وبين خروجهم من مكة في بداية شهر شوال من السنة الثامنة للهجرة ووقعت المعركة في النصف من شهر شوال وقد اسمستها كتيبة أحد ، وتصح تسميتها كتيبة أحد بلحاظ أن المشركين هم الغزاة .

الثالثة : غزوة الخندق ، فمع أن النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه كانوا محاصرين ، وحفروا خندقاً حول المدينة إذ هجم عليهم عشرة آلاف من المشركين وأحاطوا بالمدينة ، ولم يكونوا يرضون إلا بأمور:

الأول : قتل النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

الثاني : وقف نزول القرآن .

الثالث : قتل طائفة من الصحابة وأسر طائفة أخرى .

الرابع : منع إقامة الصلاة قال تعالى ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ

بَأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَآ أَن يُتَمَّ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾^(١) .

لقد ذكرت الآية السابقة صفة حميدة للمهاجرين ، وهي رجاء رحمة الله ، ومن مصاديقها بلحاظ آية البحث أمور :

الأول : التوجه إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالسؤال ، فقد كان المهاجرون يستمعون لآيات القرآن التي تنزل على النبي صلى الله عليه وآله وسلم ويتلقون الأوامر والنواهي منه ، ويسألونه متى أرادوا فليس من حاجب أو برزخ بينهم وبينه .

الثاني : تفقه المسلمين في الدين .

الثالث : أداء الصلاة جماعة مع النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم خمس مرات في اليوم .

الرابع : السؤال عن الإنفاق في سبيل الله ، ومجئ الجواب من عند الله عز وجل لقوله تعالى ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوُ﴾ أي إنفاق الزائد عن المؤونة لبيان أولوية الإنفاق على النفس والعيال ، وعدم الشح والبخل ، وقال تعالى ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾^(١) (٢) ، وعن ابن عباس : أن نفراً من الصحابة حين أمروا بالنفقة في سبيل الله أتوا النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا : إنا لا ندري ما هذه النفقة التي أمرنا بها في أموالنا ، فما ننفق منها؟ فأنزل الله {ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو} وكان قبل ذلك ينفق ماله حتى لا يجد ما يتصدق به ، ولا ما لا يأكل حتى يتصدق عليه.

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق أبان عن يحيى : أنه بلغه أن معاذ بن جبل ، وثعلبة ، أتيا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقالا : يا رسول الله إن لنا أرقاء وأهلين ، فما ننفق من من أموالنا ، فأنزل الله ﴿ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو﴾ .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والنحاس في ناسخه عن ابن عباس في قوله {ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو} قال : هو ما لا يتبين في أموالكم ، وكان هذا قبل أن تفرض الصدقة^(٣).

الخامس : الإنشاع من البيان الذي جاء به القرآن كما تدل عليه خاتمة

(١) سورة آل عمران ١٨٩.

(٢) أنظر الجزء الرابع والثمانين بعد المائة الذي اختص بتفسير الآية أعلاه والحمد لله.

(٣) الدر المنثور ٩/٢.

آية البحث ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾^(١)، وهل المقصود من الآيات المذكورة في الآية أعلاه خصوص موضوع السؤال في الآية والإجابة عليهما في ذات آية البحث الجواب لا ، إنما المراد من الآيات المعنى الأعم ففي كل آية قرآنية بيان من الله قال تعالى ﴿وَرَزَقْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾^(٢).

اعجاز الآية

تعتبر الآية مدرسة عقائدية واجتماعية واخلاقية، وفيها تأسيس للأحكام المتعلقة بالخمير والقمار، وفتح الباب لإجراء دراسات متشعبة في الخمير موضوعاً وحكماً، وفيها رد ضمني على اولئك الذين لا يذكرون من الخمير الا الفوائد ويحاولون تعداد بعض المحاسن لها لإيهام انفسهم والتغريب بالآخرين.

ان الجمع بين الخمير والميسر في الموضوع والحكم آية اعجازية في السؤال وتتجلى في الآية الموضوعية والحكمة، ومن اعجازها تعدد السؤال فقد تكرر فيها قوله تعالى ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾، واقتران بيان احكام الخمير وموضوعية العفو في آية واحدة فيه دلالات، وكأن العفو حسنة وفعل ممدوح في مقابل اجتماع الفعل المذموم وهو الخمير والميسر.

الآية سلاح

لقد وضعت الآية الضوابط الكلية لتحريم الخمير وساعدت في اجماع المسلمين وليس علماءهم فقط على التسالم على النهي المركب عن الخمير والميسر والتحذير منهما، ولم تكن الآية لعامة المسلمين وحدهم، بل انها عون للأمرء والقادة والحكام والذين يسنون الأحكام الوضعية

(١) سورة البقرة ٢١٩.

(٢) سورة النحل ٨٩.

ويقومون بتنفيذها، وحاجز دون اسراف المترفين.

والخمر والميسر يأتي على مال الإنسان ويجلب له الداء والمرض العضوي والنفسي ، وأيهما أكثر ضرراً الخمر أم الميسر ، الجواب كل منهما فيه ضرر كبير ، وهذا الضرر بحسب كثرة أو قلة الفرد القبيح منهما ، والخمر هو الأشهر فهو أم الكبائر ، وتجعل الإنسان يفقد عقله .

(وأخرج ابن أبي حاتم : عن ابن عمرو . أنه سئل عن الخمر فقال : سألت عنها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : هي أكبر الكبائر ، وأم الفواحش ، من شرب الخمر ترك الصلاة ، ووقع على أمه وخالته وعمته^(١) .

(عن ابن عباس في قوله { يسألونك عن الخمر . . . } الآية . قال : نسخها { إنما الخمر والميسر . . . }^(٢) الآية .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد في قوله { قل فيهما إثم كبير } قال : هذا أول ما عييت به الخمر { ومنافع للناس } قال : ثمنها وما يصيبون من السرور .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله { قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس }^(٣) قال : منافعها قبل التحريم ، وإثمها بعدما حرما^(٤) .

وتبعث الآية على الإحتراز من المعاصي والذنوب وتدعو إلى المسارعة في فعل الخيرات من غير اسراف إذ يكون الإنفاق من الزائد ، وقال تعالى ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا أَنَاءَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ

(١) المائة ٩٠ .

(٢) الدر المنثور ٣/٩٣ .

(٣) سورة البقرة ٢١٩ .

(٤) الدر المنثور ٢/٩ .

سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخَلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ^(١) لبيان أن سؤال المسلمين للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم عما يلزمهم انفاقه شاهد على تنزههم عن البخل بما آتاهم الله من فضله^(٢).

اسباب النزول

ذكر ان جماعة من الصحابة اتوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقالوا: افتنا في الخمر والميسر فانها مذهبة للعقل مسلبة للمال، فنزلت الآية.

مفهوم الآية

يتكرر لفظ (يسألونك) في هذه الآيات اذ يرد في بعض آيات معدودات متتاليات من سورة البقرة نحو سبع مرات من اصل خمس عشرة مرة موضع لهذا اللفظ في القرآن ثم يرد مرة واحدة في سورة المائدة وهي آخر سور القرآن نزولاً، مما يعني ان لسورة البقرة موضوعية في تثبيت احكام الشريعة سواء في باب الأوامر والفرائض او في باب الزجر والنواهي، ومن مفاهيم الآية ان الشريعة اصبحت تحكم سلوكهم وميادين حياتهم المختلفة وانهم اخذوا يتدبرون امرهم ويرجعون في سلوكهم الى القرآن والسنة النبوية فهذا السؤال يدل بالدلالة الإلتزامية على انهم كانوا يتبعون النبي صلى الله عليه وآله وسلم في سنته وسيرته ويحاكونه في افعاله، الا ان الأمر بالنسبة للخمرة تحتاج الى تشريع وحكم وبيان اجتنابها وانه على نحو الوجوب ام الإستحباب.

(١) سورة آل عمران ١٨٠.

(٢) أنظر الجزء الرابع والثمانين بعد المائة من تفسيري للقرآن الذي صدر خاصاً بتفسير الآية أعلاه .

ولم يكن تحريم الخمر بالأمر الهين على الناس لغلبة النفس الشهوية ولتأثير اهل الكتاب والوثنيين ولأن من يزاولها ويتناولها غالباً اصحاب القرار والمترفون، وهؤلاء لهم تأثير على الناس وقدرة على توجيههم نحو الإسلام او منعهم من دخوله، فجاءت الآية تحدياً لهم وابطالاً لسحرهم ومنعاً من تأثيرهم وتدل الآية على ان القرآن هو الفيصل في اختيار الناس لأفعالهم وانهم حينما يلجأون الى النبي صلى الله عليه وآله وسلم لا يتركهم في حيرة وتردد بل يأتي لهم بالجواب الوافي والحل الحاسم.

والإجماع على الحد على شاربها وهذا لا يلغي وظيفة العلماء في هذا الباب بل انه يملئ عليهم بذل الوسع وعلى نحو متعدد الجوانب والحشيات لمنع الخمر وللتقليل من تعاطيها، وتحصين اجيال الشباب منها وبيان اضرارها ومحتاج الأمر الى بذل الأموال وتسخير وسائل الإعلام والاستعانة بالطب وعلم الاجتماع واهل الاختصاصات المختلفة لبيان اضراره وليطلع العالم بأسره على نظرية الإسلام في الخمر وموضوعية حرمة في اصلاح المجتمعات وتقديم الأمم.

وفي نظام العولمة وتداخل الحضارات وتلاقح الأفكار نحتاج بيان اضرار وحرمة الخمر في العالم بأسره وتتناسب قوة وكيفية هذا البيان بحسب اثر كل دولة عالمياً، فتجتهد المؤسسات في الإعتبارات الصحية والأخلاقية والإجتماعية من اجل وقاية المجتمعات عامة والنصيحة للناس جميعاً ولإثبات سلامة احكام الإسلام وصدق تنزيلها قال تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(١).

لا بد من بيان مظلومية الشريعة في تعطيل حكم شرب الخمر بمعنى ان اجازة القوانين الوضعية لشرب الخمر لا يمنع من اظهار الحيف الذي لحق

(١) سورة الأنبياء ١٠٧.

بالشريعة بسبب هذا الجواز، لكي لا يكون الإنفراد في باب القوانين والأخلاق للأحكام الوضعية .

وتبقى احكام الحلال والحرام في الشريعة محبوسة بين ثنايا الكتب فعلى الفقهاء والمؤمنين التحرك وفق قاعدة الميسور في البلدان الإسلامية التي لا تطبق احكام الشريعة والتوجه الى الشباب والمسلمين عامة في بيان حرمة الخمر واضرارها، ووضع البرامج الكفيلة للمساعدة في اجتنابها واعانة الدول والمؤسسات على الإقتراب من الحكم الشرعي في هذا الباب وهو من مصاديق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ان النصوص باضرار الخمر يحتم على الجميع التعاون للتخلص منها.

ان السؤال عن الخمر وحده يدل على أهلية المسلمين والإستعداد لتلقي الإجابة والحكم بالحرمة بمعنى انه لو جاء الأمر ابتداء من النبي صلى الله عليه وآله وسلم لتصدى له جماعة ولقالوا امرنا بالصلاة والصوم والجهاد فاطعنا، وتعاطي الخمر او عدمه من الأمور الخاصة والشخصية وليست من العبادات ولكن حينما سألوا جاء الجواب وكأنه معلق بانتظار السؤال الذي يعني وجود فئة من المسلمين مستعدة للعمل بما يرد من حكم في موضوع الخمر بل ان السؤال يدل بالدلالة الإلتزامية على انتظار المسلمين للحكم الإلهي في الخمر وهذا الإنتظار يعني الإستعداد لقبوله وبذا تتبين مفاهيم فلسفة التدرج في الحكم الشرعي وتحريم الخمر على مراحل وهو من اللطف الإلهي لتقريب العباد الى الطاعة وابعادهم عن المعصية، والتخفيف الزماني في نزول الأحكام من غير ان يؤثر هذا التخفيف بماهية التشريع الدائم كلاً أو جزء، ومن الإعجاز ان يأتي النهي على صيغة الحجة والبرهان العقلي بحساب المنافع أو الأثام، فالآية لم تجعل الأضرار في مقابل المنافع كي ننظر لها بعين الميزان واسباب الترجيح ويترك للناس الإختيار، فقد يختار بعضهم المنافع

القليلة مع تحمل الأضرار وان كانت كثيرة بل انها جعلت المنافع في مقابل الآثام الكبيرة وربما كان هناك اثم واحد لا تستطيع المنافع وان تعددت ابطال اثره او الرجحان عليه فما الفائدة من المنافع اذا ارتكب صاحبها الذنب والاثم وترتبت عليه العقوبة والعذاب الا ان يشاء الله العفو والمغفرة.

وتلك نكتة في اعجاز القرآن وبما لم يلتفت اليها وهي عدم اهلية المنافع للتعارض مع الآثام للتباين الموضوعي، فقد ثبت في علم الأصول ان وحدة الموضوع من شرائط التعارض ، وهنا الموضوع مختلف، فالآثام تتعلق بالدنيا والآخرة والمنافع آنية ومحدودة، وكثير من المحرمات فيها منافع ولكن اجتنابها يترشح نقلاً وعقلاً مما فيها من الآثام وفيه نكتة عقائدية وهي ان للآثام آثاراً ضارة في الحياة الدنيا تفوق المنافع.

فالربا مثلاً فيه منافع المعطي يأخذ ربحاً معيناً كل شهر او كل سنة، اما الآخذ فانه يجتهد في توظيف المال ليربح اضعاف ما يدفع لصاحبه ويتخلص من البطالة ويوفر لأهله لقمة العيش وربما يكون فيه تخلص من الأذى وطرد لشبح السجن ونحوه، ولكن التحريم ورد فيه مطلقاً، والمسلمون يتجنبونه لما فيه من الآثام ولا يلتفتون ولا يرغبون في المنافع التي تحصل منه، ولم يترك الشارع المقدس الناس في حرج وحيرة بل حبب اليهم القرض والدين وندبهم اليه وجعل فيه ثواباً عظيماً، فالمدار في التشريع على الثواب والعقاب، اما المنافع فتأتي بالدرجة الثانية ثم انها من الكلبي المشكك فالآية بينت ثلاثة امور في الخمر:

أولاً : اثم كبير.

ثانياً : منافع.

ثالثاً : كبر وشدة الإثم.

ولم تبين الآية اضرار الخمر تفصيلاً ولكنها تعرف من مفهومها، ومن الشواهد العقلية والوجدانية والبدنية التي تلازم شرب الخمر وتظهر على صاحبها كما ان الآية قيدت المنافع بانها للناس وليس مطلقة والمعروف ان الناس اعم من المسلمين وان خطابات القرآن وردت بلفظ (يا ايها الناس) وارادة جميع الناس وتدخل فيها لغة الإنذار والوعيد، ولفظ (يا ايها الذين آمنوا) يراد منه المسلمون والذين صدقوا برسالة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

ولا تكون الآية بتقدير فيها اثم كبير للمسلم ومنافع لغير المسلم، أي ان المقصود من لفظ الناس غير المسلمين ممن يقوم بصناعتها وتسويقها وبيعها وجني الأرباح منها ومحاولة افشاء تداولها بين المسلمين لما فيها من اضعاف للعقيدة، وتعطيل للفرائض، وتخلف عن الجهاد، ونصرة الحق، وميل الى الراحة والخمول ونشر للرديلة، بمعنى ان اجتناب الخمر حرب على الكفر والضلالة، وتداولها اعانة للكافرين على الإسلام وحاجز ظلماني دون التوجه نحو العبادات والفرائض.

ومن معاني هذا التقدير ان المسلمين يختارون كيفية العمل وفق حساب الثواب والعقاب، وقد قسم لهم الشارع ماهية الأعمال وحث على الصالحات وزجر عن الذنوب والآثام، قال تعالى ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ

وَالْمُؤْمِنُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ
أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١﴾

اما الكفار فانهم يختارون اعمالهم وفق حساب الريح والخسارة الماديين والاثر الآتي العاجل، فجاءت الآية لوصف حالهم وذمهم، أي ان المقارنة والبيان في الآية يتضمن مدح المسلمين لإعتمادهم الأحكام الشرعية في اختيار ما يفعلون، وذم الكافرين لأنهم لا ينظرون الا بعين الدنيا القاصرة والربح العاجل المحدود، كما ان قيد (للناس) يفيد ان المنافع محدودة وانها لا تتعلق بالمجتمعات والدول والقيم الأخلاقية والسنن، لذا فان الخمر محرمة في الملل السماوية ويمكن تسمية هذه الآية بآية السؤال لتكرر السؤال فيها، وقد جاء السؤال الثاني عن الإنفاق مما يعني استعداد المسلمين للإمتثال في باب الأمر والنهي، والأمر بالإنفاق والنهي عن الخمر وهذا هو معنى الإيمان ان يعمل الإنسان بالأوامر والنواهي من غير ان يترك شطراً منها، وقد تكرر السؤال عن الإنفاق قبل خمس آيات جاء السؤال في قوله تعالى ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ﴾ وتكرر في هذه الآية الا ان الجواب يختلف ففي تلك الآية تعلق الجواب بجهة الإنفاق ومصرفه، اما في هذه الآية فجاء الجواب مطابقاً للسؤال ولكنه لم يتعلق بموضوع الإنفاق المادي وهو المتبادر من مفهوم السؤال بل جاء الجواب بخصوص العفو والتجاوز عن الأخطاء ونسيان الإساءة ونبد الضغينة.

وفي الآية تأسيس لمدرسة اخلاقية عالمية تتصف بالتسامح والحلم والإبتعاد عن مواطن الحقد والكراهية وقوامها الإسلام أي ان العفو لا يكون تفريطاً ولا تهاوناً بل هو جزء من فلسفة عقائدية والغاية منه طرد

النفرة عن النفوس وتحبيب الإسلام الى الأفراد والمجتمعات، ونشر روح الإلفة والمحبة بين المسلمين لتكون مقدمة للتوجه الى ميادين الدفاع وعودنا على بناء هياكل الدولة الإسلامية ومانعاً عن حصول التداعي في انظمتها واعرافها.

وخاتمة الآية حجة على الناس جميعاً فبيان الآيات ونزول الأحكام على نحو مبين لا يخلو من اللبس والخلط والإجمال آية اعجازية، وتوكيد على صدق نزول القرآن من عنده تعالى فانت ترى كبار رجال القانون والقادة ورجال الحل والعقد يواظبون على البحث ويواصلون الاجتماعات والدراسات لإصدار قانون في جهة معينة من جهات الحياة اليومية والاجتماعية، وحالما يصدر القانون تظهر عيوبه وكأنها ملازمة له في حال التطبيق وتبدو الثغرات ويشكو القائمون على تنفيذه وتطبيقه مما فيه من الفجوات ومنهم من يستغلها للميل عن الحق والتجافي عن الإنصاف ثم لا يلبث ان يلحق القانون بتعديل بعد تعديل الى ان يلغى ويحل محله قانون آخر، اما احكام القرآن فانها آيات باهرات ودلالات قاهرات وبيان تفصيلي لجميع الأمور وتعطي للدنيا مفهوماً خاصاً وهو انها مزرعة الآخرة فينظر المسلم للدنيا من منظار الآخرة مع انه يعيش في الدنيا .

ولم ير عالم الآخرة بعد ويستحضر الحساب وبلوغ السعادة الدائمة في الآخرة لذا ختمت الآية بقوله تعالى ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ اذ ان وضع الهدف والغاية في منهاج العمل يجعل الحياة تتصف بصبغة خاصة ويجعل لها وجهة معلومة، فالنظر الى الخمر بمنظار الحساب والنشأة الآخرة يعني الزجر والإبتعاد عنها والنظر الى العفو بلحاظ ما فيه من عظيم الثواب يعني المبادرة اليه، والتخلص من الكدورات والحجب الظلمانية وطرد النفرة والخسومة مع ارادة وجهه تعالى، والتفرغ لأداء العبادات والتفكير

والتدبر لا ينحصر موضوعه بالعفو بل يشمل الزجر عن الخمر واضرارها، كما يمكن النظر الى قوله تعالى ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَكْرَهُنَّ﴾ على نحو مستقل ربما يفيد الإطلاق في التفكير من غير تقييد بمسألة الدنيا والآخرة.

التفسير

تفسير قوله تعالى ﴿سَأَلُونَكَ﴾

وتقدير الآية :

الأول : يسألونك يا نبي الله عن الخمر قل فيه إثم كبير .

الثاني : يسألونك عن الميسر قل فيه إثم كبير .

الثالث : يسألونك عن الجمع بين الخمر والميسر قل فيه إثم كبير .

ويدل هذا السؤال على إرتقاء المسلمين في المعارف الإلهية والثبات في منازل الإيمان ، واستيلائه على فعل الجوارح والجوانح وأراد الله عز وجل لهذا السؤال وجوابه حضورهما في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والواقع في قراءة القرآن في الصلاة سبع عشرة مرة في اليوم والليلة للتذكير بالوظائف العبادية والأخلاقية ، وفيه برهان على أن نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم أصلح للمجتمعات وتهذيب لعالم الأفعال ، وصيانة للأموال ، ففي الوقت الذي تحت فيه الآية السابقة على الإنفاق بصيغة التدبير بحصره بالزائد على النفقة الواجبة على الذات والعيال تأتي هذه الآية لتمنع من فقدان العقل والإتزان بالخمر ، ومن ضياع الأموال بالميسر والقمار .

وقد نهى الله عز وجل عن التفريط بالمال بجعله بأيدي السفهاء وذوي العقول الضعيفة ، قال تعالى ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾^(١) فكيف بالتفريط بالعقل والمال معاً بشرب الخمر ولعب القمار .

(١) سورة النساء .٥

وفي الآية مسائل :

الأولى : فيه تشریف واعزاز للمسلمين ومدخل كريم لدراسة احوال ايام النزول وما عليه المسلمون من الوعي العقائدي والحس الموضوعي والإلتفات الى الأشياء التي تستحق حكماً مستقلاً.

الثانية : من وجوه التشریف في الآية ان السؤال فيها مغاير لقوله تعالى ﴿ لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ بُدِّعَ لَكُمْ سَأُكُفُّ ﴾^(١)، فلو كانوا يشربون الخمر لساءهم الجواب، فالسؤال وحده يدل على التنزه النوعي العام من الخمر وان المسلمين ارادوا استقبال الحكم الشرعي بالنهاي عنها، وقد يكون النهي عنها موجوداً في اصل الشريعة والسنة، ومن المعروف ان الشرائع نطقت بجرمتها، فجاء السؤال رجاء معرفة اضرارها وما فيها من الأخطار، أي ان السؤال جاء لتثبيت النهي عنها بعناوين زائدة تتعلق بعواقبها السلبية، فيمكن ان نستخلص نتيجة قرآنية كلية من سؤال المسلمين للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وهي ان السؤال يساهم في ترسيخ الحكم الشرعي، ويمكن ان نطلق على الآيات التي تتضمن مثل هذا السؤال (آيات الاستفتاء).

الثالثة : تنزل الاحكام الشرعية تارة ابتداءً من عنده تعالى، واخرى عن طريق السؤال او وجود اسباب للنزول، وما ينزل عن السؤال والرجوع الى النبي صلى الله عليه وآله وسلم يدل على الابتلاء به كموضوع بالإضافة الى الحاجة النوعية لمعرفة حكمه وما يترتب عليه.

الرابعة : سؤال المسلمين يدل على عزمهم على عدم الصدور الا من عند النبي صلى الله عليه وآله وسلم، بالإضافة الى ما فيه من معاني اللجوء والاستغاثة والتسليم بالنبوة.

الخامسة : السؤال يدل على حالة الانضباط والالتزام التي وصل اليها

(١) سورة المائدة ١٠١.

المسلمون.

تفسير قوله تعالى ﴿عَنْ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾

والخمر في الشريعة ما ادى شربه الى السكر، واذا كان كثيره مسكراً فقليله خمر وحرام، وبه نصوص عن اهل البيت، وبه قال الإمام الشافعي.

وقال الإمام ابو حنيفة ان الخمر عصير العنب اذا اشتد وغلغلى، وروي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم انه قال: (ان من العنب خمراً، وان من التمر خمراً، وان من العسل خمراً، وان من البر خمراً، وان من الشعير خمراً)، مما يدل على عدم انحصار مادة الخمر وان العنوان والموضوع يتعلق بالإسكار ويمكن استظهار النتيجة وفق القياس الإقتراني، كل مسكر خمر، وكل خمر حرام النتيجة كل مسكر حرام.

والميسر وهو القمار، وبه قال ابن عباس وابن مسعود ومجاهد والحسن وهو المروي عن اهل البيت عليهم السلام.

وورد السؤال بصيغة الجمع ﴿يسألونك﴾ وعلى نحو المتعدد في الموضوع وشمول السؤال لحكم الخمر وحكم الميسر مما يدل على بلوغ المسلمين لمرتبة عالية في التفقه في الدين لما يعنيه السؤال من ابتغاء وطلب الحكم الشرعي والإستعداد للعمل بمضمونه.

وجاء السؤال في الآية على نحو الإطلاق ويحتمل وجوهاً:

الأول : السؤال عن حرمتها او عدمها خصوصاً وان من اهل الكتاب من يبيحها.

الثاني : السؤال عن حقيقتها وماهيتها.

الثالث : جواز الخمر وتعاطي القمار او عدمهما.

الرابع : ارادوا معرفة الحكم لموضوع ابتلائي الفوه في نواديهم.

الخامس : حلية الإنتفاع بهما او عدمها.

الظاهر ان السؤال يتعلق بالحرمة ولكن هذا لا يمنع من الوجوه الأخرى.

وعن الربيع بن انس ان هذه الآية نزلت بعد تحريم الخمر، ويحتاج قوله الى دليل خصوصاً وان الظاهر بخلافه لورود السؤال على نحو القضية المهمة، وعلى فرض صحته فإن الآية تؤكد لحرمة الخمر.

ان ورود الخمر والميسر على نحو الملازمة والإشتراك في الحكم يدل على وحدة الموضوع في تنقيح المناط، فالآية تحذير من القيام بالتفكيك بينهما والإكتفاء بتحريم احدهما او ايجاد دراسات واسباب تؤدي الى التفريق بينهما من حيث الموضوع او الحكم او كليهما.

فالآية تمنع من القول بالتباين الموضوعي بينهما وان الخمر يؤدي الى السكر بينما القمار لهو ولعب، وقد يتجرأ من يقول بانه أو بعض انواعه تنمية للملكة وانه اصبح مسابقة دولية وهكذا، لأن الحرمة ملازمة لما يسمى قماراً عرفاً وشرعاً الا ان بتغير الموضوع ويأخذ صبغة عقلية بعيدة عن اللهو واللعب والباطل فاذا تغير الموضوع تغير الحكم كما في المسابقات الدولية الخاصة ببعض الألعاب.

النهي لغة: المنع والزجر وهو خلاف الأمر، أي انه عبارة عن طلب العالي من الأدنى منه ترك فعل او ردعه عنه، لذا ذكر في علم الاصول ان مادة النهي ظاهرة في التحريم، ولكن ذلك ليس على سبيل القاعدة الكلية وان كان كبرى خاصة مع أخذ القرائن بنظر الاعتبار.

وبخلاف القول (لا تشرب الخمر) التي هي من صيغ النهي والزجر، اعتبر نفر من الاصوليين صيغة (اترك شرب الخمر) من صيغ الأمر كما في الدلالة المطابقة للأمر وانه انما يدل على النهي بالدلالة الالتزامية، وربما

كان النزاع لفظياً.

ان هناك اختلافاً يبرز احياناً بين الصيغتين، فجملة (اترك) ربما تعني عدم الاستمرار بشرب الخمر والكف عنه، بخلاف (لا تشرب الخمر) التي قد تأتي نهياً ابتدائياً وهي الانسب فيه غالباً، وقد تتعلق المسألة بماهية الموضوع، فربما كانت صيغة (اترك) أمراً وجودياً لما فيها من فعل الترك والكف عن الفعل، بخلاف الصيغة الأخرى التي قد تكون أمراً عدمياً محضاً.

والخمر معروف وهو الشراب المسكر اذ يفقد من يتناوله السيطرة على عقله وجوارحه ساعتها، واصل التخمير التغطية، وبسند صحيح عن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام قال: ان الله لم يحرم الخمر لإسمها ولكن حرّمها لعاقبتها، فما كان عاقبته عاقبة الخمر فهو خمر، ويجب الحدّ على من تناول المسكر وعليه الاجماع والنص، وحده ثمانون جلدة.

ان معاناة المجتمعات المتحضرة ذات الانظمة الاجتماعية المتسامحة، تزداد باتصال، وأخذت المؤسسات العالمية والوطنية في باب الاجتماع والاقتصاد والأخلاق وغيرها تدرك الاضرار الفادحة من تعاطي الخمر واطراد معدلاته طولاً وعرضاً، وتحاول دون جدوى معالجة المشاكل الخطيرة المستحدثة الناجمة عن تعاطي الخمر وما شابهه، بينما عاجلج الإسلام هذه الظاهرة بأية واحدة ومن الأصل، لتصبح الخمر مبعوضة للنفوس وتبعث على النفرة من اصحابها، وكانت عوناً على معرفة اضرارها واطرارها.

وفي خطبتها قالت الزهراء عليها السلام: (والنهي عن شرب الخمر تنزيهاً عن

الرجس)، فجعلتها مناسبة لاستحضار الآية والفضل الإلهي على المسلمين بتحريم الخمر لقد أرادت الزهراء عليها السلام ان تؤكد هذه الحقيقة التاريخية وتدعو المسلمين الى البقاء بعيداً عن الموبقات والاعمال

القييحة، كما ان الفقرة من الخطبة اعلان وتوكيد لبقاء نواميس الشريعة متجددة من غير تحريف او تغيير، وهي صرخة ضد الردة في باب الأخلاق.

وتحريم الخمر يدل على صدق الرسالة وعظيم اثرها اذ واجه النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم المعتقدات الفاسدة والاهواء والرغبات المحرمة، ليأخذ بأيدي الناس نحو الصلاح وبناء المجتمع السليم الخالي من الأمراض الفكرية والنفسية والبدنية وليكون ذلك مقدمة عقلية للهداية والتوفيق وسيلاً الى الجنة والسعادة الأبدية.

تفسير قوله تعالى ﴿ قُلْ ﴾ فيه وجوه :

الأول : إكرام متجدد للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وانه لا يجيب الا عن الله عز وجل.

الثاني : هذه الآيات التي يتضمن الجواب القرآني فيها ﴿ قُلْ ﴾ يمكن ان نسميها اصطلاحاً (آيات الواسطة).

الثالث : ان الله عز وجل يبلغ بواسطة نبيه الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، والنبي لا يأتي بالحكم من عنده، خصوصاً وان الأحكام وما يترتب عليها تتعدى عقول البشر بدلالاتها ومضامينها وابعادها واسرارها سواء بلحاظ زمن النزول وواقع المجتمعات آنذاك، او بلحاظ عكسي وهو ان تقدم العلوم يكشف عن اعجاز القرآن وصحة اخباره ومطابقة الواقع العلمي لها، مع امكان توظيفها وفق صيغ الإستصحاب القهقري.

الرابع : يتضمن الجواب الوجوه المتباينة، ففيه بيان للضرر والنفع ومقدار كل منهما، كما يمكن استقراء الحكم الشرعي بواسطتهما.

الخامس : يدل سياق الآية وما فيه من الدقة والحكم على صدق نبوته صلى الله عليه وآله وسلم وان الكلام الذي يقوله انما هو من عند الله عز وجل.

السادس : تدل الآية على لزوم قيام النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالتبليغ، وتعذر الإمتناع عن بيان الحكم.

السابع : مواجهة النبي صلى الله عليه وآله وسلم للناس بتحريم الخمر والميسر في ذات الوقت الذي يدعوهم فيه لأداء الفرائض وعلى نحو لم يعتادوه، وقيادتهم الى الدفاع في سبيل الله، أمور تدل على عظيم مسؤوليات الرسالة وعدم تردد النبي صلى الله عليه وآله وسلم في التبليغ والعمل بأحكام وسنن النبوة.

الثامن : ﴿ قُلْ ﴾ فعل امر مما يدل على ان قيام النبي بمهام النبوة امر مولوي ويحمل اللفظ هنا على الوجوب ويدل بالدلالة الإلتزامية على عدم وجود امر له فيه، وهذا غاية التشريف والتفضيل ان يكون قول وفعل الإنسان من عنده تعالى وبذلك نال الأنبياء المنزلة الرفيعة والمقام السامي واسباب العصمة.

التاسع : ورود الجواب عقب السؤال مباشرة وبصيغة ﴿ قُلْ ﴾ يعني الفورية ولها معاني مركبة، فهي تدل على لطفه تعالى بسرعة الإجابة وتفضله بالإستجابة واقامة الحججة على الناس في موضوع الخمر والميسر وفيه توكيد على لزوم المبادرة للعمل بالأحكام الشرعية والإمتثال لما فيها من الأوامر والنواهي.

العاشر : لو لم يسأل المسلمون عن الخمر والميسر، او انهم سألوا عن احدهما، فهل يتأخر الجواب والحكم؟ الجواب: لا، وكذا لو كان السؤال عن احدهما دون الآخر.

الحادي عشر : في الآية تأديب للنبي صلى الله عليه وآله وسلم

بضرورة عدم التردد والتأخر في الإجابة والأخبار عن حكم المسائل التي يريد المسلمون الإطلاع عليها وهي حث للفقهاء والحكام واهل الحل والعقد بالتعجيل بالإجابة وبيان الأحكام وقضاء الحوائج الامع وجود حكم ثانوي كما في حال الأذى غير المحتمل والضرورة وهي تقدر بقدرها زماناً ومكاناً وكيفية، فقد يضطر الفقيه للغة الكناية والتعريض واهل الحل والعقد الى التنبيه والتوبيخ التقييح.

الثاني عشر : الآية تدل على فضل النبي صلى الله عليه وآله وسلم على الأنبياء الآخرين، فموسى عليه السلام وهو كليم الله كان اذا سئل تضرع الى الله عز وجل طلباً للإجابة وانتظاراً لها فيخرج الى الميقات، والنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم أكرمه الله عز وجل بأن يفضل بالعناية بسؤال المسلمين وغيرهم له، فيرد الجواب من عنده تعالى.

الثالث عشر : انها ذروة الإكرام والمن الإلهي بان يسئل النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ويكون المجيب هو الله تعالى كما انها نعمة على المسلمين ان يتلقوا احكامهم من السماء، والتزام المسلمين باحكام الآية يدل على أهليتهم لوراثة الأنبياء فان قلت من المسلمين من يشرب الخمر قلت: ان هؤلاء عصاة باتفاق الشرع والعقل والعرف العالمي واحكام القانونيين، فلا عبرة بالشاذ النادر، كما ان الإلتزام يتعلق اصلاً بتعاهد لحكم حرمة الخمر وعدم تحريفه.

الرابع عشر : في الآية حجة على الكافرين واخبار عن بلوغ النبي صلى الله عليه وآله وسلم رتبة لم ينلها احد غيره من الأنبياء.

الخامس عشر : في الآية امان وبشارة للمسلمين باحرازهم لأحكام دينهم.

السادس عشر : الآية حث للمسلمين على السؤال والإستفهام عن امور دينهم ودنياهم واستثمار ايام النبوة للحصول على جميع الأحكام

والأجوبة المناسبة للمسائل الإبتلائية.

السابع عشر: ان اخبار القرآن عن السؤال وتضمنه للإجابة والحكم بيان لأهمية المسألة وانها من امهات المسائل الإبتلائية التي تواجه المسلمين او ستواجههم كما تجلى ذلك واضحاً في زمان العولة وطغيان القوانين الوضعية ووضع انظمة للحرية الشخصية على حساب الضوابط الشرعية والقواعد الكلية في باب الحلال والحرام او الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

الثامن عشر: في الآية تخفيف عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وان الذي يجيب به انما هو من عند الله، وهو نوع تيسير للتقييد النوعي العام بما ورد في الآية وغيرها من الاحكام.

التاسع عشر: في الآية تأديب للآخرين لما فيها من الدلالة التضمنية بان النبي صلى الله عليه وآله وسلم ليس له ان يضيف او ينقص او يغير من الإجابة القرآنية.

العشرون: تدل الآية على قطعية الأحكام الشرعية ولا يرقى الشك للإجابة لأن القرآن لم يطرأ عليه التحريف او النقص والزيادة.

الحادي والعشرون: تحت الآية على السؤال عن امور الدين واحكامه وان تعلق السؤال بما هو ضار وقبيح.

الثاني والعشرون: الآية تأديب للفقهاء ومصادر الفتوى بعدم الإفتاء من عندهم وحجة عليهم، وعليهم بالرجوع الى الكتاب والسنة، فالنبي صلى الله عليه وآله وسلم على عظيم منزلته عند الله فانه ينتظر الجواب منه سبحانه، وقد قيل ان نصف العلم ان يقول الإنسان لا اعلم، لما فيه من الأقرار بعدم العلم، ولأن المسألة تحثه على البحث والتحقيق وتدل على الشجاعة العلمية والإقرار بالنقص وعدم الإحاطة بالعلوم وفيها نزع لروح الكبر والإستعلاء والغرور.

الثالث والعشرون : في تلقي النبي صلى الله عليه وآله وسلم الجواب من عنده تعالى نوع تصاغر امام عظمة الربوبية، وتوكيد ضعف البشرية عن الإحاطة بكل العلوم.

الرابع والعشرون : تدل الآية على الحاجة للرجوع اليه تعالى في المسائل والأحكام وان هذا الرجوع لا يؤدي الا الى السلامة والصواب ويمنع من الفرقة والخصومة والنزاع.

الخامس والعشرون : الأمر بالقول جاء صريحاً الى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ولكنه ينحل ويتجدد مع تعدد وتوالي مصادر الحكم والفتوى لتبقى الآية تنبض بالحياة يقرأها اهل الحل والعقد وكأنها انزلت لتأمرهم بالذات.

السادس والعشرون : تعتبر الآية من افضل مصاديق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

السابع والعشرون : ﴿ قُلْ ﴾ الأمر الوارد في الآية ينحل الى مراتب متعددة من القول والفعل والعقاب بحسب البيان والتفسير الوارد في السنة والأحكام التكليفية والوضعية، وهذا من اسرار وكنوز الشريعة الإسلامية بتشعب الأحكام وتفرع المسائل من كلمة قرآنية واحدة وبما يكون متسالماً عند المسلمين.

الثامن والعشرون : ﴿ قُلْ ﴾ امر يتعلق بالإخبار والتبليغ في ظاهره ولكنه تشريع وحكم وهذا سر من اسرار القرآن وآية مستحدثة تتضمنها كل آية من آياته.

التاسع والعشرون : في خبر زيد بن علي عن آبائه عليهم السلام قال: (لعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الخمر وعاصرها ومعتصرها

وبايعها ومشتريها وساقيتها وأكل ثمنها وشاربها وحاملها والمحمولة اليه) (١) ويظهر في الحديث كثرة الآثام واطراف الإثم في موضوع الخمر وانه لا ينحصر بشاربها، بل ان شاربها ورد في التسلسل الثامن من الذين شملتهم اللغة بالخمر.

الثلاثون : الخطاب ﴿ قُلْ ﴾ موجه الى الرسول الأكرم صلى الله عليه

وآله وسلم على نحو القضية الشخصية لمسؤوليات النبوة الا انه ينحل بعدد العلماء والمسلمين، فبعد نزول الآية يمكن ان يكون كل مسلم سائلاً ومسؤولاً.

الحادي والثلاثون : الآية مدرسة تأديبية لعلماء المسلمين بلزوم القيام بالتبليغ ودعوة للمسلمين للرجوع اليها والصدور عنهم لإستخراج الأحكام من ادلتها التفصيلية وفق احكام الكتاب والسنة.

الثاني والثلاثون : الآية من الدلائل الواضحات على اهلية الإنسان للعمل باحكام التنزيل وهي تقيد المسلمين بالعمل بهذه الآية جواب عملي مستديم على استفهام الملائكة المتى عجيبين ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا ﴾ فان الإنسان استطاع الإحتراز والتنزّه من الفساد.

تفسير قوله تعالى ﴿ فِيهَا إِثْمٌ كَبِيرٌ ﴾

بيان سماوي لحقيقة وماهية الخمر والميسر، ودعوة الى نبذهما واجتنابهما والإبتعاد عنهما، والظاهر ان قوله تعالى ﴿ فِيهَا ﴾ ينحل الى موضوعين ففي كل منهما اثم كبير، أي ان كبر الإثم لا يتوقف على اجتماع الخمر والميسر ففي كل منهما على نحو مستقل اثم كبير، ولكن الآية جاءت على طريق اللف والنشر البلاغية وللإخبار عن وحدة

(١) الوسائل الباب - ٥ - من ابواب ما يكتسب به حديث ١.

السنخية والموضوع بينهما في توكيد للتحذير والزجر عنهما ولوحدت الموضوع في تنقيح المناط، والإثم جاء بصيغة المفرد بينما جاءت المنافع بصيغة الجمع، وهو وان ورد بصيغة الفرد الا ان وصفه بالكبير يدل على عظيم الضرر والأذى فيه، وهذه الآية الوحيدة التي فيها وصف الإثم بأنه كبير.

وجاءت المنافع بالإضافة للناس وهم أعم من المسلمين، فالإثم الكبير صفة للخمر والميسر وان كانت من المستلزمات والتناجج، فالظرفية الواردة في الآية والمتمثلة بحرف الجر (في) مطلقة ولا تنحصر بشرب الخمر او لعب الميسر.

والإثم في قوله تعالى ﴿ فِيهَا إِثْمٌ كَبِيرٌ ﴾ على نحو الاجتماع و التعدد والإنفراد فكل من الخمر والميسر فيه اثم كبير، مما يدل على مضاعفة الإثم والعذاب عند اجتماعهما ولا بد من ورد النهي عنهما متحدين من معان ودلالات منها ان كلاً منهما طريقومقدمة للآخر، والتشابه في الأضرار والآثار وان اجتناب احدهما يساعد على اجتناب الآخر وكذا العكس ان ولوج ظلمات احدهما يؤدي الى التمادي واقرار الآخر.

بحث في الأمر بالمعروف

وبين الجهاد والدفاع في سبيل الله عموم وخصوص مطلق، فكل دفاع في سبيله تعالى جهاد وليس العكس، والجهاد ضد النفس الشهوية وتارة لإثبات اصول الدين واخرى لتوكيد السنن وتثبيت الفروع وارساء التشريع وجعله حقيقة وجزء من الواقع اليومي السياسي والاجتماعي والأخلاقي للمجتمعات ولما فيه مصلحة العباد وحمل الناس على اتيان الطاعات وترك المحرمات، لذا فانه على وجوه وصيغ متعددة تتجلى بمراتب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر المتعددة باليد واللسان والقلب

ولكل منها مراتب تشكيكية متفاوتة ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(١).

وفي هذا الزمان زمان العولمة والتداخل الحضاري صارت لهذه المراتب والأدوات مصاديق وافراداً مستحدثة وذات اهمية وخصوصية منها استخدام وسائل الإعلام المرئية والمقروءة والمسموعة والفضائيات خصوصاً وانها دخلت كل بيت ووصلت الى كل شخص، وبلحاظ عمومات التدرج في مراتب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فعلى ضوء مستحدثات الأمور والوسائل فان النوبة لا تصل في كثير من الأحيان الى الجهاد بالسيف ولا يعني هذا التخلي عنه خصوصاً في حالات الدفاع والحشية على بيضة الإسلام والتصدي لمحاولات الإستيلاء على بلاد المسلمين واسرهم ونهب ثرواتهم والذي يكون واجباً على الذكر والأنثى والسليم والمريض، وكذا اصحاب العاهات ان توقف عليهم الدفاع كالأعمى والأعرج، ولو كان الناس ملتزمين باحكام الشريعة لما اضطر المسلمون للدفاع .

وحرمة شرب الخمر من المسائل الجهادية الإبتلائية وهي على أقسام:
الأولى : زجر النفس عن شربه.

الثانية : منع المكلف للذين تحت ولايته من شربه، سواء كان الشخص حاكماً او اباً او رئيساً او وجيهاً له سلطان على افراد مخصوصين بلحاظ حيثية او جهة مالية او اقتصادية او معاشية.

الثالثة : نهى الآخرين عن شربه، كما ان النهي لا ينحصر بشربه بل يشمل عصره وحمله ونقله وبيعه وشراؤه ونحوه من الأسباب والمقدمات التي تشملها الحرمة سواء بجرمتها الذاتية او لما يترشح عليها من ذي المقدمة وهو شرب الخمر، والأقوى ان مقدمات شرب الخمر تتعلق بها

(١) سورة آل عمران ١١٠ .

الحرمة ذاتاً مع النية لقصدتها والحرمة الغيرية ايضاً ويدل على هذا التعدد في وجوه الحرمة اللعنة الواردة في حقهم عن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

الرابعة : والمنع من شرب الخمر جهاد في سبيله تعالى الا انه لا يستلزم القتال والحرب بل البيان والنهي باللسان والقلم والنصح والزجر والترغيب وبيان مبعوضة الخمر والعقاب الشديد الذي ينتظر صاحبه، نعم من ثنيت له الوسادة وكان بمقدوره الحكم بما انزل الله فيجب عليه اقامة الحد على شاربه وهو ثمانون جلدة الا ان يأتي بشبهة تطرد عنه الحد. من وجوه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بيان اضرار الخمر على صحة ومال الإنسان، ونشر المفاهيم الإسلامية في كافة بقاع الأرض بواسطة متعلقات الأحكام الشرعية من المصالح والمفاسد كما يمكن تحييب الإسلام الى نفوس الغربيين من خلال اظهار الأضرار الإجتماعية والأخلاقية التي يجلبها الخمر وتفشي السيئات وما تنفر منه العقول بسبب انتشارها.

ومن الأولى إنشاء مؤسسة اصلاحية عامة تضم الهيئات، والأقسام التالية تعنى باضرار الخمر وفق قراءة قرآنية تشمل:

الأول : الهيئة الصحية ويبين فيها الأطباء اضرار الخمر بدراسات طبية علمية دقيقة ولا تنحصر ابحاث هذه الهيئة على العلماء والأطباء المسلمين بل تشمل كل ذي اختصاص يطلب الحقيقة والسلامة من اضرار الخمر.

الثاني : الهيئة الإجتماعية: ويتولى منه علماء متخصصون في الإجتماع حصر ظاهرة الخمر وما ينتج عنها من الآفات الإجتماعية والأخلاقية وكيفية معالجتها وجعل النفوس تعزف عنها، بصيغ النصح والوعظ .

وهذه الهيئة تنسق العمل مع مؤسسة اسلامية طبية تستحدث لبيان منافع ما احله القرآن واضرار ما حرمه القرآن.

الثالث : القسم السياسي: وفيه رجال من اهل الحل والعقد في المناصب الرفيعة لبيان كيفية تقليص اثر الخمر في ميادين السياسة والاقتصاد والتجارة.

الأول :القسم الدولي: ويتولى التنسيق مع الهيئات والمؤسسات الدولية ذات الشأن والعلاقة للحد من تعاطي الخمر.

الثاني : قسم المخدرات يختص بظاهرة المخدرات وتفاقم اضرارها وكيفية معالجتها زراعة وتصديراً وتسويقاً وصناعة وتعاطياً.

الثالث : قسم الإعلام: وهو الذي يتولى مسؤولية بث ونشر احكام الخمر واضراره ومنافع تركه في جميع انحاء العالم وبمختلف اللغات وطبع ونشر الكتب والدراسات الإسلامية الخاصة بالخمر وترجمتها الى اللغات المختلفة، وانشاء فضائية تعنى بالنهاي عن الخمر والوقاية منه وتعكس نشاطات المؤسسة والإصلاح الإجتماعي العام بترك الخمر.

الرابع : قسم الإدارة المالية: ويتولى تنظيم شؤون الإدارة وتنظيم المكاتب والهيكل الإدارية وجمع الأموال والتبرعات وصرف الإعانات وفتح المستشفيات وشراء الأدوية والمشافي ودور النقاهاة.

الخامس : قسم التدوين والوثائق: يقوم باعداد الدراسات العقائدية والتأريخية والأدبية التي تساهم في نبد الخمر ويقوم بعقد المؤتمرات والندوات الفكرية لبيان اضرار الخمر وكيفية الحصانة الشخصية والنوعية منه والتخطيط للمستقبل القريب والبعيد.

ولا ينحصر نشاط هذه المؤسسة بالمجتمعات الإسلامية بل هو عام لتكون دليلاً على سلامة مناهجه وصدق تنزيل احكامه من عند الله تعالى، وبما يدفع مفاهيم الإرهاب والبطش واليأس عن النفوس ، وفي هذا العمل تأدية لواجب شرعي واخلاقي ودعوة للآخرين لدخول الإسلام او لا اقل معرفة المفاهيم الأخلاقية لآيات الأحكام واجتتاب

الأذى والحملات الدعائية ضد الإسلام خصوصاً وان اغلب القائمين والمتأثرين بها على تضليل وجهالة من الأمر .

فتأتي هذه المؤسسات لدفع الوهم وكشف الحقائق وبث حال العز عند المؤمنين وترسيخ مبادئ الشريعة في اذهانهم وتحصين مجتمعاتهم وهذا الإقتراح ذكرناه في باب المنع من الخمر واضرارها الا انه جاء من باب المثال والحصر، فيمكن ان تقام مؤسسات في مختلف ميادين الأحكام الشرعية. ان النهي عن شرب الخمر واحكامه وعلة المنع يدل على اعجاز القرآن في باب التشريع.

وهناك من الأوامر والنواهي ماجاءت به السنة النبوية الشريفة فالختان مثلاً واجب ولكنه واجب بالسنة وامر به النبي صلى الله عليه وآله وسلم وكذا بالنسبة للنهي عن بعض اللحوم لعمومات ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ ^(١) ولكن حرمة الخمر جاء بها التنزيل وفيه توكيد لأهمية موضوعه ومنع من غلبة الهوى والسلطين في تأويل او نقل الأحاديث والتلاعب باسانيدها او وضع احاديث اخرى معارضة لها اذ ان شياطين الإنس والجن يعلمون بان الخمر مفسدة وباب للتخلي عن الجهاد او الفتور والتقصير في اداء العبادات والتكاليف، فجاءت الحرمة في القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

وتدل حرمة الخمر على وحدة الحياة الإنسانية وعدم امكان تفكيكها والتداخل بين المفاهيم والأفعال، والتأثير المتبادل بينها.

كما تعتبر الآية آية وحجة في اكرام الإسلام للعقل وصيانتة من الدنس والوهن ومحاولة اضعاف اثره في الحياة اليومية والخيارات السياسية والأخلاقية، لقد اكرم الله عز وجل الإنسان بان منحه العقل وجعله آية

(١) سورة الحشر ٧.

التمييز بين الحق والباطل، وهذه الآية من الآيات التي تتعاهد العقل وتجعل منافعه مستديمة وتساهم في بقائه مؤهلاً للتمييز بين الحق والباطل لينتفع الشخص والأمة منه على نحو مركب من وجوه:

الأول : انتفاع الإنسان من عقله لمصالح الدنيا والآخرة.

الثاني : استفادة الأمة من العقل الشخصي كما في قيام بعضهم باختراع جديد او طرح نظرية او انجاز عمل ومبادرة.

الثالث : انتفاع الأمة من العقل النوعي العام بما هم عقلاء.

الرابع : افاضة منافع العقل النوعي على الفرد ومنه العادات الحميدة كالكرم والإنصاف.

لذا فان النهي عن شرب الخمر لا ينحصر بالفرد والإمتناع الشخصي بل يفيد المنع النوعي وضرورة امتناع الأمة عن تعاطي الخمر لذا جاء حديث النبي صلى الله عليه وآله وسلم بشمول اللعنة لذات الخمر مع انها جماد ولعاصرها وبائعها وساقياها وأكل ثمنها لأنه سحت وحرام، وحاملها حرمة مقدمة الحرام، وهذه اللعنة تدل في مفهومها على لزوم تعاضد جهود الأمة لمنع الخمرة والإحتراز من انتشارها، فالخمر رأس الفواحش فهو اثم وضرر ومقدمة للوقوع بآثام واضرار متعددة، والأمة التي تنفشى فيها الموبقات لا تستطيع مواصلة الجهاد وتميل الى الكسل وتركن الى الذل والهوان وتباطئ في اداء التكاليف فجاء النهي عن شرب الخمر لتعاهد امة سليمة من الآفات.

والآية من مصاديق صفة (السميع) فهو تعالى الذي يسمع سؤال المسلمين للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ويحيهم من فوق سماوات سبع ولم يقل للنبي اجبهم بالوحي لعمومات قوله تعالى ﴿ وما ينطق عن الهوى ان هو الا وحي يوحى ﴾ بل انه سبحانه سمع السؤال ولأهمية موضوعه في حياة المسلمين العامة تفضل بالإجابة القرآنية لتبقى وثيقة

سماوية ودعوة لبذ الخمر وسبباً لسن القوانين ولتوسعة في التفسير وتجديد الطاقات المختلفة للتخلص من هذه الآفة.

وفي حديث الإسراء عن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم قال: فطعن جبرئيل باصبعة الإسطوانة فثقبها^(١) ودخل المسجد من باب فيه تميل الشمس والقمر فصليت في المسجد حيث شاء الله واخذني العطش اشد ما اخذني فاذا نحن بثلاث آنية مغطاة، فقال جبرئيل: يا محمد الا تشرب مما سقاك ربك؟ .

فتناولت احداها، فاذا هو ماء فشربت منه قليلاً ثم تناولت الآخر، فاذا هو لبن فشربت منه حتى رويت فقال الا تشرب من الثالث؟ قلت قد رويت قال: وفقك الله... وكان الثالث خمراً، وفي رواية لما اخذ النبي صلى الله عليه وآله وسلم اللبن قال له جبرئيل: الحمد لله الذي هدانا لهذا للفطرة، ولو اخذت الخمر غوت امتك^(٢).

وفي رواية (اخترت الفطرة) بمعنى ان شرب الماء واللبن علامة الاسلام والاستقامة ودوام حياة الإيمان، قال تعالى ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا ﴾^(٣)، كما ان الحياة جاءت بمعنى الإيمان والهدى، قال تعالى ﴿ وَأَمَّا كَانَ مِثْلًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ ﴾^(٤)، واللبن عنوان الرزق الكريم والسهولة والطهارة وحسن العاقبة.

والإسراء حدث في مكة، والآية محل البحث نزلت في المدينة مما يعني ثبوت حرمة الخمر في اصل التشريع، كما يدل الحديث في مفهومه على

(١) صحيح الترمذي ٢٨١/٥.

(٢) الدر المنثور ١٥١/٤.

(٣) سورة الأنبياء ٣٠.

(٤) سورة الانعام ١٢٢.

عدم غواية المسلمين وعلى استمرارهم على مناهج التقوى والصلاح والرشاد.

تفسير قوله تعالى ﴿ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾

مع المنع والنهي عن الخمر والقمار فان الآية اخبرت عن وجود منافع فيهما وهذا من اعجاز القرآن، فالشيء المحرم والمنهي عنه يذكر له القرآن وجود منافع فيه من غير تعارض بين الحرمة والمنافع مما يدل على ان الأضرار اكبر واعظم.

وجاء ذكر المنافع على نحو الإطلاق بالنسبة لإنبساطها ولإستغراقها للناس الا انه لا يمنع من التخصيص كما بيناه في مفهوم الآية.

وتفتح الآية الباب للدراسات الموضوعية المبنية على التحقيق والنظر الى الأشياء بنظرة اكثر شمولية والحرمة والنهي عن الخمر والميسر وذهمهما يبين ان المنافع جزئية ومحدودة وليست في باب العقيدة ويدل عليه العقل والوجدان والدراسات الطيبة.

وهل يمكن القول ان لفظ الناس ينصرف الى غير المسلمين ممن يبيح شرب الخمر، وان الآية تدعو الى احترام عهود الذمة وعدم فرض حرمة الخمر على من يستحله من الملل؟ الجواب: ان الآية جاءت بالمعنى الأعم وهذا الوجه من اهم مواردها ولايعني الحصر به.

وقال الرازي: فمنافع الخمر انهم كانوا يتغالون بها اذا جلبوها من النواحي، وكان المشتري اذا ترك مماكسة في الثمن كانوا يعدون ذلك فضيلة ومكرمة، فكانت تكثر ارباحهم بذلك السبب، ومنها انه يقوي الضعيف ويهضم الطعام ويعين على الباه ويسلي المحزون، ويشجع الجبان ويسخي البخيل ويصفي اللون وينعش الحرارة الغريزية ويزيد الهمة والإستعلاء^(١).

(١) مفاتيح الغيب ٤٧/٥.

ولكن الضرر ملازم للتحريم فما من شيء نهى الله عز وجل عنه الا كانت اضراره كبيرة، ولا شيء من النفع يصلح لمعارضة الإثم وآثاره الدنيوية والاخروية وان الأحكام تتعلق او تكشف المصالح والمفاسد في متعلقاتها، كما ان العلم الحديث لم يثبت أي نفع للخمر على الانسان في بدنه وصحته وأحواله المختلفة، و من اعجاز الآية تعلق المنافع بالناس على نحو المجموع وليس الفرد، فالأقوى ان لفظ الناس ينصرف الى غير المسلمين ويخص أماً اخرى ممن يقوم بصناعته ويجني منه الارباح أي ان الآية تتضمن تنزيه المسلمين وهي جزء من لغة القرآن في اكرام المسلمين فليس في القرآن ذم لهم ويمكن تأسيس قاعدة كلية في لغة القرآن وهي اكرام المسلمين وهذه القاعدة تتغشى موضوعات واحكام آياته جميعاً وتصلح ان تكون جواباً على كثير من وجوه التفسير التي تحمل بعض الآيات مع توييح او ذم المسلمين والواقع بخلافه.

ان العقل والوجدان والطب يحكم بخلاف ما ذهب اليه الرازي، واخبار القرآن بوجود منافع فيه لا يعني التوسع في المجاز وادنى الإحتمال بل ان الواقع بخلافه خصوصاً وانه معارض بالأخبار عما فيه من الإثم، والمؤمن عليه ان ينظر للأشياء والموضوعات يميزان الشريعة واحكام الحلال والحرام وليس المنافع الآنية ، فشرء الخمر انفاق اضافي واسراف ويسبب ارباكاً اقتصادياً ويؤدي الى ضنك العيش، وترك المماكسة لا يخلو من تفريط في غير الموارد التي نهى فيها عن المماكسة كشرء الكفن والأضحية ونحوهما، وهو يفقد الجسم قوته على نحو تدريجي ويؤدي الى عسر الهضم ويعرض المعدة للتلف، ويضعف الباه، وهو سبب في الكآبة.

وما يقال من اذهايه للحزن قد يكون على نحو مؤقت ونوع افتتان وامتحان لما يطراً لاحقاً بسببها على النفس من هم وحزن اضافيين،

وتؤدي الخمر الى الجبن او التهور، وهما طرفان مذمومان والوسط هو الشجاعة، كما انها تفسد الدم وتبدو آثارها على الوجه بشحوب وغضون، وتلاحظ على صاحبها قلة التركيز والحدة والخمور، وهي مقدمة ومدخل لكل سوء ومنكر وتنسي ذكر الآخرة.

ولا يمكن النظر الى المنافع مجردة عن الإثم الكبير، فما دام فيها اثم فلا بد ان المنافع مقيدة وليست تامة او عامة.

كما ورد في الكافي عن الإمام الصادق عليه السلام قال: ان الله جعل للمعصية بيتاً، ثم جعل للبيت باباً ثم جعل للباب غلقاً ثم جعل للغلق مفتاحاً، فمفتاح المعصية الخمر.

نعم يمكن ان تكون اللذة المؤقتة لشاربها من منافع الخمر فجاء التحريم اختباراً وامتحاناً للناس في ترك اللذة المؤقتة من اجل اللذة الدائمة في الآخرة فهي جزء من واقع الحياة الدنيار كدار ابتلاء واختبار، وفي الإحتجاج: سأل زنديق الإمام الصادق عليه السلام: لم حرم الله الخمر ولا لذة افضل منها، قال: حرمها لأنها أم الخبائث ورأس كل شر، يأتي على شاربها ساعة يسلب لبه فلا يعرف ربه ولا يترك معصية الا ركبها... " الحديث، أي مع قصر اللذة فان تكاليفها باهضة واضرارها جسيمة العرضية منها والمستديمة.

ظاهرة المخدرات

وهي مسألة ابتلائية اخذت صبغة عالمية واولاها اهل الحل والعقد في مختلف بلدان العالم اهمية خاصة لما فيها من الأضرار على المجتمعات والعقائد والأمم، فهي آفة من آفات العصر وان ظلت محدودة بسبب القيم المتوارثة وحكومة العقل في ادراك اضرارها لكنها تهدد بالإتساع والتعدي، والشريعة الإسلامية تقول بجرمتها، والظاهر انها مسألة مستحدثة ولكن السنة لم تتركها وهو نوع اعجاز وشمول للوقائع

والأحداث الواقعة والتي ستحصل.

وقد روي عن ام سلمة قالت: "نهى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن كل مسكر ومُفْتَرٍّ" (١)، والمفتّر: هو كل ما سبب الفتور والخدر في الأعضاء سواء كان شرباً او اقراصاً او غيرها، كما ان المعنى اللغوي للخمر يشمل المخدرات وغيرها، اذ انها سميت خمراً لأنها تخامر وتخالط العقل.

وسمي الخمر الذي تضعه المرأة على رأسها لأنه تغطيه، والسكر أي الحجر فهي تسكر العقل أي تحجره فسميت باسم المصدر خصوصاً وان من الآيات والأحاديث ما تعلق بالسكر كما في قوله تعالى ﴿لَا تَقْرُبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَىٰ﴾ (٢)، فالمخدرات وجه من وجوه الخمر، كما انها تلتقي مع الخمر في الأضرار بل انها اكثر مفسدة كماً وكيفاً وموضوعاً واستدامة.

والمخدرات تعد متصل على العقل وازهاب لمعظم وظائفه اذ ان العقل سمي عقلاً من عقال الناقة، لأن العقل يجس الإنسان عن المعصية ويمنعه عن التعدي والتفريط واتيان القبيح واليوم يبدو العلم اكثر حاجة الى حكم الإسلام بمنع الخمرة وشبهها زراعة وصناعة ونقلها وبيعاً وشرباً خصوصاً وان النهي عنها في القرآن جاء لما فيها من القبح الذاتي والعرضي.

(١) سورة الاعراف ٣٣.

(٢) لسان العرب ٤٣/٥.

قاعدة جديدة

ويمكن استقراء قاعدة كلية وهي استظهار الحكم من اجتماع آيتين او اكثر من آيات القرآن يكون لبعضها الحكومة او الورد على الآية الأخرى ومصطلح الحكومة في الأصول يعني التوسعة والتضييق في الحكم، ويمكن ان نطلق عليها اصطلاح "الدليل المشترك" فتشترك آيتان او عدة آيات في الحكم الشرعي وبيان دليله ومدركه او علته.

وقد استدل الإمام الكاظم عليه السلام على حرمة الخمر بهذه الآية ولكن بالواسطة وذكر آية اخرى، ففي الكافي عن علي بن يقطين قال: سأل الخليفة العباسي المهدي الإمام الكاظم عليه السلام عن الخمر: هل هي محرمة في كتاب الله عز وجل؟ فإن الناس إنما يعرفون النهي عنها ولا يعرفون تحريمها، فقال له: بل هي محرمة، فقال: في أي موضع هي محرمة في كتاب الله عز وجل يا أبا الحسن؟ فقال: قول الله تعالى ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ ۖ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ (١)، إلى ان قال: فأما الاثم فإنها الخمر بعينها وقد قال الله تعالى في موضع آخر: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِنَّهُمَا لَكَبِيرٌ مِّنْ نَّفْعِهِمَا ﴾، فأما الاثم في كتاب الله فهي الخمر والميسر واثمهما اكبر من نفعهما كما قال الله تعالى، فقال المهدي: يا علي بن يقطين هذه فتوى هاشمية، فقلت له: صدقت يا أمير المؤمنين، الحمد لله الذي لم يخرج هذا العلم منكم أهل البيت .

اشترك العالم والجاهل في الأحكام

ان المنافع المحتملة من الخمر ولو على نحو القضية الشخصية تبدو ضئيلة وهزيلة امام الأضرار والخسائر الكبيرة الناجمة عن تعاطيها، وقد

(١) سورة الاعراف ٣٣.

ورد عن الإمام الباقر او الصادق عليهما السلام: ما عصي الله بشي، اشد من شرب المسكر، ان احدهم يدع صلاة الفريضة ويثب على أمه وابنته واخته وهو لا يعقل.

تفسير قوله تعالى ﴿ وَسَأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوُ ﴾

في العفو قراءتان:

الأولى: بضم الواو بتقدير هو العفو، او الذي ينفقون العفو، فالعفو خبر لمبتدأ محذوف.

الثانية: نصب الواو.

هذه الآية احدى آيتين يتكرر فيها قوله تعالى ﴿ يَسْأَلُونَكَ ﴾ والأخرى في سورة الاعراف، ويتكرر فيها السؤال عن الساعة أي عن موضوع واحد ويتعلق السؤال في الآية محل البحث بموضوعين مستقلين ومتباينين في وجوب او استحباب العفو وحرمة الخمر والميسر فقوله تعالى (ورقة اضافية).

ولكن هذا التباين لا يمنع من وجود صلة وربط بين الموضوعين، فالسؤال عن المنهي عنه لزمه سؤال عن المأمور به في دلالة على عزم المسلمين على العمل بكل احكام الشريعة وعدم التفريط ببعضها، وان ترك الخمر واجتناب المعاصي مدخل للإتيان بالواجبات والإلتفات الى القربات.

وقيل اصل العفو في اللغة الزيادة، واستدل عليه بقوله تعالى ﴿ خذُ

الْعَفْوَ ^(١) ﴾، والعفو: السهل اليسير ويأتي بمعنى التخفيف، وفي الآية

مسائل:

(١) سورة الاعراف ١٩٩.

الأولى : ذكر ان احكام اليهودية فيها شدة وخشونة تامة واحكام النصرارى مسامحة تامة.

الثانية : نوقش في المراد من العفو في الآية هل هو الصدقة الواجبة وان المراد هو الزكاة وجاءت على نحو الإجمال كما عن ابي مسلم ام المعنى الأعم.

الثالثة : المراد هو الصدقات.

الرابعة : انها تتعلق بالصدقات المستحبة ما قبل فرض الزكاة.

الخامسة : ذكر الرازي احد قولين في المراد بالإتفاق وهو: ان هذا كان قبل نزول آية الصدقات فالناس كانوا مأمورين بان يأخذوا من مكاسبهم ما يكفيهم في عامهم ثم ينفقوا الباقي، ثم صار هذا امراً منسوخاً بآية الزكاة فعلى هذا التقدير تكون الآية منسوخة^(١)، ولم يذكر مصدر القول وجهته وسنده، كما ان القول بان انفاق الزائد على المؤونة كان متعارفاً قبل نزول الزكاة وان الزكاة كانت تخفيفاً في الجملة لا دليل عليه والظاهر والأخبار بخلافه.

ومن قال بالنسخ يذهب الى تفسير العفو بالزيادة من الحال: أي يسألك ماذا ينفقون من اموالهم، فقل لهم: العفو والزائد عن مؤونتك من الأموال فانفقوه كله، وان آية الزكاة حددت مقاديرها ونصبها فهي ناسخة لهذه الآية، ولكن هذا التأويل بعيد والآية غير منسوخة بل موضوعها اعم من الحال ومن الوجوب والإستحباب والندب.

السادسة : من اهم وجوه الإتفاق هو الصدقة سواء كانت تطوعاً او فرضاً بحسب الآيات الأخرى والسنة الشريفة ولا تكون الا في الزائد والعفو.

السابعة : ليس من مانع من اعتبار هذه الآية توطئة للزكاة وتهيئة

(١) مفاتيح الغيب ٤٩/٦.

للأذهان والنفوس لوجوبها على فرض نزولها قبله، او انها لتثبيت الزكاة ان كانت قد نزلت بعدها سواء بالإشارة اليها ضمناً او لما فيها من العموم والأقوى انها نزلت بعد فريضة الزكاة خصوصاً وان الزكاة فرضت في السنة الثانية من الهجرة وان سورة البقرة مدنية بقرينة التدرج في حرمة الخمر.

الثامنة : هل يمكن القول بان الآية تتعلق ايضاً بدفع الخمس لأنه من العفو وهو الزائد، الأقوى لا، لعدم الدليل ولأن ظاهر الآية يدل على العفو وهو الزائد وليس خمسه ولوجود دليل ونص قرآني على اخراج الخمس.

التاسعة : من معاني العفو هو التخفيف والإسقاط والمحو، فالمراد من الآية ايضاً التجاوز والغفران والعفو عن السيئة وعدم ترتيب الأثر عليها واطلاق الإنفاق على هذا النوع من العفو ليس مجازاً محضاً بل هو غاية في البلاغة والإعجاز.

العاشرة : ان ارادة العفو تحتاج الى اتفاق وبذل من منازل العز والحق ولو كان على نحو الإعتبار، كما انه لا يتوقف على الفضل والزيادة في الرزق، فهو متاح وممكن لكل انسان بحسب شأنه وحاله.

الحادية عشرة : تطرد الآية البخل والشح من النفوس، وتمنع من التقدير.

الثانية عشرة : تدعو الآية لنشر الإحسان بين الناس، وهو سبيل للقضاء على الفواحش.

الثالثة عشرة : ورد في الكافي عن الصادق عليه السلام انه قال: العفو: الوسط، وفي تفسير العياشي عن الباقر والصادق عليه السلام: انه الكفاف، وفي رواية: القصد ناقص المراد من القصد.

بحث بلاغي

اخرج عن سعيد بن جبير انه قال: العفو في القرآن على ثلاثة أنحاء نحو تجاوز عن الذنب، ونحو في القصد في النفقة، ﴿وَسَأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوُ﴾^(١) ونحو في الإحسان بين الناس ﴿إِلَّا أَنْ يُعْفُونَ أَوْ يُعْفُوا الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ﴾^(٢).

وتأتي (ماذا) على وجوه اشهرها ان تكون كلها استفهاماً على التركيب من (ما) و(ذا) وهو المناسب لقراءة (العفو) بالنصب، وهو المرسوم في المصاحف وعليه جميع القراء الا ابا عمرو الذي قرأ (العفو) بالرفع ويكون (ما) استفهاماً، و(ذا) موصولة، فيكون المعنى ما الذي ينفقون؟ وجوابه العفو، وهو خير لمبتدأ محذوف أي الذي ينفقون العفو. وعن سيويه عدم اعتبار (ذا) بمنزلة الذي الا في هذا الوضع، اما مدرسة الكوفة فتجوزه في غيره، و ابو عمرو نشأ في البصرة.

تفسير قوله تعالى ﴿كَذَلِكَ بَيَّنَّ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ﴾

الأول : في الآية دلالة على ان الأوامر الواردة فيها آيات من عنده تعالى وان الحكم بحرمة الخمر والميسر والحث على العفو والإنفاق من آياته تعالى.

الثاني : الآية حث على التقيد باحكام هذه الآية من اجتناب الخمر والميسر، ومن الإنفاق والعفو والإحسان.

الثالث : ورود الجواب من عنده تعالى على اسئلة المسلمين بيان للآيات وتفسير لها.

(١) سورة البقرة ٢١٩.

(٢) سورة البقرة ٢٣٧.

الرابع : ﴿ كَذَلِكَ ﴾ للتشبيه أي ان بيان الآيات مستمر ومتصل ويأتي استجابة وجواباً او ابتداء من عنده تعالى فالتشبيه يتعلق بهذه الآية وموضوعاتها وبما سبقها وبما سيأتي من الأحكام فمن وظائف التشبيه بـ(كذلك) تثبيت الأحكام والسنن التي جاء بها القرآن والرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم والتوطئة لنزول احكام جديدة.

الخامس : الإخبار عن الآيات والأحكام التكليفية والوضعية فضل منه تعالى.

السادس : تدل الآية بالدلالة الإلزامية على ضرورة الإلتعاض والإعتبار والإمثال.

السابع : في الآية بشارة تكامل الأحكام في القرآن، والتشبيه هنا دعوة للسؤال وانتظار نزول الأحكام.

الثامن : ان القرآن بيان لأضرار الخمر والميسر وما فيهما من الشرور والآثام.

تفسير قوله تعالى ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾

الآية دعوة لتوظيف العقل لإثبات وجود الصانع وضرورة اتباع الأنبياء والإمثال لما في القرآن من الأوامر والنواهي.

الأول : تتفكرون في عظيم فضله سبحانه في الهداية والتوفيق.

الثاني : في مسائل الحلال والحرام لتكون مناراً وسنة ثابتة ومتبعة.

الثالث : تتفكرون بما في القرآن من اسرار وانه يتضمن كلام الله واجابته سبحانه على اسئلة المسلمين.

الرابع : تتفكرون باغراض الإجابة وغاياتها وما لها من الدلالات وما فيها من المصالح والمنافع والثواب.

الخامس : الآية دعوة لإستحداث الدراسات التي تبين ما في الخمر

والميسر من الشرور والأذى وتحت على وضع المناهج التي تساهم في التخلص من الخمر والقمار.

السادس : الإجابة عن الخمر والميسر وتوكيد اضرارهما جاءت من باب المثال والفرد الأهم وليس الحصر، أي يمكن استخلاص الدروس في المسائل المشابهة.

السابع : تفتح الآية باباً لتحصيل المعارف الإلهية وتؤسس مدرسة في تهذيب النفس والأنظمة الأخلاقية

بحث بلاغي

قد جاء قوله تعالى ﴿ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ ^(١) في الآية ٢٦٦ من هذه السورة ايضاً وضرر أنه من المتشابه بلحاظ الأفراد ومن قسم ما جاء على حرفين.

ولكن التشابه اللفظي لا يعني التشابه في المعنى لإرتباط الأخير بالسياق ودلالته وبموضوع الآية نفسها، ففي هذه الآية تشريع وتحريم وندبو ان البيان والدعوة الى التفكير فيها يتعلقان باحكام الحلال والحرام وتفضله تعالى بالإجابة عن متعلق الخمر والإنفاق وموضوعه، اما في الآية الأخرى فان التفكير التبياني يتعلق بمواضيع اخرى، لذا ترى ان لفظ الآيات ورد بصيغة الجمع والتعدد وليس الإتحاد.

ان هذا التشابه دليل على كثرة الآيات وتعددتها وان التفكير يكون في كل منها وان المقامين ذكرا من باب المثال وليس الحصر.

بحث اخلاقي

يجتهد المصلحون وأهل الحل والعقد في بناء المجتمع وفق أسس وضوابط الصلاح والرشاد وقواعد الحسنة العقلية او الحسنة الشرعية او

(١) سورة البقرة ٢٦٦.

هما معاً، وكل منهما يدرك ان من أوليات مسؤولياته الحد من الخمر ومنع تأثيرها على العقول او ترتب الآثار على شربها، لما فيها من اسراف وانفاق زائد ومذهبة للعقل وحصول جرائم منافية للأخلاق والقيم المتعارفة.

وقد شارك الأطباء وفي كل زمان في التحذير من شرب الخمر، كما ان الاخبار الواردة بمدح العقل والثناء على صاحبه أي من يتخذ سلاحاً ومرشداً تدل بالمفهوم على ذم الخمر لما فيها من فقدان للعقل وغياب سيطرته على الجوارح واللسان.

وفي خبر زيد الشحام عن الصادق عليه السلام: (قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ان الخمر رأس كل إثم)^(١)، بمعنى ان الآثام تنفزع عنها وهو اصلها كما يقال رأس المال أي أصله، الأمر الذي يدل على موضوعية الإعداد الاخلاقي للأمة والافراد، لا يتحقق الا من خلال اجتناب الخمر والابتعاد عنه، كما وصفت الخمر بأنها رجس أي قذرة وقيحة ونجسة لما فيه من الاضرار النوعية والمبغوضية.

ومن أهم غايات علم الاخلاق تهذيب النفوس لتكون مستعدة لتلقي المعارف الإلهية وحريصة على الامتثال في الفرائض والمستحبات، وشرب الخمر سبب لطغيان الكدورات الظلمانية، ويبعث في النفس الجحود والتجراً ويجعل الانسان لا يلتفت الى وظائفه اتجاه خالقه.

وفي صحيحة اسماعيل بن يسار: (سأل رجل الإمام الصادق عليه السلام فقال: أصلحك الله، أشرب الخمر شر أم ترك الصلاة؟ فقال: شرب الخمر، ثم قال عليه السلام: وتدرى لم ذلك؟ قال: لا، قال: لأنه يصير في حال لا يعرف معها ربه).

والسؤال والمقارنة تدل على التسالم آنذاك على حرمة شرب الخمر

(١) الوسائل الباب ١٢ من ابواب الاشربة المحرمة.

واضراره الاخلاقية والاجتماعية، والكتاب والسنة واجماع علماء الاسلام والعقل على حرمة.

ان النتائج المختبرية والطبية الحديثة التي تظهر اضرار الخمر دليل على الاعجاز والتكامل في احكام الشريعة الاسلامية، وستكشف الدراسات في المستقبل بأن الخمر عدو يفتك بالمجتمعات والافراد ويصعب التصدي له، وان النهي والامتناع عن شرب الخمر الذي جاء به الاسلام انما هو حاجة للناس جميعاً.

وكان ولا زال طريقاً لتثبيت قيم الإسلام ومنع العوائق دون اداء الفرائض.



الفهرس

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
إفاضاا الآفة	٤١	المقدمة	٣
الآفة لطف		قوله تعالى ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾	
الصلة بين أول وآخر الآفة		الإعراب واللغة	
قوله تعالى ﴿وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ﴾		في سياق الآيات	
من غايات الآفة		إعجاز الآفة الذاتية	
تفسير قوله تعالى ﴿﴿﴾ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ﴾		إعجاز الآفة الغيرية	
تفسير قوله تعالى ﴿﴿﴾ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾		الآفة سلاح	
تفسير قوله تعالى ﴿﴿﴾ وَعَسَى أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾		مفهوم الآفة	

الفهرس

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
إفاضات الآية	٤١	المقدمة	٣
الآية لطف	٤٢	قوله تعالى ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾	٧
الصلة بين أول وآخر الآية	٤٥	الإعراب واللغة	٧
قوله تعالى ﴿وَأَخْرَجُ أَهْلَهُ مِنْهُ أَكْبَرُ﴾	٥٦	في سياق الآيات	٨
من غايات الآية	٦٣	إعجاز الآية الذاتي	١٦
تفسير قوله تعالى ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ ﴾	٧٩	إعجاز الآية الغيري	١٨
تفسير قوله تعالى ﴿ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ﴾	٨٩	الآية سلاح	٢٨
تفسير قوله تعالى ﴿ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ﴾	١٠٠	مفهوم الآية	٣١

الفهرس

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
في سياق الآيات	١١٦	تفسير قوله تعالى ﴿وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾	١٠٤
إعجاز الآية الذاتي	١٢٦	بحث بلاغي	١٠٧
إعجاز الآية الغيري	١٣١	تفسير قوله تعالى ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾	١٠٨
الآية سلاح	١٣٦	قوله تعالى ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَن يَرْتَدِدْ مِنْكُم عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾	١١٠
أسباب النزول	١٣٨	الإعراب واللغة	
مفهوم الآية	١٤٢	بحث نحوي	١١٣

الفهرس

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
بحث بلاغي	١٧٠	الصلة بين أول وآخر الآية	١٤٥
تفسير قوله تعالى ﴿إِنْ اسْتَطَاعُوا	١٧٠	من	١٥٠
تفسير قوله تعالى ﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾	١٧١	غايات الآية	١٥٦
تفسير قوله تعالى ﴿وَكُفِّرْ بِهِ وَالْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾	١٧٣	التفسير	١٥٦
بحث بلاغي	١٧٣	تفسير قوله تعالى ﴿وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾	١٥٩
قوله تعالى ﴿وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾	١٧٤	قوله تعالى ﴿وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ﴾	١٦١
قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾	١٧٥	تفسير قوله تعالى ﴿وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾	١٦٣
الإعراب واللغة	١٧٥	بحث بلاغي	١٦٧
في سياق الآيات	١٧٦	تفسير ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ﴾	١٦٩

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٢٠٧	إعجاز الآية	٢٣٤	تفسير قوله تعالى ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾
٢٠٩	الآية سلاح	٢٣٦	قوله تعالى ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾
٢١٢	أسباب النزول	٢٣٦	القراءة
٢١٣	مفهوم الآية	٢٣٨	الإعراب
٢١٧	الصلة بين أول وآخر الآية	٢٤٠	اللغة
٢٢١	من غايات الآية	٢٤١	في سياق الآيات
٢٢٢	تفسير ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾	٢٤٥	إعجاز الآية
٢٢٤	قوله تعالى وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴿	٢٤٥	الآية سلاح
٢٢٨	التخفيف بالهجرة	٢٤٧	أسباب النزول
٢٣٠	تفسير قوله تعالى ﴿ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ	٢٤٧	مفهوم الآية

الفهرس

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
تفسير قوله تعالى ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ ﴾	٢٧٧	تفسير قوله تعالى ﴿ تَسْأَلُونَكَ ﴾	٢٥٤
بحث بلاغي	٢٨٠	تفسير قوله تعالى ﴿ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ﴾	٢٥٦
تفسير قوله تعالى ﴿ كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ ﴾	٢٨١	تفسير قوله تعالى ﴿ قُلْ ﴾	٢٥٩
تفسير قوله تعالى ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَكَّرُونَ ﴾	٢٨١	تفسير قوله تعالى ﴿ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ ﴾	٢٦٤
بحث بلاغي	٢٨٢	بحث في الأمر بالمعروف	٢٦٥
بحث اخلاقي	٢٨٢	تفسير قوله تعالى ﴿ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾	٢٧٢
الفهرس	٢٨٥	ظاهرة المخدرات	٢٧٤
		قاعدة جديدة	٢٧٦